



السنة الثالثة عشرة
شباط 2015

- فلسفة التاريخ والبناء الحضاري
- أنا هو أنا.. مسلم كوردي كوردستاني
- التراجع المعرفي في زمن الـ(فيسبوك)!
- الأدب النسوي في كوردستان

مجلة سياسية ثقافية عامة يصدرها شهرياً مكتب الإعلام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political and cultural magazine, issued monthly by Kurdistan Islamic Union

الموقع الإلكتروني: http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الإلكتروني: Alhiwar2003@yahoo.com

العنوان: أربيل ـ محلة طيراوه / مقابل نقليات الشمال / قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

محتويات العدد

كلمة العدد

يوتوبيا

✍ الحكم الصالح أو العادل مطلب بشري قديم، تغنى به الإنسان منذ أن اكتوى ظهره بسياط الظلم، وبشر به الفلاسفة والشعراء مذ وجدوا، وكتب عنه (أفلاطون) جمهوريته، التي التصق بها اسم (اليوتوبيا)، الدولة أو المدينة المثالية، فأصبح التفكير بدولة عادلة أو صالحة نوعا من اليوتوبيا، وخاصة بعد أن استمرأت (البشرية) على أرض الواقع فلسفة أخرى واقعية، دشنها (ميكافيلي)، وسار عليها أغلب من ملكته شهوة الحكم، فأصبح خادما لها، ونحر على مذبح شهواته كل شيء..

وإذا كان البعض، في نصف الكرة الشمالي، قد استفاد من تجاربه، وعمل على إرساء أنظمة للحكم تقترب، قليلا أو كثيرا، مما حلم به الشعراء، أو بشر به الفلاسفة.. فإن البعض الآخر من البشرية، وخاصة في عالمنا الإسلامي – وهي مفارقة يندى لها جبين التاريخ – لا يزال ينظر إلى مسألة الرشد والعدالة في الحكم، وكأنها نوع من اليوتوبيا التي على الإنسان أن يحلم بها فحسب..

ما يجري اليوم في عالمنا الإسلامي، من نزاعات وحروب، وقتل، وتخريب، يؤكد أننا لم نتعلم الدرس بعد، وأن شهوة الحكم، ونزعة التملك والاستحواذ، هي التي وطدت أركان مملكتها، من خلال استغلال فقر وجهل الغالبية العظمى من الناس، واللعب على غرائزهم، وعصبياتهم..

ومع أن الأديان السماوية جميعا تؤكد أن هذه الدنيا فانية، وأنها لا تساوي في ميزان الله جناح بعوضة، وبالرغم من أننا – نحن الشعوب الإسلامية بالذات– نصرخ دائما بأعلى صوتنا أننا ورثة الأنبياء، وأننا حزب الله، وأحباؤه، وملته المخلصة.. رغم ذلك، فإن أوطاننا، وشعوبنا، تعيش في ظل أزمات وحروب وصراعات، من كل نوع.. غلبة واستئثارا بالسلطة والمال وكراسي الحكم!

أين الخلل إذاً؟! هل هو في الحكام، الذين لا يردعهم شيء عن الظلم والطغيان وسفك الدماء؟.. أم هو في الشعوب التي استمرأت الجهل، وتقلبت في مراتع الظلم، فهان عليها كل شيء؟.. أم هو في العلماء والمثقفين، أم في مناهج التدريس، أم الإعلام؟! أم نحيل الأمر على المؤامرات الخارجية، والأطماع الاستعمارية؟!

لا شك أن الأسباب عديدة، ولكن يبقى جذر كل تغيير وأساسه هو الإنسان نفسه.. فالإنسان هو مبدأ كل تغيير.. وللتغيير سننه وقوانينه! ❑

رئيس التحرير

دراسات

الفكر الاقتصادي الإسلامي
وإشكالية تنظير الأساس المادي



الدكتور أمين محمد سعيد الإدريسي
كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة صلاح الدين

✍خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تفجرت في أفق الفكر الإنساني تيارت فكرية شتى، منها المثالية الهيجلية التي تركن إلى دور الفكر في تطور التاريخ، والتيار المادي الذي يركز على العامل الاقتصادي، ودوره في مسيرة التاريخ(١)، كما انبثقت المدارس الاشتراكية على اختلاف توجهاتها بين مغال ومتطرف، حتى سمي بالفوضوي، ومعتدل حتى النخاع، والذي أطلق عليه: (الفكر الفابي)، نواة حزب العمال البريطاني الحالي(٢).

تأثرت نخب العالم النامي ومفكريها بهذه الأفكار، فمنهم من تبناها حرفيا، ومنهم من حاول مواءمتها مع ظروف دولته.

لعل من المسائل الحساسة التي أثارت جدلاً فكرياً، وكأنها فيصل بين الإيمان والكفر، مسألة الأساس المادي، ودوره في مسيرة التاريخ، فضلاً عن دور الأساس المادي في إحداث تغييرات في التركيب الفوقي للمجتمع، المتضمن للأفكار والفلسفات والأديان والفنون والآداب...إلخ.

ولعل من أهم ما يؤخذ على هذا الاتجاه

الفكري:

- ارتباطه الفلسفي الفكري بمذهب الداروينية(٣).
- تضخيم دور الأساس المادي، بحيث يكون المحرك الوحيد لنشوء الأفكار والمذاهب والأديان(٤).
- اعتباره الدين مخدراً للشعوب، للحفاظ على مصالح التركيب الفوقي من خلال تشريعاته(٥).

لعل هذه النقاط هي التي أوجدت نفوراً كاملاً، من قبل مفكري المدرسة الاقتصادية الإسلامية، تجاه فلسفة الأساس المادي، والتي يطلق عليها (الفلسفة الماركسية)، باعتبارها من أهم مروجيها. حتى وصل الأمر إلى إلغاء فكري لمحاولة تفهم دور الأساس المادي في التأثير على الفكر، أو تحجيم لهذا الدور على أقل تقدير، ودون مراجعة ناقدة لكثير من الأوضاع، ومنها الاقتصادية، التي واجهت عصور الخلافة الإسلامية، والتي أملت عليها تطوير الفكر الإسلامي، في ظل ثابت الفقه الإسلامي. ولعل الشواهد التالية نزر من فيض:

أولاً: الإشكالية الفقهية في كيفية التعامل مع الأراضي المفتوحة:

بعد فتح (السواد) على يد الخليفه الثاني (عمر بن الخطاب) (رض)، دب الخلاف في كيفية التعامل مع الأراضي المفتوحة. وقد انقسم الفكر الإسلامي، الذي جسده الصحابة (رض)، تجاه هذه المسألة إلى تيارين:

تيار محافظ: يرى الصورة التقليدية لتوزيع الأرض على المقاتلين، شأنها شأن غنائم الحرب الأخرى.

تيار متجدد: ينظر إلى مقصد الشريعة السمحاء، وهو تحقيق مصالح الأمة في إبقاء الأرض بيد أصحابها، مع دفع ضريبة الخراج عن ما ينتج عنها من زروع، إلى بيت مال المسلمين.

وقد كتب (عمر بن الخطاب) (رض) إلى (سعد بن أبي وقاص) (رض) بعد فتح (العراق): "أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم، وما أفاء الله عليهم، فإذا أتاك كتابي هذا فانظر إلى ما أجلب الناس به إلى العسكر من كراع أو مال، فأقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرضين والأنهار لعمالها، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر، لم يكن لمن بقي بعدهم شيء"(٦).

إن هذا الرأي المتجدد جاء ملبياً لتطورات الأوضاع الاقتصادية، ومستجيباً لتحدياتها الحالية والمستقبلية، إيماناً من الخليفة الثاني بأن الفتوحات الإسلامية ستتواصل، وتتسع تبعاً لها مساحة الدولة الإسلامية، وحاجات الشعب في تنامٍ، ولا بد من إيجاد

مــورد ثابــت مســتمر، يلبـــي الحاجــات الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية.

ثانياً: الإشكالية الفقهية لطبيعة زكاة الفطر:

حينمــا كــان النــاس يعيشــون أوضــاع البداوة في عهد الرســول (صـلى الله عليـه وسـلم)، كان هذا الوضع الاقتصادي المتسم بخشــونة العيش، والحاجة الماسة إلى الغذاء – إذ تحدثنا روايات السيرة النبوية الشــريفة أن الرســول كان يمر عليه وأهله الشهر ولا توقـد في داره نار–(٧) مدعاة لتخصيصه (صلى الله عليـه وسـلم) زكاة الفطر بالحنطة والتمــر والزبيــب، وهــي أغذيــة يمكــن خزنهــا لمــدة طويلــة، دون أن يعتريها التلف.

إلا أن تطـــور الحيـــاة الاقتصـــادية والاجتماعية في العهـد الأمـوي، إذ اتسـعت رقعة العالم الإسلامي من الصين شرقاً، وحتـى فرنسا غرباً، وتحسنت الحالة المعيشـية لأفـراد المجتمع، أصبح لهذا تقديم زكاة الفطر بشكل نقدي يؤدي الغرض نفســه، وبشــكل مــرن، سواء من حيث إمكانية نقله من مكان لآخر، أو من حيث إمكانية استخدام النقد لأغراض مختلفة. من هنــا وجــدنا الإمــام (أبــو حنيفــة) (رض) يرى جواز تقدير زكــاة الفطــر بمبلــغ نقدي يلبــي الحاجة الإنسانية بشكل أفضــل، حتى أصبح تقليد الإمام (أبــو حنيفــة) شــائعاً لــدى المســـلمين مــن مختلــف المـــذاهب الإسلامية(٨).

ثالثاً: الإشكالية الفقهية في إنشاء الدواوين وتوزيع كل ما يردها من أموال:

كان بيت مال المسلمين متواضعاً في عهد الرســول، إذ كــان يــؤتى بــأموال الزكــاة والصدقات إلى مسجد الرســول (صـلى الله عليـه وسلم)، وتوزع في حينها على المستحقين، بحيث لا يتبقى منها شيء، واســتمر ذلــك في عهــد الخلافة الراشدة. إلا أن التطورات السياســية والاقتصادية، التي أعقبت فتح العراق والشام ومصر، كانت إيذاناً للدولة ورئيسها أن تغير استراتيجيتها في التعامــل مــع مــا يردهــا مــن أموال، فكانت الدعوة إلى إنشــاء الــدواوين، وعلى رأسها ديوان بيت المال في عهد (عمر) (رض)، الــذي كــان بمثابــة وزارة الماليــة في عهدنا الحالي، ترد إليه الأموال، ويتم توزيعها طبقاً لأولويات معلومــة(٩). لقــد كــان هــذا التدوين للإيرادات، وأسلوب توزيعها، إنجازاً عملياً متواكباً مع حاجات العصر، ومســتفيداً مــن تجــارب الأمـــم الأخــرى الســـابقة، في إنجازاتها الإدارية لدولة الخلافة الإسلامية. ولم ير (عمر) (رض)، وصــحبه، مثلبــة في هــذا، فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها، فهو أحــق الناس بها. وكنت أتمنى لو اســتجاب (عمــر)

(رض) لما اقترحه بعض الرعية في الإبقاء على بعض الأموال، التي فاضت عن حاجة المجتمع وشؤون الدولة والجيش، وعدم توزيعها بالكامل. إذ ورد أن "عمر (رض) قد جعل لكل واحد من المسلمين نوعاً مقرراً، وفرض لزوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولسراريه وأقاربه، حتى استنفذ الحاصل، ولم يدخر في بيت المال شيئاً. قالوا فقام إليه رجل، وقال: يا أمير المؤمنين لو تركت في بيوت الأموال شيئاً يكون عدة لحادث إن حدث. فزجره (عمر) (رض) وقال: كلمة ألقاها الشيطان على فيك، وقاني الله شرها، وهي فتنة لمن بعدي. إني لا أعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله، فهي عدتنا التي بلغنا بها ما بلغناه" (١٠). إن الظروف الجديدة كانت تستدعي هذا الاتجاه في العمل، ورغم هذا، فإن مجرد هذا الاقتراح الذي صدر من كبار الصحابة (رض)، يدل على إدراك هؤلاء النفر ضرورة عدم الجمود الفكري في التعامل مع المعطيات والظروف الاقتصادية الجديدة. فسعة الفتوح الإسلامية في زمن (عمر) – إذ فتحت على يديه وصحبه الكرام (رض) الامبراطوريتان اللتان كانتا تتحكمان بثروات العالم آنذاك – لا يقارن بما فتح قبله، والثروات التي وردت بيت مال المسلمين أكبر بكثير مما ورد إليه قبل ذلك.

رابعاً: إشكالية النظام المصرفي الربوي

إنشأت في العديد من الدول الإسلامية مصارف عديدة. هذه المصارف تتعامل في السوق في ظل نظام سعر الفائدة (الربا). في ظل هذا النظام وقع المسلمون في إحراج شديد، خاصة وأن هذه المصارف تقدم خدمات للمسلمين لا غنى عنها. على هذا الأساس كان الاتجاه نحو المصارف الإسلامية يشكل الرد على المصارف التقليدية. حيث طورت العديد من المحفظات، كالمرابحة، والمضاربة، والمشاركة، والاستصناع، والاستزراع...إلخ.

خامساً: التأمين التعاوني والتكافلي

فرضت شروط العصر وتحدياته، حيث التطورات الاقتصادية المتسارعة، أشكالاً عديده من التأمين التجاري، كالتأمين على الحريق، والتأمين على السرقة، والتأمين على السيارات، والتأمين على المحال التجارية، والتأمين على النقل، بما فيه التأمين البري والجوي والبحري، والتأمين على الإصابات، والتأمين على الحياة، إلى غير ذلك. حينما تفحص علماء الفقه الإسلامي عقود التأمين وجدوها عقوداً يشوبها الغرر، وأكل أموال الناس بالباطل، الذي يلقي ظلالاً من الشك على شرعية هذه العقود. إلا أن التطورات الاقتصادية، وتشابك العلاقات الاقتصادية

الدولية (الأساس المادي)، كانت تضغط على رجال الاقتصاد والفقه الإسلامي (التركيب الفوقي)، كي يستنبطوا نظاماً تأمينياً تستوحى أفكاره من الفقه الإسلامي، فكانت أنظمة التأمين الإسلامي التعاونية والتكافلية.

سادساً: بيع واستبدال الوقف

واجه الفقه الإسلامي تحدياً في مسائل الوقف، لعل أبرزها أن هناك من الأوقاف الإسلامية ما تقادم عليه الزمان، فبعد أن كان يدر عوائد ذات قيمة، خلال مدة معينة، أصبح لا يحقق العائد المطلوب، أو يحقق خسارة وإضراراً بالاقتصاد الوطني. هنا وقفت بعض المذاهب الإسلامية، كالمذهب الشافعي، متشددة، رغم حدوث تغيرات في الأساس المادي، في حين كان المذهب الحنفي والمالكي أكثر مرونة في التعامل مع هذه المسألة المستجدة، وفي الوقت نفسه لم يخرجا عن القواعد الفقهية الأصيلة في الموضوع، فأجازا استبدال وقف بآخر يحقق عائداً أفضل(١١)❑

هوامش البحث:

(١)Medema , Steven G & Samuels, Warren J., The History of Economic Thought, First Published, London, USA, and Canada , 2003 , P.375.

(٢) دجاني، برهان، الاشتراكية الفابية، مجلة الرائد العربي، العدد ١٥، ١٩٦٢، ص١٣.

(٣) كبة، إبراهيم، تاريخ الفكر الاقتصادي، الجزء الأول، ص ص ٢-٧.

(٤) الصدر، محمد باقر، اقتصادنا، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، د.ت، ص١١٠.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص١١٣.

(٦) ياسين، نجمان، تطورات الأوضاع الاقتصادية في عصر الرساله والراشدين، ط١، دائرة الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص٢٢٢.

(٧)www.articles.islamweb.net/mohammad/index

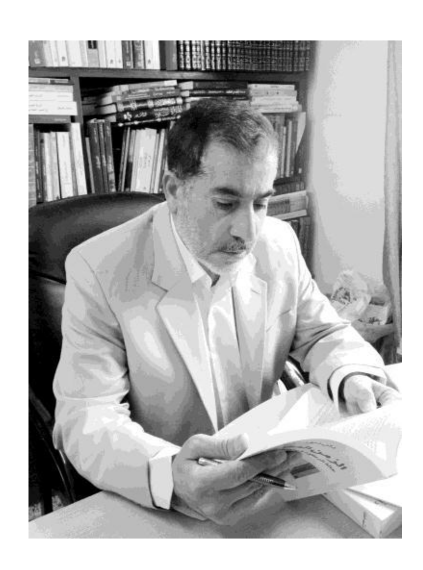
(٨) سابق، سيد، فقه السنة/ باب الزكاة/ ج ٤، دار نوبليس، بيروت، لبنان، ص٥٦١.

(٩) ياسين، نجمان، المصدر السابق، ص٢٣٨.

(١٠) المصدر السابق نفسه، ص٢٤٥. نقلاً عن: ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، ص٨٣-٨٤. وصالح العلي، التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩، ص١٥١.

(١١) الصلاحات، سامي، مرتكزات أصولية في فهم طبيعة الوقف التنموية والاستثمارية، مجلة جامعة الملك عبد العزيز للاقتصاد الإسلامي، ٢٠٠٥، م ١٨، ع٢، ص٥٧.

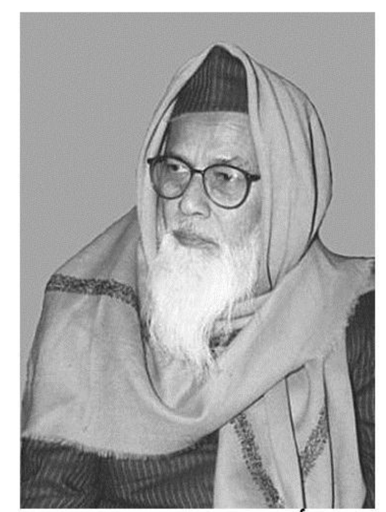
فلسفة التاريخ والبناء الحضاري

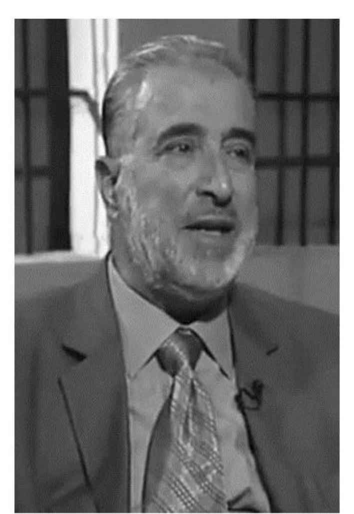


أ.محمد رشدي عبيد

إن قراءة التاريخ تضيف إلى عمر القارئين أعمار السابقين.. أمّا الوعي بالتاريخ فإنه يوظّف ثمراتِ هذه القراءة في تغيير الواقع واستشراف المستقبل، ولذلك استحال التقدّم وانعدمت النهضة عند الذين لا يَعُون دروس التاريخ وعظاته. إن الوعي بالتاريخ من أبواب صناعة التاريخ، وقد كتبت مختلف الأمم التاريخ، منها من أكّدت قيمة الدقة، ومنها من أكّدت العرض الجذاب، وقد اختلط التاريخ أحياناً بالإضافات والأساطير والتحريف، وقلَّ استخراجُ العبر منه والقوانين التي تحكم حركته، مِمّا أدى إلى تكرار الأخطاء والممارسات نفسها.. وغلب على صناعته الأشخاص ذوي العزم الشديد والمواهب الكارزمية، الذين اهتموا بالتجييش والحشد لعواطف الجماهير، دون الاهتمام بالجانب الأخلاقي والإنساني في بنائهم.

(١) وقد نشأ التاريخ الإسلامي استجابةً لحاجاتِ المجتمع، ويظهر أن المؤرخين المسلمين لم يعرفوا كتب التاريخ اليونانية والرومانية،


أبو الحسن الندوي


عماد الدين خليل

لأن شيئاً منها لم ينقل إلى اللغة العربية. لكنهم كتبوا للمجتمع وليس للحُكّام، لكن كتاباتهم لم تخلُ من التأثر ببيئتهم، ونزعتهم المذهبية، وعقيدتهم السياسية، كما كانت كتابتهم ذات مسحة إسلامية، وقد داخلها الإسرائيليات.. وقد كُتبت بالتوثيق باليوم والسنة والشهر، الأمر الذي دفع بالمستشرق الفرنسي (مرجليوث) إلى مدحهم. كما كان بعض الخلفاء، كـ(معاوية)، و(المنصور)، يستمعون إلى التاريخ، ويتفاعلون مع أحداثه. ويعد (ابنُ الأثير) متميزاً في كشف السوابق الطبيعية للأحداث، ونتائجها.. لكنه كغيره لم يتعرّف على تطور الأفكار العامة التي تفسّر التاريخ، ولم يقف على التغيرات الاجتماعية العميقة، التي تظهر الأسباب الظاهرة المباشرة للحدث، أو الحالة، التي تحدث كنتيجة له أو بسببه.. لكن قد يكون من الإنصاف أن نشير إلى (ابن خلدون/ ١٣٣٢-١٤٠٦هـ) كمؤرّخ، لم يسبقه أحد في أيّ زمان أو مكان، حتى ظهور (فيكو)، بعد ٣٠٠ سنة من زمنه. ولقد أشار (ابن خلدون) إلى أن التاريخ يزيد عن أخبار الأيام والدول مع النظر والتحقيق تعليل الكائنات ومباديها، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها.. ويرى بعض المؤرخين أن (أفلاطون) و(أرسطو) و(أوغسطين) ليسوا نظراء له، فقد حاول أن يكتشف مبادئ التقدّم الإنساني والثقافي من التاريخ.

ومن المعاصرين كتب (د.هاشم الملاح) عن فلسفة التاريخ ومدارسها المعاصرة، كما كتب (مظهر الدين صديقي) الباكستاني عن تفسير التاريخ إسلامياً، وكتب (أبو الحسن الندوي) كتاباً يغلب عليه الوصف، وشيء من التحليل، بعنوان لافت هو: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)، موجزاً تاريخ العالم








مالك بن نبي — عبدالله العروي — عبدالوهاب المسيري — عبدالكريم سروش — هشام جعيط

من منظور أخلاقي وإسلامي، ملمحاً إلى الدور الحضاري الممكن لعبه من قبل العالم الإسلامي.. وكتب (د.عماد الدين خليل) عن التفسير الإسلامي للتاريخ، جمع فيه نقد التفسير المادي للتاريخ، وعرض التفسير الشامل له، وتعجّب أن تكون بعض الممارسات الفردية التاريخية الصادمة، المؤرشفة، من صنع المادة، من مثل إقدام بعض القادة على الانتحار، أو إحراق مدن مثل (روما)، من قبل (نيرون)، أو جمع بعضهم، مثل (تيمورلنك)، الجماجم، وبناء معمار منها، وغير ذلك.. وتعرَّض لنظرية (توينبي) في التحدِّي والاستجابة.. وتطرّق إلى دور الجوانب المعنوية والرمزية والبطولية في صناعة التاريخ، مستفيداً من القرآن وسننه ومعادلاته.. وقد بيَّن (د.عماد الدين) أن المنظور القرآني للتاريخ يستهدفُ البحث عن الجوهر والمغزى من التاريخ، وهو حسابٌ موجّه لذوي البصيرة، للإفادة منه في واقع حياتهم، والتخطيط لمستقبلهم، وليس لذوي المصالح والأهواء. كما كتب (مسعود محمد) عن التفسير البشريّ للتاريخ، منتقداً التفسير المادي للتاريخ..

وقد أشار بعض المفكرين إلى أن صناعة التاريخ، وتغيير الأمم والشعوب إلى الأفضل، لا يكون فقط بالموعظة فقط، أو الطلب من الناس تغيير طبائعهم وآلياتهم النفسية وغرائزهم الفسلجية، دون وضع إستراتيجيات فكرية وثقافية واجتماعية للتغيير، ومشاريع مرحلية وخطط مدروسة، لتوجيه الغرائز والحاجات والمواهب والموارد الطبيعية وجهةً إنسانية وأخلاقية وحضارية، سميت بالسنن أو القوانين، وأطلق عليه البعض المنهج الاختباري أو البرهاني. أشار إلى ذلك كتاب مثل (مالك بن نبي)، و(جودت سعيد)، و(د.علي الوردي)، و(د.عبدالوهاب المسيري)، و(د.عبدالكريم سروش)، و(د.محمد أركون)، و(د.عبدالله العروي)، و(هشام جعيط)، و(د.محمد عابدالجابري)، بالرغم من اختلاف مناهجهم البحثية وأدواتهم.

(٢) إن هناك قضية لا يجب تهميشها، وهي

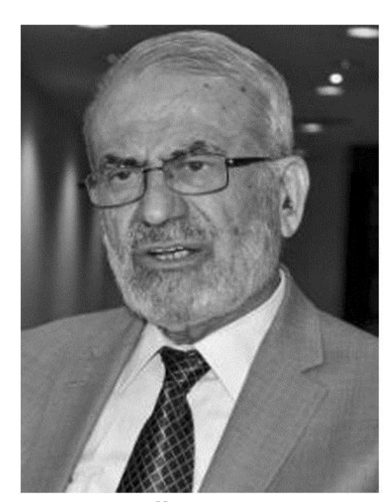
الموضوعية والمصالح المجتمعيّة، فلا بد أن يصاحب عملنا في مجال صناعة التاريخ، وضبط صيرورة الحركة التاريخية بشكل منهجي، تغييرنا لأنفسنا، وعدم خلط الحقائق بالانفعالات، والزيادة والنقصان عليها، وضبط مصالحنا في إطار المصلحة العامة.. ومن أفضل حقب التاريخ، الحقبة التي يتوازن فيها الإنسان ومؤسساته بين العقل والضمير، وحاجات الجسد والحس والمادة والتطوّر المعرفي والإبداع العلمي، وبين مصلحة الفرد ومتطلبات الإنسانية في حدودها الضرورية للتقدّم والسلام العالمي، بالرغم من اختلاف الإثنيات والمذاهب، وأن يتجرّد الناس من العصبية، ويحكموا المنطق ولغة الحوار والقواسم المشتركة، ويتركوا الخلافات المزقة للحمة الإنسانية، ويعادلوا بين مصالح الوطن والقوم، والوشائج الإقليمية، التي تشكّل امتداداً للهُوية الثقافية المشتركة.

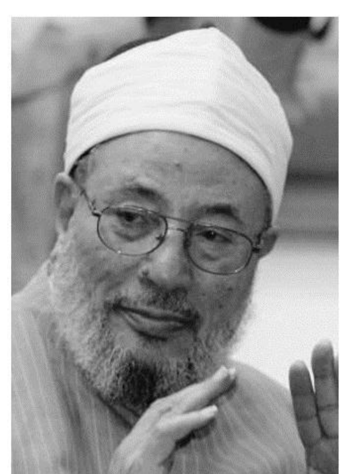
(٣) إن التاريخ حركةٌ صاعدة إلى أمام، وهو غائيّ له هدف، وإن كان يخفى على البعض من فلاسفة التاريخ. ودليل ذلك الإمكانات الهائلة للتقدّم نحو المستقبل، في الدماغ البشري، وفي موارد الكون والطبيعة، لذا فالنظرة التشاؤمية للتاريخ لا مكان لها في عالمٍ يحرصُ على البقاء والتقدّم، وإن كانت بعضُ القِيم تختلفُ بين حقبة تاريخية وأخرى، وحضارة وغيرها، أو تبرز بشكل صارخ. لذا حين نجد ظواهرَ سلبية مستحدثة، علينا أن لا نيأس من علاجها، بل نبحث عن السبب الكامن، ونحلّل الأحداث بموضوعيّة، لنعثر عن الحل، حتى لا تتطور الأمور نحو الأسوأ.

(٤) إن تاريخ العالم تختلفُ تجلياته حسب الميزات الأيكولوجية، كالبيئة والجغرافية والمناخ، فضلاً عن التاريخ ومنتجاته، مما يشكّل أحياناً وعياً قارّاً يميلُ نحو التميّز مع وعي الآخرين، فلا ينتابنا العجبُ من الفروقاتِ الحضارية والعاداتية، بل نحلّل أصداءَها، ونُجَدْوِلُها ضمن بياديغمات، فنعثر على سِرِّ التميّز..

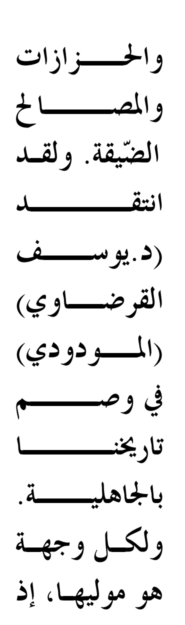
(٥) على الرغم من الأحداث الجسام التي مرَّ بها، ويمرّ، عالمنا، فلا دليل علمي أو ديني على أن نهاية العالم تحسب بالسنوات والقرون، ويحكم فيها بالتنبؤات. لذا لا بُدّ من المثابرة والتفكير في إشكالات عصرنا، ومواجهتها بمفاهيمَ عقلانية وقِيم إيمانية وتحليلات مرنة، وفق كل مستويات التحليل، وحسب قواعد المصالح المعتبرة أصولياً، لرفد حركة التاريخ الصاعدة إلى الأمام، بالرغم من كل المفارقات ونقاط الحيرة والمعالجات الفجة، وغياب المشاريع الحضارية الأصيلة لدى البعض.

(٦) إن بعض الكتاب ينظرُ إلى تاريخ العالم، وتاريخنا بالذات، نظرة تشاؤمية أو دونية، أو يشكّك في حضارية صانعيه، لما ورد في وثائقه


محسن عبدالحميد


يوسف القرضاوي

من تصرّفات غير مبرّرة، تدلُّ على مواجهة الواقع بشكل سطحيّ أو عنيف أو غير مستوعب للمكونات الثقافية أو المذهبية أو الدينية، التي كوّنت مجتمعات ذلك التاريخ. وما يقال في ذلك إن تاريخ الإنسان شريط يمتدُّ عبر آلاف السنين، وقد ساهمت في صنع تضاريسه الواقعية، عوامل شتى من اللادقة والتحيُّز والنفور والخلافات الفكرية والسياسية والفلسفية. ولا زال استنساخ تلك الخلافات يوقع المزيد من الخلخلة والاضطراب في البنية المجتمعية، ويؤخّر المسيرة الحضارية لإنسان العصر، فلا بُدّ من قراءة التاريخ بمعايير موضوعية، والتأشير إلى نقاط قوته وضعفه، والتفكير في حلول جديدة لقضايا العصر، بعيداً عن التقوقع والتعصّب


والحزازات والمصالح الضيّقة. ولقد انتقد (د.يوسف القرضاوي) (المودودي) في وصم تاريخنا بالجاهلية. ولكل وجهة هو موليها، إذ لم يخل بعض السيرورة والصيرورة التاريخية، المحسوبة على السمة الإسلامية، من ضعفٍ أمام مغريات الحياة، لأسباب شتى تتعلّق بصميم بنية الإنسان، وضعفه العريق، وتزاحم الأولويات عليه، مع التعرّض لآثار الحضارات الأُخرى. كما يجب أن نعلم أن ليس كل ما كُتب في التاريخ صحيحاً، وأن تكبير الهفوات يضرّ بإرادة الأمة في تجاوز سلبيات التاريخ، كما أشار (الطبري) إلى ذلك في كتابه. ولقد ذكر (د.محسن عبد الحميد) أن أمتنا قد تخلّفت في التأصيل القانوني لمفردتي العدل والشورى. ومنهم من يذكر تقصيرها العقلاني، ورد ذلك في رد (جمال الدين الأفغاني) على المستشرق الفرنسي (رينان). ومنهم من يشير إلى موضوعة الحريّة والمساواة

في الحقوق والواجبات، مما لا مكان لحصره.

(٧) لا بُدّ من نبذ الخصومات والروح الطائفية والشحن المذهبي، وتأصيل الأخوة، وترك المذاهب للحوار العقلاني والفهم الأفضل للنص على ضوء فقه الواقع، وتغليب بُعد النظر وسعة الأفق والنظرة المقاصدية، وتحويل النزعات الأنانية نحو أهداف تتوازن فيها الرؤى، وعقلنة تصريف الشهوات، وتسريبها في مسارب شرعية، أكثر يسراً، وأقل كلفة وأعباء، للقضاء على الإباحية.

(٨) لا بُدّ من ملاحظة أمور مهمة في دراسة التاريخ، منها أن مناهج كتابة التاريخ لم تسلم من النقص والزيادة، ونقل العجائب والمبالغات، وتأثير ذلك في صناعة الحدث التاريخي، وكتابة التاريخ. فلا بُدّ من إيلاء أهمية للتحقيق التاريخي، وكذلك للمسألة الحضارية، وكيفية احترام القوانين الصارمة في صناعة تاريخ أرقى، وأقل تناشزاً وصراعاً. وأن يبدو التاريخ كشريطٍ من المدافعات والمنافسات والهدم والبناء، لا يعفي المجتمع والنخبة من دورهم التوعوي، فيقحمون أنفسهم في بذل النصيحة، ولا يكون أي منهم غائباً أو مغيباً. ولقد كنت أفكر طوال خمسين سنة، في دور النخبة هذه، وكتبت مقالاً عن شيء واضح من التقصير في الرسائل الأكاديمية، التي تهتم بالجزئيات والأحداث الماضوية أكثر من الحاضر، وتلوين آفاقه، وحل إشكالاته، واستنجدت بالمعجم القرآني، وقاموس الفكر الحديث، والفكر الإسلامي، للشحن والتحريض. وبالمناسبة يمكن الاستفادة من الروح الوثابة، والعقلية الحضارية، للدكتور (عدنان إبراهيم)، الخطيب في (النمسا)، في هذا المجال، وله مقطع فيديو سجلت عليه خطبة عن جريمة اللاأبالية.

(٩) البعض يقول انتهى دور الأفراد في تغيير خارطة الفكر والطريق التاريخي، فقد مضى ذلك الزمن الذي يعزى فيه لشخص واحد، مثل (ابن سبأ)، أدوارا هائلة، تغيرت بها الخارطة. وهذا لا يعني إهمال دور الفرد، خاصة في العصور السالفة، مثل دور (عمر بن عبدالعزيز)، وصانعي تاريخ العالم، الذين أشار إلى بعضهم كتاب: (أعظم مائة صنعوا تاريخ العالم).

(١٠) اختلط التاريخ –كما يقول (ابن خلدون)– بدسائس من الباطل، وزخارف من الروايات المضعفة. كذلك أشار (الطبري) إلى أنه نقل كثيراً من الروايات دون أن يستطيع التأكّد من صحتها، ولا زالت هذه الروايات تؤجّج العداوات، تحت ذريعة متهافتة، وكلام –كما يسميه د.عدنان إبراهيم– فارغ: وهي أن التاريخ يعيد نفسه، وليس في الإمكان أبدع مما كان. فمن قال إنه ليس بإمكان الشعوب والحضارات أن تحسن رؤية عصور

مـن المعرفـة والتـاريخ والـتراث والأعـراق والأديان، فهذه المقـولات يجـب أن لا تؤخـذ على علاتها، فتـؤدي إلى التشـاؤم، ومـن ثـم رؤية الحاضر بعدسة الماضي، التي قد لا تكون لامّـة، بـل مفرقـة، واستنسـاخ النظـرات والمواقف نفسها، وعدم تمييز العوامل الذاتيـة عن العوامل الموضوعية والإنسانية، أو تغليب الجوانـب العسـكرية والسياسـية والمذهبيـة، والقراءات السطحية للعقائـد، علـى الحلـول الإبداعية والذكية والشـاملة لقضـايا المجتمـع والدولة والإنسان والعلم.

(١١) مراعــاة ســنة التــدرّج في البنــاء الحضاري والتاريخي ضرورة حاسمة، إذ بـدون ذلـك يكـون الاسـتعجال، وحـرق المراحـل، واجتياح قدرة الناس على التطـوّر والتحمّـل للتغييرات الاجتماعيـة والثقافيـة، وذلـك مـا يُسمّى في علوم القرآن بـ(فقه التنزيل).

(١٢) يؤكّد كثير من الكتـاب أن الأفكـار والأديـان تقبـلُ بالإقنـاع، وبرؤيـة الجوانـب الحضـارية للفكـرة، والأبعـاد الأخلاقيـة لمـن يـدعوهم إليهـا، وبقـدرتهم علـى تأسـيس المؤسسات المختلفة، لتفعيل تلـك الأفكـار في صور واقعية من الرحمـة والشـورى والعـدل، وتقدير جوانب الضـعف في حيـاة الإنسـان، الـتي قـد تجعلـه ينهـار في لحظـة، ثـم يعـاود الصعود. كما أن الوسـائل لنشـر الأفكـار لا يتحتّم أن تستنسخ من الماضي، بكـل سـقوفه الثقافيـة. فالوسـائل تكتيـك مـتغير، ولـيس استراتيجية نصية.

(١٣) يؤكد (غوسـتاف لوبـون) في كتابـه (فلسفة التاريخ) أن العوامل الدينية والعاطفية لها دور مؤثر في صناعة التاريخ، كما يبيّن أنه لا بُدّ من ملاحظة نفسية كـل أمـة لإحـداث التحولات الاجتماعية، وأن التغييرات العنيفة لا تستطيع لمس حالة الشعوب الماضية، فلا بُدّ مـن فلسـفة تـربطُ بـين الماضـي والحاضـر، وملاءمة مقتضيات الزمن الجديدة مع تحوّلات العالم المتصلة.

(١٤) إن التاريخ ينطوي على عِلل عامّـة، ثـم علـى مـا لا يحصـى مـن العِلَـل الصـغيرة الاستثنائية، من غير أن تنشأ منها. فلا بُدّ مـن البحث عن كلِّ ذلك، لصناعة تـاريخ أفضـل للأجيال الواعدة.

(١٥) اللذة والألم أصلان للتلقينـات الـتي يتكوّن منها العالم الحي، وتعلّم صناعة التاريخ يقومُ على توجيه هذين الشعورين، وتحمّـل ألمٍ ما، أو خسارةِ لذةٍ ما، عاجلة، من أجل نتيجة بعيدة❒

من يستحق الحكم.. ومن يجب عليه أن يحكم

ريناس بنافي
باحث في مجال الفلسفة والفكر السياسي
renasbenavi@hotmail.com

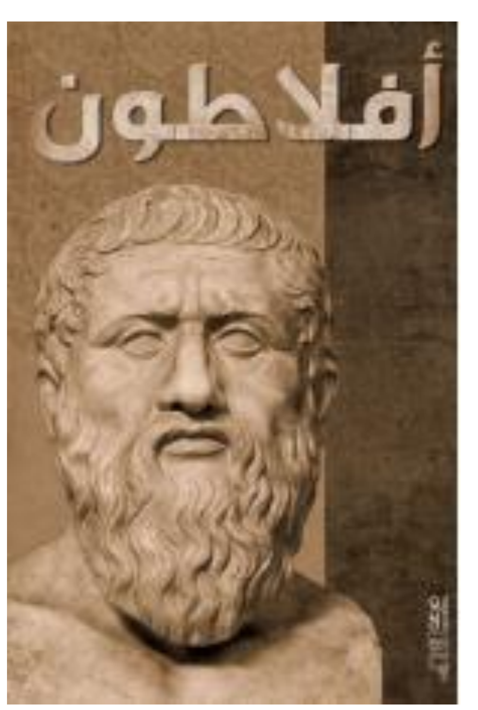
بعد إدانة (سقراط) وإجباره على تجرع السمّ الزعاف راح (أفلاطون) يطرح العديد من التساؤلات: كيف يمكن لحكومة منتخبة ديمقراطياً أن تقتل أفضل البشر؟! ألا يعني ذلك أن هناك مشكلة في تصورها للحكم، ثم بشكل أخص: للخير والشر؟ أليس من الشر أن نقتل الفيلسوف الحكيم، الذي كرس حياته لتوعية البشر وتربيتهم وتثقيفهم؟ ألم يكن قلب (سقراط) مفعماً بحب الخير للدولة، والمجتمع، وكل أبناء الشعب، دون استثناء، فلماذا قتلوه إذن؟

هذه الأسئلة وغيرها هي التي قادت (أفلاطون) إلى الاهتمام بالسياسة. ويعد (أفلاطون) أول من وضع نظاماً سياسياً فلسفياً، صاغه في (الجمهورية)، وفي (النواميس) لاحقاً، إذ – حسب تصوره – إن المشكلة الفلسفية الحقيقية، إنما هي مشكلة سياسية تقع في صميم المجتمع، وحياته المدنية، التي تحتاج إلى إعادة بناء جذري، بغية قيام نظام مثالي(١).

وهذا التصور الفكري له صلة بحياته وخبرته، سياسياً واجتماعياً، وبالمرارة النفسية التي ذاقها، منذ إعدام أستاذه (سقراط) بدوافع سياسية. تلك الأمور والقضايا خلقت عند (أفلاطون) رؤية سياسية فلسفية مميزة، قدم من خلالها الحل الأمثل لمشكلة السياسة داخل المدينة (أو الدولة) الفاضلة.

وبما أن الحياة السياسية، عبر كل العصور، فيها شرور وبطش وفساد، لذا شيد (أفلاطون) جمهوريته النظرية، القائمة على أسس العلم والمعرفة، من ناحية، والمحكومة بقيادة العقل والفلسفة، من ناحية أخرى.

من هنا كان (أفلاطون) يدحض مزاعم السفسطائيين، القائلين بإنكار قوانين الأخلاق وقوانين الدولة، بدعوى أنها من اختراع الضعفاء، من أجل حماية أنفسهم من جبروت الأقوياء. فالسلطة – حسب رأيهم – هي حق شرعي للأقوى دائماً، بينما يرى (أفلاطون) أن إحراز السلطة إنما يكون بقوة العقل، لا بقوة الغاب الوحشية، وهذا الرد رفع أكثر من شأن السياسة، كونها علماً متصلاً بالأخلاق وقوانينها.



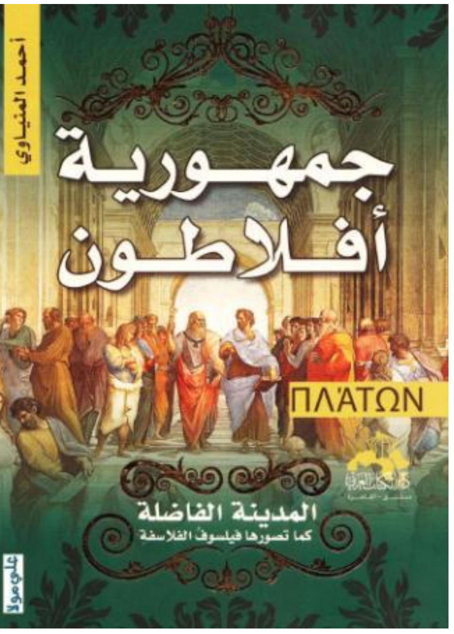
وكانت مسألة العدالة في صلب الفلسفة السياسية لـ(أفلاطون)، فهو لا يريد أن تصدر الدولة قراراً ظالماً بحق أي شخص، بعد كل ما حصل لـ(سقراط) العظيم، إنه يريد دولة تعاقب المجرم لا البريء، وتكافئ الإنسان الخيّر لا الشرير، وإذا لم يتم فعل ذلك فإن المقاييس تفسد في الدولة، والمجتمع، وتصبح الأمور عاليها سافلها. وبالتالي فالعدل هو أساس الحكم عند (أفلاطون).

ولقد قسم (أفلاطون) الدول التي تضاد دولة العدل إلى أربعة أقسام، هي:

١ ـــ الدولة الدينية: وهي حكومة الطبقة الوسطى، التي تسمح بالملكية الخاصة، وما يصيب النظام من اختلال بسبب ذلك، فتجعل العسكر في هذه الطبقة هم الأفضل، مما يؤدي إلى العنف والحرب.

٢ ـ الدولة الإقطاعية: ناتجة عن الدولة الدينية، حيث يعتاد الأفراد على جمع المال بأية وسيلة كانت، وبسبب ذلك تضمحل وتنتهي الفضيلة، حيث لا يبقى غير الأثرياء، الذين قد يكونوا جمعوا أموالهم بطرق مشروعة أو غير مشروعة.

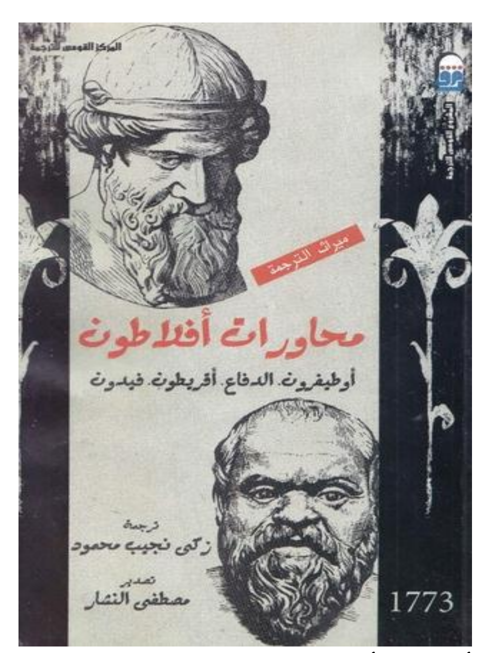
٣ ـــ دولة الشعب: وهو الحكم



الديمقراطي الفوضوي، حيث يثور الفقراء على الأغنياء، بسبب الحرمان والتعسف، ويصبح الحكم شائعاً للجميع، لا نظام ولا قائد مُسيطر، بل الشعب يحكم نفسه بنفسه.

٤ ــ الدولة الاستبدادية: وهو حكم الطغيان والمصالح الشخصية، إذ بعد أن تعم الفوضى لحكم الشعب، تفرز هذه الحالة فرداً من المجتمع، يوهم الجميع بأنه سوف يبني الدولة بلا ضرائب ولا ظلم.

وينص (أفلاطون) على أن الحاكم لا يصلح ولا يكون إلا فيلسوفاً، ويسميه (المثل الأعلى). والسبب الرئيس في ذلك هو أن الفيلسوف، أو الفلاسفة الحكام، هم وحدهم الذين يدركون التصور المثالي للحكم، لا سيما وأنهم لا يبغون السلطة من أجل المال



أو الجاه أو التسلط، بل غايتهم المصلحة العامة فقط.

المعارضة الشرسة للديمقراطية في كتابه (الجمهورية)! لماذا؟

لأن الشعب لا يستطيع أن يحكم نفسه بنفسه، فهو في حاجة إلى قائد يعرف كيف يميز العدل من غير العدل، والخير من الشر، والصواب من الخطأ. وقد أوضحت له إدانة (سقراط)، من محكمة شعبية، كم بإمكان الشعب أن يضل، ويفقد البوصلة. والحل بالنسبة إليه: ملك – فيلسوف، أو فيلسوف – ملك، يمكنه حكم المدينة، ذلك أنه الوحيد الذي يستطيع تحديد الحقيقة.

إن اهتمام الفلاسفة الذين كتبوا مدناً فاضلة انصب على قضية تربية حاكم المدينة،



ووجوب تميزه بخصال علمية ثقافية وأخلاقية، تمكنه من إدارة البلاد على الوجه الأكمل.

ويعتقد (أفلاطون) أن الإنسان يميل بطبعه إلى الظلم والتعدي أكثر من العدالة، وأن الدولة ينبغي أن تُعلّم الأفراد حب العدالة. ويقسم الإنسان إلى: (الرأس، وفيه العقل، وفضيلته الحكمة)، و(القلب، وفيه العاطفة، وفضيلته هي الشجاعة)، و(البطن، وفيها الشهوات، وفضيلتها هي الاعتدال). والنظام (الديمقراطي) يستهوي العقول، لكن الواقع أن الناس ليسوا أكفاء بالمعرفة والتهذيب، ليتساووا في اختيار الحكام، وتعيين الأفضل، وهنا منشأ الخطر. ويقول (أفلاطون) إن أفضل دولة هي التي يكبح فيها العقل جماح الشهوات والعواطف، والناس إذا لم يهدهم العلم كانوا جمهوراً من الرعاع من غير نظام، كالشهوات إذا أُطلق العنان لها، فيحل الدمار بالدولة حين يحاول التاجر، الذي نشأت نفسه على حب الثروة، أن يصبح حاكماً، أو حين يستعمل القائد جيشه لفرض ديكتاتورية حربية. فالعدالة هي ليست القوة المجردة، وهي ليست حق القوي، إنما هي تعاون كل أجزاء المجتمع، تعاوناً متوازناً فيه الخير للكل(٢).

والمجتمعات في رأي (أفلاطون) تُسعد إذا ما حكم الملك الفيلسوف، وإذا كان من الصعب أن يكون الملك فيلسوفاً، فلا بأس، أن يتفلسف الملوك، وهذا يعني أن يتزود حكام المدينة بالحكمة، كي يديروا شؤون الدولة على الوجه الأكمل.

هكذا نجد أن الفيلسوف هو نواة عصره، وخلاصة الحضارة الإنسانية، يأخذ بمقدار ما تيسر له من الإطلاع على الثقافات، ويعطي ما يقدر على إعطائه، بحسب ما تزوده معارفه، وتقدر عليه طاقاته الإبداعية، من خَلق وعطاء. ولا شك أن كل المدن الفاضلة،

التي كُتِبَت بعد جمهورية (أفلاطون)، قد تأثرت بهذا الكتاب، بكثير أو قليل.

لقد اهتم الفلاسفة، الذين كتبوا مدناً فاضلة، بتربية حاكم المدينة، ووجوب تميزه بخصال علمية وثقافية وأخلاقية، تمكنه من إدارة البلاد على الوجه الأكمل. ويعتقد (أفلاطون) أن الملك هو كالنهر الأعظم، تستمد منه الأنهار الصغار: فإن كان عذباً عذبت، وإن كان مالحاً ملحت.

والعدالة لدى (أفلاطون) تأتي من كونه لا يريد أن تصدر الدولة قراراً ظالماً بحق أي شخص، بعد كل ما حصل لـ(سقراط) العظيم. إنه يريد أن تعاقب المجرم لا البريء، وتكافئ الإنسان الخيّر لا الشرير. وقد رأى (أفلاطون) أنه حتى الديمقراطية يمكن أن تحمل في طياتها بذور الطغيان والتعصب والظلم، إذا لم تقدها القوانين العادلة والحكيمة. وأكد (أفلاطون) بصريح العبارة، أن العبيد واهمون حينما يعتقدون في المساواة، لأن العدالة لا يمكنها أن تكون كذلك أبداً، لأن الناس خلقوا غير متساوين بطبعهم، فالعدالة عند (أفلاطون) مرتهنة بالقدرة على الحكم، وفرض الأمر الواقع.

والفضائل عند (أفلاطون) أربعة وهي: الحكمة – الشجاعة – العفاف – العدالة.

ويرى (أفلاطون) أن الغرض من الدولة هو إسعاد الأفراد للوصول إلى الحكمة والفضيلة والمعرفة، وأن خير وسيلة لإعانة الأفراد للوصول إلى تلك الغايات، هي التربية، فالتربية هي من أهم واجبات الدولة.

وسيطر على أذهان فلاسفة السياسة، وعلماء الاجتماع، وفقهاء القانون، موضوع قديم متجدد، ألا وهو: لمن يكون الحكم؟ هل لصالح فئة محددة، تتحقق فيها شروط الكمال؟ وبالتالي يتحقق في ظلها العدل والأمان في المجتمع، أم يكون ذلك عن طريق حكم القانون، الذي يضمن العدل والمساواة بين الناس؟

لقد شغل هذا الموضوع الفلاسفة منذ أقدم العصور، فتحدثوا منذ (أفلاطون)، وربما قبله، عن مدينة مثالية، لعب الخيال فيها دوراً كبيراً. وكانت هذه المدن في حقيقة الأمر بديلاً للظلم والقهر المتحقق في دنيا الواقع، ومن ثم لجأ الفلاسفة إليها، أملاً في أنموذج أفضل، ربما يأتي بعد ذلك من يسعى إلى تحقيقه(٣)، وذلك لأن هذا الأمر هو أحد أهداف الحياة السياسية. من أجل هذا، فإن حلم الإنسان بواقع أفضل لم ولن يتوقف يوماً من الأيام، وسوف يظل يداعب الخيال، ما بقي على ظهر الأرض إنسان.

وإن الأفكار والخيالات المختلفة، كانت تعبيراً عن الرغبة في تغيير الواقع القائم وتجاوزه، والحلم بحياة ومجتمع أفضل وأكثر عدلاً. إنها كانت صرخة احتجاج على

أوضاع وظروف اجتماعية ظالمة وفاسدة، وقد شغل (أفلاطون) نفسه بهذا الموضوع، وظل بمثابة الظل الذي لازمه طوال حياته، وانعكس ذلك بوضوح في أعماله الفلسفية كلها، وذلك من خلال محاولة الإجابة عن سؤال: لمن يكون الحكم؟

مال (أفلاطون) في معظم حياته إلى حكم الفيلسوف، وظل يحلم به طوال حياته، فسعى إلى رسم صورة لطبيعة الفيلسوف السياسي، أو السياسي الحكيم، الذي يقود شعبه وأمته، وجاء ذلك في محاورتي (الجمهورية) و(رجل الدولة). لكنه فيما يبدو تخلى عن هذا الحلم في أخريات حياته، بعد أن تجاوز السبعين من عمره. وهذا ما تعكسه بوضوح أعماله الأخيرة، ومنها (القوانين)، حيث نادى بحكم القانون، حتى يضمن العدل والاستقرار بين الناس، ربما نتيجة ليأسه من وجود تلك الشخصية الفريدة، التي يرى أنها لا تتوافر إلا في القليل من الناس، وبالتالي لم يجد بداً من اللجوء إلى القانون، الذي يستطيع وحده، في غيبة نموذج الفيلسوف الحاكم، أن يحمي الجماهير من بطش المستبدين.

وكان لحديث (أفلاطون) عن الفيلسوف السياسي، أو السياسي الحكيم، أثره في الفكر الفلسفي عموماً، فحاكاه ونسج على منواله كثير من الفلاسفة، وظلت (الجمهورية) هي النموذج الذي يسعى إليه المفكرون، هرباً من واقعهم البائس، وتطلعاً إلى واقع أفضل، حتى ولو في عالم الخيال.

يميلُ (أفلاطون) إلى حكم الفرد، إذا كان ذلك الفرد فيلسوفاً شبيهاً بـ(سقراط)، أما إذا كان ذلك الفيلسوف الحاكم، أو تلك الشخصية النمطية، غير موجودة في الواقع، فحينئذٍ لا مناص من حكم القانون" لأنه في هذه الحالة يضمن على الأقل حداً أدنى من المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات(٤).

وإذا كان (أفلاطون) يؤكد على قدرة الفيلسوف الحاكم، أو رجل الدولة، على قيادة الجماهير، وتوجيه شؤون الدولة، فإنه حدد مجموعة من الصفات النفسية والعقلية لهذا الفيلسوف، تؤهله للقيام بمثل هذه المهام الصعبة. وقد جاءت هذه الصفات في العديد من مؤلفاته، وخصوصاً (الجمهورية)، ثم ظهرتْ هذه الصفات نفسها، بعد ذلك، في محاورة رجل الدولة.

وتنقسم هذه الصفات إلى صفات فطرية، وأخرى مكتسبة. أما الصفات الفطرية، فهي التي يُولد الفيلسوف مزوداً بها، مثل أنْ يكون شجاعاً نبيهاً، شديداً مع الأعداء، ليناً وديعاً مع الأصحاب. وبالإضافة إلى هذه الصفات الفطرية، التي يولد بها، يجب أنْ يتمتع بمجموعةٍ أخرى من الصفات المكتسبة، مثل:

المعرفة وحب الاطلاع" فالفيلسوف هو ذلك الإنسان الذي يعشق الحكمة كلّها، وليس وجها من وجوهها.

أن تُروض نفسه على سماع الموسيقى والقصص والحكايات التربوية، التي تُولد لديه إحساساً بالجمال والهدوء، بعيداً عن التهور والعنف.

أن يُعوّد – أيضاً – على اقتباس الفضائل، كالصدق ومحبة الحق، واجتناب الرذائل، كالكذب والخداع.

أنْ يؤمن بثبات القيم وأزليتها" فالثبات مقدس، والتغير شر.

أن يملك القدرة على التوحيد بين المتناقضات في المدينة الفاضلة.

أن لا يخشى الموت.

الدول عند (أفلاطون)، وترتيبها حسب أفضليتها:

الدولة المثالية: التي يحكمها فيلسوف يملك المعرفة الكاملة.

الدولة التيموقراطية: التي تحكمها أقلية عسكرية، وتمثل مرحلة الفساد في الدولة المثالية.

دولة الأقلية الغنية، أو الاوليجاركية: وتمثل مرحلة الفساد في الدولة التيموقراطية.

الدولة الديمقراطية: وتمثل مرحلة الانحطاط في دولة الأقلية الغنية.

دولة الفرد الطاغية: وهى تجسد أقبح نظم الحكم على الإطلاق❒

الهوامش:

(١) إشراف: فيليب رينو وستيفان ريالس، قاموس الفلسفة السياسية، المطبوعات الجامعية الفرنسية، باريس، ٢٠٠٦.

http://www.albayan.ae/paths/books/1151302790724-2006-07-17-1.937769

(٢) أحمد المنياوي، جمهورية (أفلاطون)، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.

http://shazaraaat.blogspot.co.uk/2013/07/blog-post_58.html

(٣) عزمي عبدالوهاب، صورة الحاكم الفيلسوف، الأهرام العربي.

http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=1006209&eid=564

(٤) عادل سالم عطية، الحاكم الفيلسوف بين (أفلاطون) وفلاسفة الإسلام، صحيفة (الوطن الجزائري).

http://www.elwatandz.com/bibl/nak/6433.html

العلاقة بين سياسة التدرج وبين مقاصد الشريعة



د.أياد كامل الزيباري

✍ إن المتتبع لنصوص الشريعة يجد أنها تقوم على رعاية مصالح العباد، في العاجل والآجل، من جلب منفعة، أو دفع مضرة. وتحقيق المصالح، سواء كانت لفرد أو لمجتمع، تحتاج إلى قوة تحمي هذه المصالح، خصوصاً في العصر الحديث، التي تتجمع فيه قوى الشر ضد الحق والعدل، وهذه القوة لا بد لها من دولة تحميها، حتى تؤتي أكلها، وهذه الدولة وقوتها لا يمكن أن تنشأ بين ليلة وضحاها، بل تحتاج إلى تخطيط وإعداد وتنفيذ، مع صدق النوايا وإخلاص العزيمة والإيمان الكامل بحتمية إقامة شرع الله وتطبيقه في كل المجالات. وهذا الأمر يرتبط بموضوع المقاصد الشرعية، وسياسة التدرج كفيلة بتحقيق ذلك. ويمكن أن نوجز العلاقة بين سياسة التدرج ومقاصد الشريعة في النقاط الآتية:

١- إن من أهم مقاصد الشريعة عمارة الأرض، والقيام على المهمة التي كلف الله (عز وجل) بها الإنسان، من نشر التوحيد وإقامة العدل والإنصاف بين أبناء البشرية جمعاء. وهذا لا يكون إلاّ بالتدرج في تطبيق الشريعة الإسلامية، ثم التمكين لهذه الأمة(١).

٢- إن من أهم الوسائل لتحقيق المقاصد الشرعية: الوحدة الإسلامية. بل إن الإسلام ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، وهو: الوحدة الإنسانية. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(٢)، وهذا لا يتحقّق إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية، ولو بالتدريج(٣).

٣- إن وظيفة الشريعة الإسلامية هي الحفاظ على مقاصد الشريعة، وذلك بحماية الدين، ورعاية مصالح العباد(٤).

٤- تمثل سياسة التدرج، في ضوء الفهم

المقاصدي، الطريق الأمثل للتعامل مع فقه الواقع، وللموازنة بين المصالح والمفاسد المتعارضة. إذ إن مقاصدَ الشريعة تمثل المرتكز الأهم لسياسة التدرج، وتطبيق الشريعة(٥).

٥- إن لسياسة التدرج أثراً مهماً في بيان يسر الشريعة الإسلامية، وذلك بمراعاتها لمصالح العباد، وأعراف الناس، ما لم يعارضها معارض(٦).

وعلى ذلك، يمكن القول إن الأمة الإسلامية اليوم في أمسِّ الحاجة إلى فقه المقاصد، ذلك الفقه الذي ينظر إلى مآلات الأمور وعواقبها. وذلك لأننا لسنا أمام جزئيات فقهية، بل أمام نظم أخرى منافسة، وحيث إن الشريعة الإسلامية مبنية على الحكم ومصالح العباد في الدنيا والآخرة، قال ابن القيم: "فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد،وهي عدل كلها،ورحمة كلها، ومصالح كلها،وحكمة كلها"(٧)، فلا بد من مراعاة هذه الحكم والمصالح فيما يستجد من أمور، خاصةً فيما يتعلق بالسياسة الشرعية، بل في هدفها الأول، وهو تطبيق الشريعة الإسلامية، والتمكين في الأرض.

مقاصد تطبيق الشريعة الإسلامية

هناك عدة مقاصد ومصالح شرعية وفضائل في تطبيق الشريعة الإسلامية، ومنها:-

أولاً : تحقيق العبودية لله تعالى، وذلك بالتحاكم لشريعة الإسلام.

ولعلّ من أهم مقاصد تطبيق الشريعة الإسلامية، توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبودية، لأن شريعتنا شريعة ربانية، تقصد إلى تحقيق مصلحة الخلق في الدارين، وذلك بجلب مصالحهم، ودرأ المفاسد عنهم، وهو المقصود من كل الشرائع السماوية، وهذا لا يكون إلاّ بتمام العبودية والإخلاص لله تعالى، وإفراده (جل وعلا) بالعبادة والتوحيد، والطاعة والتسليم لحكم الله وشرعه. فكلمة التوحيد تتضمن إفراد الله تبارك وتعالى بالحكم والتشريع، وهي تعني الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله(٨).

فالحكم والطاعة المطلقة إنما هي لله ولرسوله (صلّى الله عليه وسلم)، لقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٩)، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾(١٠)، فلا حلال إلاّ ما أحلّه الله تعالى، ولا حرام إلاّ ما حرّمه الله تعالى، ولا تحاكم إلاّ لما شرعه الله جل وعلا من أحكام الشريعة الإسلامية، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ﴾(١١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): "فالإسلام يتضمّنُ الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم

يستسلم له، كان مستكبراً عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمّن عبادته وحده وطاعته وحده، فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت، بفعل ما أمر به في ذلك الوقت"(١٢).

ويجب أن يعلم جميع المعارضين لتطبيق الشريعة الإسلامية، أن تطبيق الشريعة والتحاكم إليها حق خالص لله تعالى، فلو لم يكن إلا التسليم لأمر الله تعالى بالتحاكم لشرعه، لكان كافياً شافياً في وجوب الالتزام بتطبيق الشريعة الإسلامية. وعلى هذا فلا تحاكم لرغبات الشعوب وأهوائها، ولا حق للبرلمانات في مخالفة شرع الله تعالى، ولا يحق للحزب الحاكم أن يُحرّم ويحلل بهواه، وليس لأيّ أحد الحق في الخروج على حكم الله تعالى.

ثانياً: تحقيق العدالة بين الناس

من المبادئ الأساسية في الشريعة الإسلامية العدالة في كل زمان ومكان، ومع كل الأشخاص، فليس لأحد أن يظلم غيره، أو أن يأكل حقه، أو يطمع في جهده، لأن هذا منافٍ للعدالة التي أوجبها الله تعالى حتى مع الأعداء، فلا فرق بين غني وفقير، ولا بين قوي وضعيف، ولا بين حاكم ومحكوم(١٣). قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١٤).

والعدلُ أساس شامل لكل ميادين الحياة، كونه قيمة عليا، وأساساً للتعامل في المجتمع الإسلامي، في مختلف أوجه التعامل والعلاقات، وهو أيضاً قوام الدولة ونظام الحكم فيها، وهو مبرر وجود جميع المؤسسات والأجهزة، وأساس شرعية القوانين والأحكام والقرارات كافة، بل هو الشرع كله، وهو "قبل كل شيء عدالة إنسانية شاملة لكل جوانب الحياة الإنسانية ومقوماتها، وليست مجرّد عدالة اقتصادية محدودة. وهي إذن تتناول جميع مظاهر الحياة وجوانب النشاط فيها، وتتناول الشعور والسلوك والضمائر والوجدانيات والقيم التي تتناولها هذه العدالة، وليست القيم المادية على وجه العموم، وإنما ممتزجة بها القيم المعنوية والروحية جميعاً"(١٥).

فالعدلُ في الشريعة ليس حقاً، وإنما فريضة واجبة، فرضها الله تعالى على الكافة دون استثناء: فرضها على رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وأمر بها، فقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللّهُ

يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(١٦). وهو فريضة واجبة على أولياء الأمور، من الولاة والحكام، تجاه الرعية والمتحاكمين، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(١٧). وقد أمر الله تعالى بالعدل في كل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١٨)، بل حتى مع الأعداء قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١٩).

وقد لخص (الراغب الأصفهاني)، مجالات العدل، وبيّن أنها تشمل كل شؤون الحياة، ومن أبرزها خمس كما ذكرها، وهي:

الأول: بين الإنسان وبين ربِّ العزة سبحانه وتعالى، بمعرفة توحيده وأحكامه.

والثاني: بين قوى نفسه، وذلك بأن يجعل هواه مستسلماً لعقله. فقد قيل: أعدل الناس، من أنصف عقله من هواه.

والثالث: بينه وبين أسلافه الماضين، في إيثار وصاياهم، والدعاء لهم.

والرابع: بينه وبين معامليه، في أداء الحقوق، والإنصاف في المعاملات، من البيع والشراء، والكرامات، وجميع المعاوضات والإجارات.

والخامس: بث النصفة بين الناس على سبيل الحكم، وذلك إلى الولاة وخلفائهم(٢٠).

فالمكانة التي جعلها الإسلام في تشريعه للعدل لم تجعلها له أي شريعة سابقة، ولم يبلغ مثلها مكان العدل في أي نظام قانوني قديم أو حديث(٢١).

ثالثاً: تحقيق التنمية والرخاء الاقتصادي

إن الشريعة الإسلامية هي التي تسعى لتحقيق الرخاء الاقتصادي لكل من يعيش على أرضها، وتضمن حد الكفاية بشروطه وضوابطه، لكل فرد من أفراد مجتمعها، من المسلمين، ومن غير المسلمين، من أهل ذمتنا، ممن يعيشون على أرضنا، ما لم يخونوا أو يغدروا أو يتحالفوا مع عدوٍّ ضد بلدانهم. وكذلك الحفاظ على الملكية العامة، والخاصة، في الوقت ذاته، فشريعة الإسلام تحمي الملكية العامّة والخاصّة، وتحافظُ على المال العام من النهب والسرقة، وذلك عن طريق تشريع الحدود الرادعة لكل من تمتد يده إلى المال العام. فالشريعة الإسلامية هي التي تضمن للجميع حد الكفاية، وذلك بما يضمن لهم حياة كريمة عزيزة، دون منة أو تفضل من أحد، فالجميع خلق الله تعالى، والمال مال الله

تعالى استخلفنا فيه، وجعل للفقراء حقوقاً في أموال الأغنياء، ليعيش الجميع في عزةٍ وكرامة(٢٢).

وإن حد الكفاية أو الغنى، كما هو معلوم، يوفره الإنسان لنفسه، وتساعده الدولة المسلمة على ذلك، بتوفير أجواء من الحريات، والتشجيع على العمل والاستثمار، أو توفير فرص العمل المناسبة، أو غيرها من صور الكسب.

وقد أعلى الإسلام من شأن السعي والعمل، وجعل من مقاصد الخلق والوجود: تعمير الكون وتنمية الإنسان، ليكون خليفة لله في أرضه، لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٢٣)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٢٤)، فالإنسان خلقهُ الله تعالى لغايةٍ سامية، أن يعمل وينتج ويتعلّم ويدرس ويعبد الله ويشكره، وبلغ من حرص الإسلام على العمل والتنمية أن أمر الشارع المسلم بالغرس والعمل، ولو قامت القيامة، لما ورد عن النبي (صلّى الله عليه وسلّم) أنه قال: (إنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِن اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ)(٢٥).

وأما إذا عجز الإنسان عن توفير حد الكفاية لنفسه، مؤمناً كان أو غير مؤمن، وذلك لمرض أو شيخوخة أو أي صورة من صور العجز، فإن الدولة الإسلامية تكفله وتضمن له حد الكفاية، بل حد تمام الكفاية من أموال الزكاة.

رابعاً: رعاية مبدأ التدرج في تطبيق الشريعة

إن من أهم محاسن تطبيق الشريعة الإسلامية: أنها شريعة تراعي مبدأ التدرج في التطبيق، ومراعاة أحوال الناس، وعوائدهم وأعرافهم، ومدى فهمهم لأحكام الشريعة ومقاصدها، وكذلك مراعاة لنهج الشارع في بداية التشريع، فقد تدرج التشريع في فرض الفرائض، وفي تحريم المحرمات، فلم يفرضها جملة واحدة، بل تدرّج بهم في التشريع، وفي تفاصيل الأوامر والنواهي، على مدار ثلاث وعشرين سنة، هي عمر البعثة النبوية، فكان القرآن ينزل خلالها بأصول التشريعات مجملة، ثم بتفاصيلها.

ونقصد بالتدرّج في التطبيق أمرين:

أحدهما: بيان الأحكام الشرعية للناس، الذين يجهلون تلك الأحكام، بصورة تدريجية، بحيث يتم التدرّج في التعريف والتطبيق للأحكام الشرعية من الأيسر فاليسير، ومن الأسهل إلى السهل فالأشد، من أجل أن ينخرطوا في دين الله بيسر وسهولة وقناعة.

والثاني : تقنين الأحكام الشرعية، بقصد الانتقال من التحاكم للقوانين الوضعية المطبقة، إلى التحاكم للقوانين المستمدة من

الشريعة الإسلامية، مع مراعاة عدم الاستعجال، بل يجب السير في خطوات مدروسة، وفق مخطط زمني محدد، بقصد ألاّ يمل الناس، فينعكس ذلك سلباً(٢٦).

وهذا واجبُ العلماء في شتى المجالات الشرعية والقانونية، وواجب الحكام وولاة الأمر، الذين يجب عليهم الحكم بما أنزل الله تعالى.

خامساً : حماية الحقوق والحريات واحترامها

إن من المقاصد المهمة المترتبة على تطبيق الشريعة: أنها شريعة تحترم الحقوق والحريات، فلكل إنسان يعيش في المجتمع الإسلامي حقوق يستوفيها كاملة، وعليه واجبات يجب أن يؤديها كاملة، فكلُّ حق يتبعه واجب: فهو حرٌّ، لكنه مسؤول عن حريته، وهو بالفعل يتمتع بكل الحقوق، وعليه أن يؤدي جميع الواجبات المنوطة به، وإلاّ كان مقصراً في حق دينه ووطنه(٢٧).

فالدولة الإسلامية هي دولة الحقوق والحريات، إيماناً والتزاماً، لا دعاية وكلاماً. إن حق الحياة، وحق التملّك، وحق الكفاية من العيش، وحق الأمن على الدين والنفس والعقل والنسل والمال، تعد في نظر التشريع الإسلامي من الضروريات الخمس، التي أنزل الله الشريعة للمحافظة عليها، ولا يجوز لأحد أن يفرط فيها. وقد أوجب الشارع العقوبات الرادعة، من الحدود والقصاص، لحمايتها من العدوان عليها(٢٨).

ففي الحرية الدينية – مثلاً– قرّر الإسلام رفض الإكراه في الدين، والإيمان الحقيقي يكون عن طريق حرية الاختيار والاقتناع الحر، قال تعالى:

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٩)،

فالحرية الدينية، كما عبّر عنها الشيخ الغزالي (رحمه الله)، (اختراع إسلامي)(٣٠)، فقد جاء الإسلام لتحرير الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، كما قال الصحابي الجليل (ربعي بن عامر): "نحنُ قومٌ ابتعثنا الله، لنُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ربِّ العالمين، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة"(٣١).

وأكّد الإسلام احترام آدمية الإنسان ومراعاة حقوقه، بناءً على تكريم الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(٣٢)، "وقد جمعت الآية خمس مِنَن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات"(٣٣).

وعليه فإن صورة تكريم الإنسان لا تقتصر على النواحي التي ذكرنا فحسب، بل إن هناك جوانب عديدة وصور متنوعة لتكريم الله تعالى للإنسان، ومن أبرزها: تكريم الإنسان بالعقل والفهم والفكر، وتحمّل الأمانة، وهي التكليف، فلم يجعله الله تعالى كالجمادات، أو كالحيوانات، التي لا تعقل، وكذلك إرسال الرسل وإنزال الكتب، لدعوة الناس، والأخذ بأيديهم إلى طريق الهداية، وغير ذلك.

سادساً: تحقيق مصالح الخلق في الدارين

ومن المقاصد العامة للشريعة الإسلامية: أنها وُضعت لتحقيق مصلحة الخلق في الدارين، في كل أحكامها وتكاليفها، وذلك بجلب مصالحهم، ودرء المفاسد عنهم، سواء كانت مادية أو معنوية، دنيوية أو أُخروية، فجميعُ الأحكام الشرعية الواردة في الكتاب والسنة مقصودها مصلحة المكلفين، وذلك بإجماع علماء الإسلام.

وقد أرجع (العز بن عبدالسلام) مقاصد القرآن والسنة إلى جلب المصالح ودرء المفاسد، يقول: "وإننا لو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة، لعلمنا أن الله أمر بكل خير، دِقّه وجِلّه، وزجر عن كل شر، دِقّه وجِلّه، فإن الخير يُعبّر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يعبّر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح"(٣٤)، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾(٣٥).

وقد ورد عن الكثير من العلماء ما يبيّن أن الشريعة وُضعت لمصلحة العباد، يقول (ابن تيمية): "إن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها"(٣٦)، وقال (القرطبي): "ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قُصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية"(٣٧). وقال (العز بن عبدالسلام): "والشريعة كلها مصالح، إما تدرأ مفاسد، أو تجلب مصالح"(٣٨). وعلى هذا فالمقصود من تطبيق الشريعة الإسلامية، هو تحقيق مصالح الناس وحفظها بكل أنواعها، ودرء المفاسد والمخاطر عنهم، بكل أشكالها وصورها.

سابعاً: تحقيق الأمن والأمان الذي يفتقده العالم

شريعة الإسلام هي الشريعة الوحيدة – بأحكامها وحدودها ومبادئها – التي تستطيع تحقيق الأمن، وضمان الأمان، للدنيا بأسرها. وإذا كان أقصى ما يتمناه الإنسان، في أيّ مكان في الدنيا، أن يأمن على نفسه وعرضه وماله، في بلده الذي يعيش فيه، فإن الإسلام ضمن الأمن والأمان لكل إنسان على وجه الأرض، وبيَّن أنها نعمة امتن الله بها على خلقه، حيث أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف. قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا

رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(٣٩)، قال (ابن كثير): "ربُّ البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، أي تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً، ولهذا من استجاب لهذا الأمر جَمَعَ الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبها منه"(٤٠)، كما قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾(٤١)،

وقد أشار النبي (صلّى الله عليه وسلّم) إلى هذه النعمة العظيمة، وأن من حاز الأمن وهدوء العيش، فإنما حيزت له الدنيا بأسرها، كما ورد عنه (صلّى الله عليه وسلّم) أنه قال: (من أصبح آمناً في سربه، مُعافى في جسده، عنده طعام يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)(٤٢).

ثامناً: الحفاظ على فطرة الإنسان

فشريعة الإسلام هي الشريعة التي تتلاءم مع فطرة كل إنسان على وجه الأرض، إذا لم يخضع لأي مؤثر خارجي. يقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٤٣)، فطر الله الخلق على الإسلام والإيمان، فطرهم على التديّن وحب الدين. وفي الحديث قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): (مَا مِن مَوْلُود إلاّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاه يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً، هَلْ تُحِسُّون فِيهَا مِن جَدْعَاءَ)(٤٤). والمراد بالفطرة في الحديث الشريف: تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو ترك المرء عليها، لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها، لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد، فالله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول، وعلى تلك الأهلية، أدركت الحق، ودين الإسلام هو الدين الحق(٤٥).

وعلى هذا فكل إنسان على وجه الأرض يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، ومع هذا لا تموت الفطرة في قلب هؤلاء، الذين يُهودون أو يُنصّرون أو يُمجسون، بل يخفت ويقل تأثيرها، فإذا تعرّض الإنسان إلى ما يجلي فطرته، أو أعمل عقله وفكره، واستعمل المنح الإلهية التي منحه

الله إياها، من سمع وبصر وفكر، في التعرف على الدين الحق، ولو أنه تعامل مع الأمر بنوع من الحيادية، ولم يسلم زمام نفسه لغيره، ولم يُلغ عقله وفكره، ولم يتبع هواه وشيطانه، فإنه حتماً سيهتدي إلى الإسلام والإيمان بالله تعالى(٤٦).

ولهذا فلا عجب أن نرى الملايين من الناس، الذين أعملوا عقولهم في دول الغرب، يدخلون في دين الله تعالى، ويشهدون الشهادتين، ويتحولون إلى الدين الإسلامي، لأنه نداء الفطرة الكامن في قلب كل إنسان، إن رجع إلى طبيعته وفطرته التي خُلق عليها.

وبعد، فهذه بعض المقاصد والمصالح والحِكم الشرعية الحاصلة من تطبيق الشريعة الإسلامية، ويجب علينا أن نعمل جاهدين على تطبيق الشريعة الإسلامية، لتعود للأمة السيادة والتمكين، ولينعموا بالأمن والأمان، والعزة والكرامة، التي وعد الله بها عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٤٧)□

الهوامش:

١- علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ص.٤٧

٢- سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

٣- عبد الرحمن صالح بابكر، دراسات تطبيقية حول فلسفة المقاصد في الشريعة الإسلامية، ص.٤٧

٤- الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ط)، ص ١٥. وابن خلدون، المقدمة، ص.٢١١

٥- ابن القيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله بن أبي بكر (ت٧٥١هـ)، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، ص١٥.

٦- ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ج١١، ص.٣٤٣

٧- ابن القيم، أعلام الموقعين، ج٣، ص.١١

٨- عبد الناصر حمدان بيومي، مقاصد تطبيق الشريعة الإسلامية، ص.٥٦

٩- سورة يوسف: الآية (٤٠).

١٠-سورة محمد: الآية (٣٣).

١١- سورة آل عمران: الآية (١٥٤).

١٢- ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ج٣، ص.٩١

١٣- عبد الناصر حمدان، مقاصد تطبيق الشريعة الإسلامية، ص.٦٠

١٤- سورة المائدة: الآية (٨).

١٥- سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط١٦، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص.٢٦

١٦- سورة الشورى: الآية (١٥).

١٧- سورة النساء: الآية (٥٨).

١٨- سورة النحل: الآية (٩٠).

١٩- سورة المائدة: الآية (٨).

٢٠- الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد

بـن المفضـل المعـروف بالراغـب الأصـفهاني (ت٥٠٢هـ)، الذريعـة إلى مكـارم الشـريعة، دار السـلام، القـاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص.٢٥١

٢١- د.محمد سليم العوا، في النظـام السياسـي للدولـة الإسـلامية، دار الشـروق، القـاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص.٢٠١

٢٢- عبـد الناصـر حمـدان، مقاصـد تطبيـق الشريعة، ص .٧٢

٢٣- سورة هود: الآية (٦١).

٢٤- سورة البقرة: الآية (٣٠).

٢٥- البخاري، الأدب المفـرد، ص١٦٨، رقـم الحديث ٤٧٩، وجلال الدين عبـدالرحمن بـن أبـي بكر السيوطي، الفـتح الكـبير في ضـم الزيـادة إلى الجامع الصغير، تحقيق: يوسف النبهاني، دار الفكر، بـيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م،ج١، ص٢٥٠، رقم .٢٧٠٩

٢٦- عبـد الناصـر حمـدان، مقاصـد تطبيـق الشريعة الإسلامية، ص.٨١

٢٧- المصدر نفسه، ص .١٠٨

٢٨- د.يوسف القرضاوي، من فقه الدولـة في الإسلام، ص .٤٩

٢٩- سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

٣٠- د.يوسف القرضاوي، مـن فقـه الدولـة، ص.٤٩

٣١- ابـن كـثير، البدايـة والنهايـة، ج٧، ص.١٧٨٦

٣٢- سورة الإسراء: الآية (٧٠).

٣٣- ابن عاشـور، التحريـر والتنـوير، ج١٥، ص.١٦٤

٣٤- العز بن عبد السـلام، قواعـد الأحكـام، ج٢، ص.١٨٨

٣٥- سورة الزلزلة: الآيتان (٧-٨).

٣٦- ابـن تيميـة، مجمـوع الفتـاوى، ج٢٠، ص.٤٨

٣٧- القرطبـي، الجامع لأحكام القـرآن، ج٢، ص.٦٤

٣٨- العـز بـن عبدالسـلام، قواعـد الأحكـام، ج١، ص.١٢

٣٩- سورة قريش: الآيتان (٣-٤).

٤٠- ابن كثير، تفسـير القـرآن العظـيم، ج٨، ص.٤٩٢

٤١- سورة النحل: الآيتان (١١٢- ١١٣).

٤٢- البخاري، الأدب المفرد، ك حسن الخلق، ب من أصبح آمناً في سربه، رقـم الحـديث ٣٠٠، ص١١٢.

٤٣- سورة الروم: الآية (٣٠).

٤٤- البخـاري، الجـامع المسـند الصـحيح، ك الجنائز، ب إذا أسلم الصبـي فمات، رقم الحـديث .١٣٥٩

٤٥- ينظـر ابـن حجـر، فـتح البـاري، ج٤، ص.٤٦٥

٤٦- عبـد الناصـر حمـدان، مقاصـد تطبيـق الشريعة الإسلامية، ص.١٥٩

٤٧- سورة المنافقون: الآية (٨).

تنظيم (داعش): جذوره الفكرية، وأسباب انتشاره، وملابسات نشأته



هفال عارف برواري

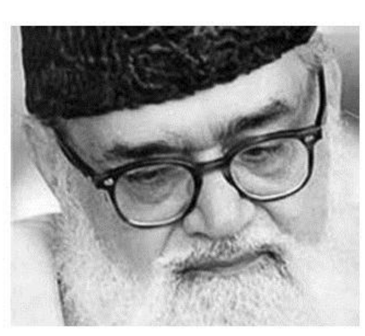
✍ مِمّا لا شكّ فيه أن هناك تساؤلاتٍ كثيرةً أُثيرت في الآونة الأخيرة على الجذور الآيديولوجية لتنظيم (داعش)، خاصّةً بعد التوسُّع الملفت والتمدُّد الرهيب له، الأمرُ الذي دفعَ الجهاتِ الإسلاميةَ إلى الاستنفار لردّ هذه الفكرة، بكُلِّ ما أُوتيت من حُجّة وقوّة في البرهان. وأكّد الكثيرون من هؤلاءِ أن هذا التنظيم هو امتدادٌ فكريّ لفرقةِ (الخوارج)، التي أصبحتْ شماعةً تاريخيّةً تتعلّق بها التنظيمات المتشدّدة التي تُحْرِجُ الساحة الاسلامية بأفعالِها المشينة، ومن ثم برزت حركات سلفيّة متشدّدة، وخاصّةً مِمّن يُسَمّون بالمداخلة (نسبة الى جماعة الشيخ ربيع المدخلي)، لكي تنفي عن نفسِها آيديولوجية هذا التنظيم، زاعمةً زوراً وبهتاناً أنه خرج من عِباءة الإخوان المسلمين، ولم تكتفِ بذلك بل أمعنتْ في تنسيبِ أفكاره الى المفكر والأديب العملاق (سيد قطب)، وخاصّةً في كتابه الشهير (معالم في الطريق)، والذي كان سبباً في إعدامه، وقد نُقِلَ عن شيخ السلفيّة والمرجعيّة الوهابيّة المرحوم الشيخ (عبد العزيز بن باز) أنه اتهمَ (سيد قطب) في عقيدته، وذهب إلى عدم قبول كتبه، وتفسيره المشهور (في ظلال القرآن).

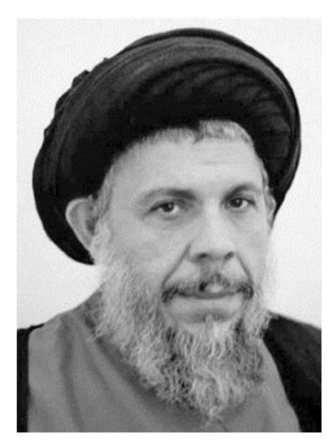
وما أحرى بنا – لدحضِ ما يُروِّجونه – أن نستندَ إلى الأدلة والحُجج الآتية:

أولاً: كون تنظيم (داعش) نابع من فكرِ الخوارج، كلامٌ لا أساسَ له مِنَ الصحّة، لأن فكرَ الخوارج الأوائل كان مبنيّاً على أُسس ثابتة، نتيجةً لواقعٍ سياسي أملي عليهم، ومن مظاهره:

١- تكفيرُ كلٍّ من (عثمان، وعليّ، ومعاوية،


سيد قطب


المودودي


محمد باقر الصدر

وعائشة، وطلحة، والزبير). ٢- عدم اشتراط قُرَشيّة (الخليفة). ٣- تأمين (أهل الذِمّة)، وعدم قتلهم أو انتزاع أيّ شيءٍ منهم. ٤- العمل بالآياتِ القرآنيّة دون الأحاديث، وهم بذلك لا يطبقون (حدّ الرجم)، كونه لم يرد في القرآن. والآن تبيّن بوضوح أنهم ليسُوا خوارج، حتى وإن كانت تحركاتهم تبيّن أنهم خارجون عن الملة، ولكن استنساخ الأحداث لا يجوز، فـ(داعش): ١- لا يكفّر هؤلاء الصحابة. ٢- يشترط قرشية الخليفة، لذلك نصّب التنظيم (أبا بكر البغداديّ) باعتبارهِ قرشيّاً. ٣- قام بتهجير (أهل الذمّة) وقتلهم. ٤- العمل بالأحاديث، ومن أوائل ما قام به رجم المرأة، و(الخوارج) كانوا لا يؤمنون بالرجم؟ كونه لم يرد في القرآن الكريم. وهذا لا يعني أننا نبرّئُ ساحةَ الخوارج، فهم كذلك استخدموا الوسائل نفسِها في تكفير الآخرين، لكن المراجع والمنابع والأحداث تختلفُ تماماً، كما بيّنا.

أمّا كون التنظيم من خلفياتٍ إخوانية، نسبةً الى كتب (سيد قطب)، فأقول إن هذه حُجّةٌ باطلة من أساسِها، كون جماعة الإخوان المسلمين معروف عنها نهجها الوسطيّ وفكرها الاعتداليّ، ومنهجُها قائِمٌ على السلميّة التامّة، وتنظيراتُها الفكرية - التي أغنتِ المكتبة الاسلامية - استطاعت دفع ردود أفعال التيارات الأخرى، وشبهاتها، على الساحة السياسية والفكرية، وأكّدت مدنيّة الدولة الإسلامية، أمّا (سيد قطب) - فرغم وجود علامات الاستفهام عليه من قبل بعض قيادات الإخوان، وخاصّةً في المرحلة الأخيرة من حياته في السجن، وذلك لتعرّضه لأبشع أنواع التعذيب - فمن المنطقي، في ظلِّ ذلك التعذيب القاسي، أن تخرج كلماتُه بشيءٍ من القسوة، لكن من يقرأ كتبه يرى أنها قد ارتقت إلى مستوى التنظير، بل يمكنك القول إنه كان فيلسوف الحركات الإسلامية، دون منازع، خاصّةً وأن خلفيته الأدبية - مُضيفاً إليها عمق إيمانه بمبدئه- جعلت كتاباته تتميّز بالقوة في التعبير، والحيوية في المعنى، والعمق في المدلولات. وقد استطاع أن يحوّل الكلمة المكتوبة إلى حركةٍ حية، وإلى واقعٍ ملمُوس، وبعد أن مات في سبيل هذه الكلمات دبّت فيها الروح، وكتبت لها الحياة، كما كان يردّد هذه الأمنيات.

بل تجد أن مفجّر الثورة الإيرانية الإمام (الخميني) قد تأثر بكتبه، بحيث جعله من أكبر المفكّرين الذين



تأثر بهم، حتى أنه ترجم كل كتبه إلى الفارسية. ولكي لا نطيل، فإن كل الحركات الإسلامية وقادتها، من إيران إلى العراق، بشقيها: السني الإخواني، متمثلاً في (الحزب الاسلامي العراقي)، والشيعي، متمثلاً بـ(حزب الدعوة) العراقي، الذي أسّسه (محمد باقر الصدر) والذي ظهر تأثره واضحاً، في كتابه (فلسفتنا)، مروراً إلى باكستان، متمثّلاً بمنظّر الحركةِ الإسلامية هناك، السيد (أبو الأعلى المودودي)، الذي تأثّر بكتب (سيد قطب). وكلُّ هذه الحركات الإسلامية كانت لها منهجية واضحة في الحركة، تتبنّى الإرشاد والتوعية والإبلاغ، وتأسيس أحزاب مدنيّة – تقومُ من خلالها بإعادة نهضة الأمة، وإحيائها – بعيدة كل البعد عن العنف والإرهاب، وعن العقلية الجامدة، المرتبطة بالفتاوى من هنا أو هناك، وإقفال العقول والأفهام، والدخول في الدائرة الضيّقة من الحلال والحرام.

وما أحرانا هنا – لدحض ما رُوِّج زُوراً على أن خلفيّة (داعش) ناشئة من كتبِ (سيد قطب) – أن نستندَ إلى بعض الأدلة والحجج المنطقيّة:

١– لم ينصب (سيد قطب) نفسه، مطلقاً، عالماً دينيّاً، يفتي ويحلّل ويحرّم، والتي هي السمة البارزة لهؤلاء، ولا سيّما أن كتب (سيد) تتمتع بالعمق الفكري، ومن الصعوبة فهمها من قبل جُلّ هؤلاء، مِمّن لا يتمتّعون بالثقافة الإسلامية، بل أغلبهم يعانون من جهل كامل بالمفاهيم الإسلامية الواسعة، وقد تحدّث عن الحاكميّة وأصّلها، وبيّن مفاهيم المجتمع الجاهلي والإسلامي، ولكنه لم يشخّص للوصول إلى العالمية، تاركاً للأمة أن تعمل على إيجادها، وأول الوسائل هي وعي الأمة بإحداث صحوةٍ راشدة، تصل إلى يقظة شاملة، ومن ثم تتسع لتتحوّل الى النهضة الكليّة.

٢– تحركات التنظيم في استخدام العنف المفرط، وغير المبرر، والإرهاب المنظم، وتفتيت أواصر المجتمع الواحد، للسيطرة عليهم، ينافي تماماً ما قاله (سيد) في تفسيره (في ظلال القرآن)، عندما فسّر الآية (٧٧) في سورة النساء ما يلي: "لماذا لم يأذن الله للمسلمين بالانتصار في مكة من الظالم، والرد على العدوان، ودفع الأذى بالقوة، وكثير منهم كان يملك هذا؟" ثم يقول: "ربما لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، وضبط أعصاب! ولأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ... وقد يدفع القتال إلى زيادة العناد، وإلى نشأة ثارات دموية... ويتحوّل الإسلام من دعوةٍ إلى ثاراتٍ دمويّة! واجتناباً إلى إنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت". فالذي تبيّن من تفسيره، هو فهمه العميق لمراحل الدعوة، وهو ما يُنافي تماماً ما يفعله هذا التنظيم في تحرّكاته، وما روّجه السلفيُّون المتشدِّدون لكي ينسبوا إليه أفكار التنظيم الآيديولوجيّة! طبعاً هو

يؤمن بالجهاد، لكنه جهاد على بصيرة وإدراك.

٣- المرجعية العقديّة للتنظيم هي الإيمان بوجود (خليفة)، وأن الخليفة يجب أن يكون عربياً، وقرشياً، وهو ما يؤمن به السلفيّون أيضاً، ويتسترون عنه، لذلك أكّدوا أن (أبا بكر البغدادي) قرشيّ الأصل! وهو تأصيلٌ بدعي، أصَّله الحكم العضوض، إبّان تولي الأمويين الحكم، وهم بذلك يوحون أن فترة الأمويين لا يجوز الطعن فيها، لأنهم يعتبرونهم أولياء المسلمين. فانظروا ماذا قال (سيد قطب) في قضية (معاوية) و(عمرو بن العاص)، مع (الإمام علي)، حتى نقطع شبهة السلفيين بيقين الدليل. يقول (سيد): "إن معاويةَ وزميلَه عَمرًا لم يَغلبا عَليًّاً، لأنهما أعرَفُ منه بدخائل النفوس، وأخبَرُ منه بالتصرّف النافع في الظرف المناسب، ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح، وهو مقيّدٌ بأخلاقه باختيار وسائل الصراع. وحين يركَن معاويةُ وزميلُه إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم، لا يملك عليٌّ أن يتدلّى إلى هذا الدرك الأسفل، فلا عجَبَ ينجحان ويفشَل، وإنه لفشَلٌ أشرفُ من كلِّ نجاح". من كتاب (كتب شخصيات)، ولو كان (سيد) بين أيديهم، لقاموا بقطع رأسه، والحكم عليه بالردة!!

٤- الحجج التي استدلّوا بها ثبت بطلانها، وذلك عندما كانوا يمنعون في (السعودية) كتب (سيد قطب) وتفسيره، بحجّة أنها تدعو إلى العنف والضلالة - حسب زعمهم -، وكان يحتجُّون على ذلك بالشيخ الملهم (ابن باز)، الذي أمر بمنع كتبِهِ وحرقها، على الرغم من أنه لم يصل إلى علوّ مكانته العلميّة في تاريخ السعودية أحدٌ. ثم تبيّن في الآونة الأخيرة أن هناك كتابا للشيخ (ابن باز)، لم يُطبع، وتم طبعه لاحقا، ونشره بعنوان (تحفة الإخوان بتراجم الأعيان) يذكر فيه الشيخ (سيد قطب) كأحد هؤلاءِ التحف الإخوانية في تاريخ الحركات الإسلاميّة، ويدعو له في الكتاب بقبول الشهادة، ويذكر أنه كان يملكُ مؤلفاتٍ كثيرةً مفيدة، وأهمّها تفسيره (في ظلال القرآن)!

ولنعد الى السؤال الأساس، ألا وهو: مَنْ يقفُ إذن وراء الخلفية العقديّة والفكريّة لتنظيم (داعش)؟ وسيتبين لنا أن خلفياتها سلفيّة بامتياز، وسنرى ذلك بوضوح من خلال هذه الأدلّة :

١- إن (داعش) يتبع منهج (أهل الحديث) نفسه، ذلك المنهج الذي تستند إليه السلفية اليوم في اختيار الإمام والحاكم أو الخليفة، وهو أن يكون قُرَشيَّ النسب كشرطٍ أساس. يقول ابن تيمية: "وَأَمَّا كَوْنُ الْخِلَافَةِ فِي قُرَيْشٍ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا مِنْ شَرْعِهِ وَدِينِهِ، كَانَتِ النُّصُوصُ بِذَلِكَ مَعْرُوفَةً مَنْقُولَةً مَأْثُورَةً يَذْكُرُهَا الصَّحَابَةُ"(منهاج السنة: ١/ ٥٢١).

٢- قضية التكفير المستوحاة من الإرث السلفي، صحيح أن الشيخ ابن تيمية كانت له اعتباراته الجيوسياسيّة، إلاّ أنهم يسوقون هذا الفقه التاريخي والفتاوى المدونة عندهم، ويجعلُونها في مصافِ الكتب التي لا يمكن المس بها، وتقديرها الى درجة القداسة والعصمة! يقول ابن تيمية أيضاً: "...وسائر الصحابة بدأوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب"(مجموع الفتاوى: ٣٥/ ١٥٩). فنجد أن أوّل العمليات التي قام بها (داعش) هي محاولة تصفية الفصائل الإسلامية الموجودة، بغية استقطابِ أعضائها حول نفسه، بعد الاستتابة، مثل (جبهة النصرة) الإسلامية المرتدة، حسب رأيها، وقتالها قبل قتال النظام السوري الكافر.

٣- تعاملهم مع الطوائف والديانات الأخرى



وكاجتهاد بشريّ غير معصُوم، جعل المنهجية السلفية الحديثة أصلاً من أصُول مفهوم العقيدة الخالصة، لا يجوز التجاوز عنها، ومستوحاة من فتوى الشيخ ابن تيمية، عندما قال: "...إن الإمام لو هدم كل كنيسةٍ بأرض العنوة، كأرض مصر والسواد بالعراق، وبر الشام، ونحو ذلك، مجتهداً في ذلك، ومتبعاً في ذلك لمن يرى ذلك، لم يكن ذلك ظلماً منه، بل تجب طاعته في ذلك"(مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٦٣٤). وقوله أيضاً: "...بل إذا كان لهم كنيسة بأرض العنوة، كالعراق ومصر، ونحو ذلك، فبنى المسلمون مدينة عليها، فإن لهم أخذ تلك الكنيسة، لئلا تترك في مدائن المسلمين كنيسةٌ بعد عهد"(مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٦٣٥).

٥- تحرّكات تنظيم (داعش) في المسارعة في هدم الأضرحة والقبب وقبور الأنبياء، نابعةٌ عن خلفيّة سلفيّة وهابيّة، قامت بهذا الفعل منذ قرون، وما زالت تفعل. لذا فإن أوّل عمليّة قام بها التنظيم عند قدومه إلى العراق هو هدم قبر النبي يونس وتفجيره، وهدم قبر النبي جرجيس، غير مبالين بالعُمق الثقافيّ والفكريّ الذي يرمز إليه هذان القبران، والذي تتميّز به مدينةٌ عريقة مثل مدينة الموصل، متناسين عدم صدور مثل هذه الأفعال عن الصحابة حين قدموا إلى العراق، فضلاً عن (مصر)، المدينة العريقة التي ولاّها الصحابي عمرو بن العاص، الذي دخلها ولم يفكّر في هدم

ينطلق من منطلق إرثٍ فقهيّ مرتبطٌ بإرثِ ابن تيمية، الذي -كما قلنا- تم تسويقه حسب مفاهيمهم البدوية. فقد أخذ بعض السلفيين من الشيخ حِدَّة مزاجه في أوضاع سياسية ملتهبة، وآيلة على الانهيار، حينها، ولم يأخذوا منه سعة علمه. يقول ابن تيمية بشأن الدروز والنصيرية: "فهؤلاء كُفّار باتفاق المسلمين، لا يحل أكل ذبائحهم، ولا نكاح نسائهم، بل ولا يقرون بالجزية، فإنهم مرتدون عن دين الإسلام، ليسوا مسلمين، ولا يهود، ولا نصارى، لا يقرون بوجوب الصلوات الخمس، ولا وجوب صوم رمضان، ولا وجوب الحج، ولا تحريم ما حرّم الله ورسوله من الميتة والخمر وغيرهما. وإن أظهروا الشهادتين مع هذه العقائد، فهم كُفّار باتفاق المسلمين"(مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٦١)، لذلك فلا غرابة أن تكون ردة فعلهم على الطائفة اليزيدية، التي هي على مقربة من الطائفة الدرزيّة، وكذلك تعامُلهم مع طوائف الشيعة العلوية، الذي كان من منطلق عقديّ تاريخيّ.

٤- قيام (داعش) بهدم الكنائس وأماكن العبادة للديانات الأخرى، نابع عن فلسفة سلفيّة، تميّزت بالظهور الثاني لإحياء السلفية، في عهد الشيخ ابن عبد الوهاب، كحالةٍ خاصّة مرتبطة بواقعٍ ما،

أضرحة الفراعنة، المتمثلة بالأهرامات، ولا حتى صنم أبو الهول، كرموز ثقافية تعبّر عن قِدَم هذ البلد وعراقته. وقد التمسوا أدلّة لهذه العلميات من فتاوى تابعة لممثل السلفية في السعودية، ومفتي الديار السعودية، بل المشرف على فتاوي العلماء، وهو الشيخ الملهم (عبد العزيز بن باز)، عندما أفتى عن قبور الأنبياء، أمثال النبي يونس، فاختزل إجابته بالقول: "أمّا قبر يونس فلا يعلم أنه في نينوى، وجميع قبور الأنبياء لا تعلم ولا تعرف، فدعوى أنه موجود في نينوى أو في غيرها أمرٌ باطِل لا أصلَ له، وقد ذكر العلماء أنه لا يوجد قبرٌ معروف من قبور الأنبياء البتة، إلاّ قبر نبينا محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) في المدينة، وإلاّ قبر الخليل في الخليل في المغارة المعروفة، هذا هو المعروف، أما قبور بقية الأنبياء فغير معروفة، لا يونس ولا غيره من الأنبياء والرسل، قبورهم الآن غير معلومة، ومَن ادّعى أن قبر يونس موجود، أو فلان، أو فلان، فكلّه كذب لا صحّة له، ولا نعلم نبياً يُقال له: جرجيس، ولا يعرف من الأنبياء من يسمى: جرجيس، فالمقصود: أنه ليس هناك قبر نبيّ معروف غير قبر نبينا محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) في المدينة، وغير قبر الخليل في بلد الخليل في المغارة المعروفة". وكون المنهجية السلفية تؤكّد هدم القبور المبنية، أو التي يتم زيارتها بنية التبرّك او الدعاء، فيجب إزالتُها وهدمُها، لأنها من الشرك الذي يخرج المرء من الملة، ويجب المسارعة في محو هذه الآثار، كعملية استباقية لبتر جذور الشرك.

وبناءً على ما سبق يتبيّن بوضوح أن العقلية والخلفية الآيديولوجية لـ(داعش) هي سلفية بامتياز، ولكن هل هي قابلة للانتشار، أظنُّ ذلك!

– فعندما تقف الدول المهيمنة، والدول القبلية الموالية، بقوة البترودولار، أمام الثورات الشعبية، بكل ما أُوتيت من قوة وعنف.

– وعندما تتخلّى الدول الداعية لحرية الشعوب وتأسيس الديمقراطية، عن مبادئها، بل تقوم بالانقلاب على هذه المبادئ، عن طريق حلفائها القُدامى، على أوّل عملية ديمقراطية في (مصر)، كموقع يضفي تأثيره على المنطقة برمتها، بغضّ النظر عن سلبياتِ الأداء، ودخول آيديولوجيات متشدّدة، لم تكن تؤمن بهذه العملية، بل كانت بعضها ذات سوابق جهادية، تحوّلت مع مجريات الواقع إلى مشاريع مدنيّة، تتجه نحو هذا المنحى كواقع مدني فرض عليهم، بل كانوا أسرع من بعض التوجهات العلمانية إلى منحى الديمقراطية.

– وحينما يؤتى بالجزّار القديم – أمام أعين الملأ، وعلى مرأى البلدان الحرّة – ليقومَ بذبح الديمقراطية، ويُكافَئ بمكافآتٍ مجزية من قبل الدول راعية السلام!!

– وعندما كانت ثورة سوريا، في بدايتها، ثورة مدنية بحتة، تنادي بحقوق مشروعة فقط، تحوّلت جراء عنف نظامها إلى ثورةٍ مسلّحة، تمثلت بـ(الجيش الحر)، الذي كان منضبطاً بمطالب معينة، لكن بخلفية مسلحة، جراء عنف النظام السوري، فكانت ردة فعل الدول المهيمنة وحلفائها أيضاً هو الدخول لا للحلّ، ولكن لسحب البساط عن تطلعات الشعب، ليُحرموه من حلم الحرية والديمقراطية.

– فالشعوب حتماً ستتجه تلقائياً نحو العنف المضاد، عندما تجابه بثورة مضادة لثورتها، فالعنف لا يولد إلاّ عنفاً.

– ومن هنا كان تنظيم دولة الإسلام في العراق والشام، الحاضنة التي التحق بها آلاف الشباب، لا سيّما بعد ما حظيت بقوة الانتشار السريع والتمدّد الملفت (بغض النظر عن ملابسات ظهوره، ومن

يقف وراءه، أو مصادره المالية).

– استخدام الدول المهيمنة، وحلفاؤها، ازدواجية المعايير في التعامل مع فئة دون فئة، بحيث يستولي (الحوثيون) على أغلب مناطق اليمن، وهم لا يمثلون إلاّ ٣٪ من الشعب اليمني، ولا يستنفر الغرب لهم، ولا يتهمونهم بالإرهاب!

– وتأتي فترة العلاج بعد طول انتظار، وبعد انتشار هذا التنظيم الداعشي في كُلِّ مكان، وذلك بضربه من كُلِّ الجهات، وبجرعات علاجية مكثفة، عن بعد، ولا يستثنون منه أحداً، وبدون وضع حلول مدروسة ومنضبطة لمحاصرة المرض، ثم إعطاء الجسم السليم حق الحياة، والذي سيكون مردوده استنزاف طاقةٍ كبيرة من جسمه، هذا من جهة، لكن من جهةٍ أُخرى سيستقطبُ قوةً جديدة – كقانون من قوانين الصراع من أجل البقاء – من جهات أُخرى، تزوّده مزيداً من الدماء الثائرة على الوضع المتردّي، الذي تُترك قصداً دون أي علاج، فهناك وراء الأحداث يتمّ شحن الهِمم، وهناك دماء تغلي خلف الأسوار، ولله عاقبة الأُمور في كُل حال.

نشأة التنظيم:

إبّان الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م ظهرت جماعات مسلحة، منها (جماعة التوحيد والجهاد)، ثم تحوّلت إلى (تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين)، بقيادة أبي مصعب الزرقاوي الأردني ٢٠٠٤م، الذي قُتل عام ٢٠٠٦م، وبعدها أُعلن تشكيل (دولة العراق الإسلامية) بزعامة أبي عمر البغدادي، الذي قُتل هو أيضاً عام ٢٠١٠م، من ثم تزعّم التنظيم (إبراهيم عبود السامرائي)، الملقّب بـ(أبي بكر البغدادي)! انكمش دورهم في المناطق الصحراوية بين العراق وسوريا، بعدما نجحت الحكومة العراقية بتشكيل صحوات من العشائر في الأنبار وصلاح الدين، وغيرها من المناطق، وبإشراف أمريكي، وكان النظام السوري يغضُّ الطرف عنهم، بل كان يسهل عليهم –عن طريق المخابرات– مرور الإمدادات والعناصر إلى داخل العراق، للقيام بعملياتٍ ضدّ القوات الأمريكية، وعندما استقوت التنظيمات الثائرة على النظام السوري، مثل الجيش الحر، وجبهة النصرة، وغيرها من الفصائل، قامت المخابرات السورية بإفساح المجال لتنظيم الدولة الإسلامية بالعمل، وهو بدوره قامَ بالسيطرة على المناطق التي يسيطر عليها الجيش الحر، وأعلن أبو بكر البغدادي في نيسان ٢٠١٣م، من طرفٍ واحد، دمج تنظيمي (دولة العراق الإسلامية) و(جبهة النصرة)، وأعلن عن اسمها الجديد، وهو (الدولة الإسلامية في العراق والشام)، ومختصرها (داعش)، وقد رفضَ (الظواهري) هذا القرار، كما رفضَه قائد جبهة النصرة، الذي بايع (الظواهري)، وهو (أبو محمد الجولاني). وبعد صراعات ومعارك ضد معارضي النظام السوري، سيطر التنظيم على مناطق شاسعة من سوريا، منها محافظتي (الرقة) و(دير الزور)، المجاورة للحدود العراقية، وبدعم لوجستي للنظام السوري. وفي بداية عام ٢٠١٤ احتلّ التنظيم مدينتي الرمادي والفلوجة في العراق، لكن تمّ استعادة السيطرة عليها من قبل الحكومة العراقية، وفي ١٠ من حزيران ٢٠١٤ سيطر التنظيم بشكل مفاجئ على مدينة الموصل، بعد انسحاب غريب من قبل أربع فرق كاملة للقوات العراقية، تاركةً وراءها أسلحة أمريكية ثقيلة، تقدّر بملايين الدولارات! وتحرّك إلى محافظة صلاح الدين، وبعض مناطق كركوك، إلى جلولاء في محافظة ديالى، وبعض مناطق بغداد، وقد التحق الكثير من أهلِ السُنّة بهذا التنظيم، وذلك بسبب الممارسات



التعسفيّة، والقمع المبرمج، والتهجير الطائفي، والاغتيالات المنظّمة، التي طالت كل قياداتهم ومشايخهم، وكل من لديه خلفية ثقافية أو علمية، ناهيك عن العبث العشوائي بأهل السنة من قبل حكومة المالكي الطائفيّة، وعليهِ نظرَ الكثيرون إلى تنظيم (داعش) باعتبارهِ حبلَ النجاة من الإبادة الطائفيّة المبرمجة! والمعروف أن هذا التنظيم يتألّف من خلفياتٍ متعدّدة، وهو مقسّم إلى طبقاتٍ، يمكن ذكرها على حسب أهمّيتها، كالآتي:

١- الطبقة المحرِّكة لهذا التنظيم، والذي يشملُ (قياداتٍ متقدّمة من النظام السابق، مع ضباط الحرس الجمهوريّ، والقيادات المخابراتية البعثية)، وهذه هي الطبقة المحرِّكة للتنظيم.

٢- الطبقة الثانية، وهم الغلاة، وهي الطبقةُ التي تشكّلت تحت وطأة التعذيب والسجن والتشريد، وفي ظلِّ العنف والقمع الذي كانت الحكومات العربية تمارسه بحقّ مواطنيها، الأمر الذي جعلها تبرِّر أعمالها من خلال إحياء فكرة الموروث القديم، الذي يمثل عهود التشدُّد والعنف، والخروج عن مفهوم الملة.

٣- الطبقة الثالثة، وهم المغرَّر بهم من الأجانب، كالشيشانيين والأوروبيين والشباب الشرقيين حديثي السن، ومن سفهاء الأحلام، مِمّن غرّتهم الشعارات البرّاقة والصور المخادعة للواقع، إلى جانبِ المنهجيّة الفكرية المغلوطة، وهؤلاءِ تمّ تسهيلُ أمورهم مخابراتياً، بغية التخلّص منهم في بلدانهم، كما هو حال الشيشانيين، فالروس استفادوا من تصفيتهم عبر حدود نفوذها في القوقاز، وكذلك المضطهدون من بطشِ حكومة المالكيّ في العراق الطائفية.

٤- طبقة النفعيين والمرتزقة، مِمّن يدورون حول مكاسبهم الشخصية ومصالحهم، والعربان الذين لا يعنيهم إلاّ النهب والسلب، بأيّ اسم أو شعار، أو مِمّن يبحثون عن النجومية والشهرة والألقاب!

أسباب النشوء:

أولاً: قلنا من البداية إن الجذور الفكريّة لهؤلاءِ هو الفكر السلفيّ، لكن تم تطويره لكي يلائم الواقع المعاصر، وملابساته. حيث اكتسب التنظيم جذوره الفكرية من العقيدة السلفيّة الجهاديّة، وهو فكرُ القاعدة نفسه، لكن بصورة أكثر قسوة، وبإضافات فكريّة جديدة، كمفهوم الخليفة، وكذلك الإمعان في فكرة التكفير، واستباحة الدماء، والتعصّب الفكري، مع عدم الإيمان بالاختلاف، فضلاً عن إسقاط أحكام فقهية سابقة على واقع مُغاير، دون مراعاة الزمن والعلّة،

وتميّزهم بالغلو والتطرّف والتنطّع والتشدّد والتعسير، والإيمان اليقيني باستخدام العنف والقسوة في تحقيق أهدافهم.

ثانياً: إن الواقعَ السياسيَّ الذي تم فرضه على شعوب المنطقة – من قبل الحكام المستبدين –، ما يقرب قرناً من الزمن، فتح المجال للفكر المتشدِّد. ففي ظلِّ الحكُومات الاستبداديّة، استُخدِم أشدّ أنواع التعذيب والوحشية والعنف، فضلاً عن السجون والاعتقالات، التي كانت تطال كل من يعارض أو يخالف سلطة الحكّام. وكما هو معلوم، فالتوحش الدكتاتوري يقوي التوحش التشدّدي التكفيري، ناهيك عن الوضع الذي أعقب هذا التسلط مُتمثلاً في الفساد الاقتصادي، مما أدّى إلى تفشي ظاهرة الفقر والاحتكار ونهب الثروات وانتشار الجهل. وكما هو معلوم، فالعنف ينتشر بسرعة في مثل هذه البيئات!

ثالثاً: الدول المهيمنة الراعية للسلام، وحقوق الإنسان، كان لها دور كبير في تغذية هذه الحكومات الجائرة، كمت أنها لم تعبأ بالحركات الإسلاميّة المعتدلة، ذات الطابع المدنيّ، تلك الحركات التي ظهرت بقوّة في البلدان العربيّة والإسلاميّة، التي كانت سجونها تعجّ بالأحرار.

مَنْ يدعمُ (داعش):

من المؤكّد أن بداية انتشارهم في سوريا كان بدعمٍ مخابراتي من النظام السوري، وهذا النظامُ كان يُدعم بشكل علنيّ من قبل إيران، والدليل على ذلك أن (أبا أيمن العراقيّ) مثلاً، كان يحتلُّ المراتب العليا في تنظيم الدولة، على الرّغم من كونه من الطائفة الشيعيّة، وقد كان سابقاً من قيادات النظام السابق، وقد ادّعى أنه تمذهب بمذهب أهلِ السُنّة والجماعة، وهو وأمثاله هم مِمّن يتحكّمون في القرارات العليا لهذا التنظيم. وكذلك إسرائيل كانت تصرخُ أنها ضدّ سقوط نظام بشار، وكان سلاحهم – إبّان انتشارهم، وبداية دخولهم العراق – إسرائيليّاً، فقد كان سلاحاً غريباً، ولم يكن موجُوداً حتى في السوق السوداء!

فالدول المتنفذة قد أرادت – في هذه المرحلة – عدم التدخل أو التصادم مع الخصوم، وكانت تستهدف أن يتقاتل الخصُوم بعضهم مع بعض لتكون هي المنتصرة، وتخرجُ من المعركة دون خسائر بشريّة، وتقضي في النهاية على خصومها مِنَ الطّرفين، باستنزاف قدرات الجانبين! فالغاية الرئيسة من سياسيات الدول المتنفّذة هي:

– استقطاب الساحة السنية نحو الفكر المتشدّد، والعنف.

– إرغام الشعوب على تقبُّل أنظمةٍ استبداديّة في المستقبل، كونها أرحم من حُكم (داعش)! وتبقى الديمقراطية في طي النسيان.

– إبقاء المنطقة سوقاً استهلاكية لتجارة الأسلحة، واستخدام كفاءاتها التقنية، والتي تعدُّ تجارة رائجة لدى الغرب، والحصُول على النفط الخام في السوق السوداء بأرخص الأثمان!

– تقسيم المنطقة في المستقبل – من خلال هذا التنظيم الأخطبوطيّ – إلى دويلاتٍ وأقاليمَ لا تغني ولا تسمن من جوع، حتى تبقى إلى الأبد تحت هيمنة هذهِ الدول، ورهن إشارتها، وإعادة صياغة اتفاقيّة (سايكس بيكو) بحُلّة جديدة، من أجل تحقيقِ مصالح الدول الكُبرى في القرن الحادي والعشرين❑

عبق الكلمات

حصانـــة الثقافـــة



عبد الباقـي يوسف
abdalbakiuosf@gmail.com

الدولـة القويــة الراسخة في قوتها، هي تلك الدولة التي تقوم على نشاط ثقافي في الرخاء، ويتكاثف نشاطها الثقافي في الشدائد.. والدولة الواهنة، الراسخة في وهنها، هي تلـك الدولـة التي لا تنشط فيها الثقافة في الرخاء، وتموت ثقافياً في الشدائد.

وهذا يُقاس على أحزاب الناس، وكياناتهم، ومنازلهم، وأفـرادهم: فـالحزب القـوي، هـو ذاك الحزب الذي يترسخ في مفاصله الفعل الثقـافي. والبيـت القـويم، هـو ذاك البيـت الـذي شُيدتْ دعائمه بلبِنات الثقافة، والوعي، وهو الذي يسهر معيله على استنارته، وإمداده بعوامل النضج والانفتاح وقوة الشخصية، فينتج هذا البيت أشخاصاً نافعين، يقدّمون نفعـاً للمجتمـع. في حين أن البيت الهش ثقافياً، هو ذاك البيت الذي يُخرّج إلى المجتمـع أفـراداً يكونـون وبـالاً عليه، وعلى أنفسهم، وعلى أبوَيهم.

فأن تُدخل كتاباً إلى بيتك، لهو خير مـن أن تُـدخل عليـه رزمـة مـال، واعلـم بـأن حـب تكديس المال هو من أقوى عوامل الانحطـاط الثقـافي، سـواء لـدى الـدول، أو الأحـزاب، أو الكيانات، أو المنازل، حيث يبلغ المرء مرحلة يعتقد فيها بأنه قوي بمقدار ما يُكدّس مـن أوراق نقدية، وهنا يتحوّل إلى كائن همجي، لا يكتفي بالابتعاد عن الثقافة لنفسه فحسب، بل يُبعدها عن أبنائه، ويُعادي كل شكل من أشكال الاستنارة، وإن كان (مسؤولاً)، يُمـارس هـذا الزيـغ من خلال سلطته.

وحقيقة الأمر، فإن المال هو عدو الثقافة، كما أن الثقافة هي عدوة المال، ولا يمكـن لهمـا بأي حال أن يلتقيا. وفي هذا تقول الحكمة: "إذا أراد الله بعبـد خـيراً، ألهمـه الطاعـة، وألزمـه القناعة، وفقهه في الدين، وعضده باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفـاف. وإذا أراد بـه شراً، حبّب إليه المال، وبسط منه الآمال، وشغله بـدنياه، ووكلـه إلى هـواه، فركـب الفسـاد، وظلم العباد".

بحكم عملي، فقد التقيت بكبار الأثرياء، وشخصيات مسؤولة رفيعة، في مناسبات شتّى، من مختلف الدول، وكنتُ دوماً أشفق بحال ثري، وأنا أرى بأن هذا المسكين قد أفنى عمره وهو يجمع المال، ثم بعد حين سيترك هذا المال لأشخاص، دون أن يتمكن من أخذ شيء معه، فينعم بهذا المال هؤلاء الأشخاص، وليس هو، بل سيتحوّل إلى إدانة له في الدنيا، حيث يُقال عن المصادر التي جمع من خلالها هذا المال، وتُثار الشكوك حول ثروته الطائلة. وليت الأمر توقف هنا فحسب، بل هو الآن في الآخرة يُسأل عن هذا المال، ولماذا اكتنزه، وكيف جلبه؟ فيكون المسكين قد أفنى عمره، وهو يُصارع الآخرين، ويصبح على عداوات مع أناس، ويظلم أناساً، ويتنازل عن القيم الإنسانية، في سبيل نتيجة تحوّلت إلى وبال عليه في الدنيا والآخرة، ثم أن هذه النتيجة بات ينعم بها غيره، فهذا هو المفلس الحقيقي.

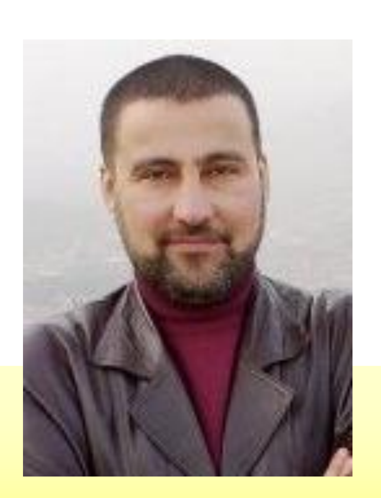
ولعلي هنا أذكر أنني وسط أثرياء، يتبارزون: أيهم لديه أموال أكثر من الآخر، فيقول أحدهم بأنه يمتلك مائة (دفتر)،{والبعض يطلق على كل عشرة آلاف دولار (دفتراً)}، ثم يقول الآخر بأنه يمتلك مائة وخمسين (دفتراً)، فأقول: أحمد الله الذي جعل حصيلة عمري حتى الآن خمسة وعشرين (كتاباً)، ولم يجعلها خمسة وعشرين (دفتراً)!

لقد تربّع زعماء وأثرياء على عروش، وجيوش، فلم تستطع الثروة حمايتهم في الشدائد، ولعل هذا ما نبّه إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، إذ كان على الأغلب يدور على بيوت بناته وأصحابه من شدة الجوع، بسبب عدم وجود طعام في بيته، وهو الذي كان يُعطي الجميع، ثم تعلّم منه (عمر بن الخطاب) هذا الدرس، فكان يجوع ولا يجد شيئاً في بيته وهو أمير المؤمنين، ثم تعلّم منه الخليفة (عمر بن عبد العزيز)، الذي يقول عياله بأنهم ضجروا تناول العدس والبصل.

وربما لذلك كان موقفي حاسماً في هذا الأمر، منذ البداية، وهو أن أتخلص أولاً بأول من مال يمكن له أن يتراكم لدي، وذلك عندما تصلني مكافآت مؤلفاتي، أو جوائز التكريم، فإنني أشعر بأن ناراً دخلت بيتي، ولا أهدأ قبل أن أخمد هذه النار بالإنفاق، أو بتقديمه كمساعدة، لأن بقاءه سُيشغلني عن عملي، وقد تتسرب إلي فكرة أن أتحوّل من أصحاب (الكتب) إلى أصحاب (الدفاتر). ولعل من نعم الله عليّ، أنه رزقني بزوجة توافقني على مذهبي❐


تاريخ

كلُّ شيء هادئ في جميع الجبهات



عبدالكريم يحيى الزيباري

بعد ستة شهور طويلة قضياها في المكتبات العامة والخاصة: فجأةً قرَّرا التوقف. بعدما نقّبا داخل الأرشيف، وأتّثا غرفة صغيرة بمئات الكتب والمجلدات وصور الوثائق الرسمية والتواريخ المحدَّدة على دقّات ساعة بيغ بن، اكتشفا في وادٍ ضيق: رسماً منحوتاً على جدار صخري، لحاكمٍ يقهر أسداً قوياً، ومن ورائهِ تتناهشه الخناجرَ المسمومة.

وهما يقلِّبان (جريدة الثورة) البغدادية توقّفا أمام المرسوم الجمهوري ٤٢٥ والصادر ١٩٦١/٨/٢٧ والذي ينص: بناءً على ما عرضه رئيس الوزراء، رسمنا بما هو آت: يقوم سيادة الزعيم (عبدالكريم قاسم)، رئيس الوزراء وكيل وزير الدفاع، بمنصب وزير الخارجية بالوكالة.

قلتُ له:

– كيف يصحُّ هذا الكلام؟ بناءً على ما عرضه رئيس الوزراء على نفسهِ؟ اختزل لنفسه الدفاع ورئاسة الوزراء والخارجية والداخلية، وماذا بعد؟

بحثاً عن الإجابة، اكتشف أحدهما سؤالاً جديداً، وهو يتأمل عجزه أمام فوضى الكتب والوثائق:

– مِنْ أينَ جاء التاريخ؟

أمسك صديقي بلحيته، التي لم يلمسها منذ ستة شهور، فطالت حتى غطّت رقبته، وقال:

- مهما بدا السؤال أو التاريخ أو الوجود مستحيلاً، فإنَّهُ ليس ضروريًّا بالقدر نفسه، كما الكتابة في ذاتها ليست خطئاً ولا صواباً، بل ممكنة أو غير ممكنة، وليس بمقدورها القيام بشيء أمام هذا العالم" رغم أنَّ فعل الكتابة يظلُّ الأكثر قدرة على أنْ يقِفَ مانعاً ضدَّ تبديدنا من قبل الزمان.

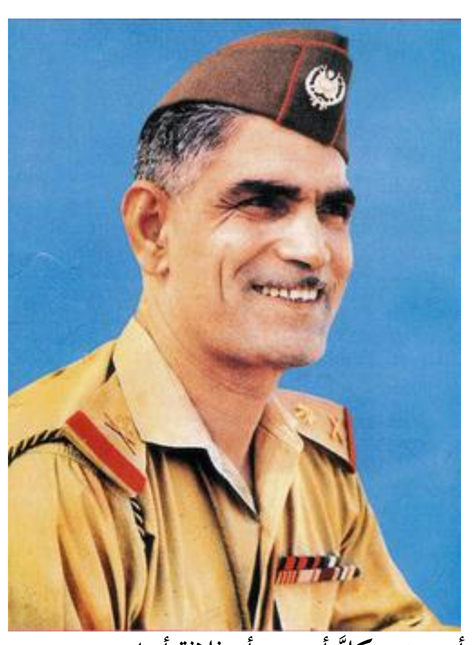
- كيف؟

- بتعطيل حاسة الارتياب لدى القارئ، والتاريخ يعتمد في جزءٍ كبير منه على قدرة المؤرخين على الإقناع.

- لكن في متون التاريخ توجد اختلافات كثيرة.

- الاختلاف جزءٌ رئيس من عملية الإقناع، والاختلاف جزء من التاريخ أيضاً.

بعد نقاشٍ وجدل طال ليومين اتَّفقا على أنَّ التاريخ متاهة من التُرَّهات، وأحرقا كل الكتب والوثائق التي قاما بجمعها، لأنَّ العالم سيكون مكاناً أكثر نقاوة بدونها. في ليلة من ليالي الشتاء الباردة أحرقا كل شيء داخل برميل نفايات، وهما ينفخان في أيديهما تارةً، وفي الهواء البخار تارةً أخرى، وافترقا، وقبل أنْ تختفي النار، غادرا المكان. وفي الليل كان أحدنا يضطجعُ عَاريا في خِزْيِهِ، كلصّ منكّس الرأس، بعدما أمسكوا بهِ، وربطوه في شجرة. وبعدما كنت ألتقيه كل يوم، لم نلتقِ إلا مرة



أو مرتين كلَّ أسبوع أو ثلاثة أسابيع، ومضت ثلاثة شهور أسرع من ثلاثة أيام، وعلمتُ أنَّ صديقي طريح الفراش، فأسرعت لزيارته:

- لن تصدِّق ماذا قال الطبيب؟

لم يجب بكلمة، لكن الصمت ونظرات العينين المتلهفتين بدتا وكأنَّه يردِّد: ماذا؟

- يقول لديك تليف في الكبد نتيجة إدمان الكحول. لقد وضعَ السمَّاعات في أذنيَّ، وقال لي أسمع، وهو ينقر بطني بأصابعهِ، كان كصوت الطبل المكتوم.

- لكنه ليس مرضاً خطيراً.

- على العكس تماماً، هذا التشمُّع أو التليُّف، لا علاج له أبداً، ولم تتحقق في العالم حالة شفاء واحدة منه، قال الطبيب سنركِّز على منع المضاعفات فقط، وتخفيف الآلام.

- ومن أينَ جاءك التليف؟
- يقول لي من إدمان الكحول.
- لكنك لم تشربه في حياتك.
- هكذا قلت له أيضاً.
- وماذا قال؟
- قال نسبة الكحول في دمك عالية جداً.
- اذهب إلى طبيبٍ آخر.
- ذهبتُ إلى ثلاثة.
- جرِّب الرابع والخامس والعاشر.
- لقد تعبت وأنفقتُ الكثير دون فائدة، جميعهم متفقون تقريباً.

كان هذا لقائي الأخير معه، وكان الحديث طويلاً، حول مواضيع مختلفة، كان التاريخ إحداها. خلف فناء البيت كان برميل النفايات في مكانهِ، قلبته على الأرض، وبحثتُ، لعلي أجد شيئاً لم تأتِ عليه النار. وجدت جذاذات قليلة، جمعتها. اقترحت على نفسي إعادة الكتابة، لكن من أينَ سأبدأ: بلغني أيها القارئ الحزين. لا هذه الصيغة لم تعد تنفع. يجب أنْ أذكرَ الاسم الصريح:

أستاذ التاريخ الحديث (عبدالفتاح علي يحيى البوتاني) يقول نقلاً عن (سعد ناجي جواد):

في ١٩٦٠/١/٩ قدم (ملا مصطفى البارزاني) و(نوري شاويس) و(عمر مصطفى) و(إبراهيم أحمد)، وستة آخرون، طلباً إلى وزارة الداخلية للموافقة على تأسيس



حزب باسم الحزب الديمقراطي الموحَّد لكوردستان العراق، وأرفقوه بمنهاج مؤلَّف من ٢٣ مادة، ومما يجلب الانتباه المادة الثالثة التي أكَّدت أنَّ الحزب ينتفع في نضالهِ السياسي وتحليله للمجتمع من النظرية العلمية للماركسية اللينينية، واقترح وزير الداخلية الموصلي (أحمد محمد يحيى) إجراء عدد من التغييرات على المنهاج، وحذف كلمتي (كوردستان) و(الموحد) من اسم الحزب، ليكون: الحزب الديمقراطي الكوردي، وأبدى (البارزاني) استعداده لإسقاط كلمة (الموحَّد)، إلا أنَّه أصرَّ على كلمة (كوردستان)، فاقترحَ (قاسم) اسم: الحزب الديمقراطي الكوردستاني، كحل وسيط، فقبل (البارزاني) الاقتراح.

(شكيب عقراوي) يقول:

في ١٩٦٠/٢/٨ وافقت وزارة الداخلية على منح الترخيص الرسمي لـ(الحزب الديمقراطي الكوردستاني) لمزاولة النشاط السياسي، بموجب قانون الجمعيات السياسية لسنة ١٩٦٠، وأنَّ الزعيم هو الذي اقترحَ

تغيير اسمه من الحزب الديمقراطي الكردي إلى الحزب الديمقراطي الكوردستاني، ليكون بإمكان جميع سكان كوردستان العراق الانضمام إليه، وإن لم يكونوا أكراداً.

لا هذا الأسلوب أيضاً غير مناسب، إلا للانطباع الغريب بأنّي عشتُ هذه اللحظة الغريبة من قبل. لا هذا الانطباع غير مناسب، كبداية مشوّقة يجب أن تنطلق من صلب الحكاية، لا كما في كلِّ مرَّة من وثيقة جامدة.

هذه السيرة الشعبية لم ينجزها أحدٌ قبلي، بهذه الصيغة على الأقل. خلاف كل ما مضى قمتُ بإنجازها مع الاستفادة من كل الوثائق المحروقة.

وهبطَ الزعيم الركن (عبدالسلام عارف) من الطائرة العمودية، التي أقلته إلى مدينة (أم البعرور)، والتي صار اسمها فيما بعد (مدينة الشاميَّة)، ذلك اليوم شكَّل انعطافاً كبيراً في تاريخ المدينة في مرحلة الجمهورية الأولى، حيث صار شيوخها وأعيانها محل اهتمام وتنافس الزعيم، ونائبه، الذي ظلَّ مولعاً بالخطب الحماسيَّة، والاستعراض في جولات مكوكية، يخطب في مئات المواطنين المحتشدين حوله، لم يكن (عارف) يعلم أنَّ ولعه سيكون سببا في إعفائه من جميع مناصبه، بعد سبعةٍ وسبعين يوماً من الثورة، ثم سبباً في سجنهِ، ثم سبباً في موتهِ حرقاً! هذا الاستعراض كم هو قميء ومثير للسخرية!

في زيارةٍ لأحد ملوك العرب إلى (بغداد)، للتهنئة بثورة ١٤ تموز، قرأ (عارف)، في مستهل خطبته الارتجالية، قوله تعالى: (إنّ الْمُلُوك إِذَا دَخَلُوا قَرْيَة أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزّة أَهْلهَا أَذِلَّة وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ). هذا الخطيب كان يجعل من نفسهِ أضحوكة من كثرة تمجيدهِ لعبدالناصر، وحين استولى على الحكم لم يقم بخطوةٍ واحدة صوب الوحدة التي كان يدعو إليها.

ظهيرة يوم الأحد السابع من أيلول، كان (هادي الطائي) عائداً إلى بيتهِ، بعد يومٍ حار ولزج، من دوامهِ الرسمي في محطة كهرباء الصرافية، تفاجأ بالشارع الرئيس مسدودا من كثرة الجماهير المحتشدة، تستمع إلى خِطاب (عبدالسلام عارف):

- اسمعوني جيداً يا أخوة السلاح، هذا الأسطول الأمريكي السادس قد استقرَّ في لبنان، والجيش البريطاني في عَمَّان يستعد لعملية إنزال في بغداد لإسقاط الحكم الجمهوري، ليعيدوا لكم ملكاً مستورداً، شنو رأي ولد الملحة الشجعان؟

- سنقطّعهم بأسناننا، ستكون (**بغدادگراد**) مقبرتهم.

- ها ولدي الأبطال ما دا أسمع؟ أريد أشوف اشلون تتصدون للأمريكان؟ هذا أخونا الجبير (عبدالناصر) يريد يشوف

شجاعة العراقيين؟ لا تفشلونا ها اخوتي.

- والجماهير ترقص وتهتف بالأهازيج: تلعلع يا لرصاص شبيك، شنهو الرايدة منه، انته اللي انغدر حقك، لو احنا انغدر حقنه..

كاد الزعيم ينفجر غيظاً من هذه الجولات المكوكية، بدا وجهه النحيل وقد جففّه تجاهلُ صديقه له، وعدم ذكر اسمه ولا لقبه، لكنَّ حاشيته نصحوه بأنْ يترك (عبدالسلام) حتى ينفجر من الخطب.

كانت للزعيم (عبدالكريم قاسم) أمنية لم يُفصِح بها لأحد إلا طبيب الأسنان، الذي زاره كمريض مرتين فقط، وانعقدت بينهما صداقة دامت لأربع سنوات. في المرَّة الأولى ذات مساء ربيعي منعش اقتلعَ ضرسهُ. أخبرهُ بأنَّه كزعيم يتمنى أنْ يُصبحَ قادراً على السباحة. وهو يُفكِّر ببناء مسبح في فناء وزارة الدفاع، هذه الفكرة كانت تتنافى مع صورة الزعيم الزَّاهد، فأهملها. في جلسةٍ ثانية، بعد شهور طويلة، اعترف لهُ الزعيم:

- أحياناً أشعرُ بهيجان نفسي لا أعرف له سبباً.

كان طبيب الأسنان قد استأمنه على أنْ يقول كل شيء بصراحة، فقال للزعيم:

- سيدي أنتَ تعيش مع زمرة من الضباط النبلاء ليل نهار، وآلاف الرايات ترفرفُ أمامكم، وخلفكم، ومن حولكم، وبين كلِّ هذا الضجيج أنتَ إنسان، ولديك احتياجات كإنسان، وحياتك من الممكن أنْ تكون حُلُماً جميلاً، أو كابوساً لا يُطاق.

- كيف أجعلها حُلُماً جميلاً، وهؤلاء الذين تقول عنهم نبلاء ليسوا إلا ذئاباً لا يفكرون إلا في اكتناز الذهب والعقارات، لقد ظلَّ (عبدالسلام) يتوسَّل ويتباكى إلى أنْ أطلقتُ سراحه، ووهبته داراً فخمة في (زيونة)، فاستأجره، ولم يسكن فيه، صرفت له معاشاته المترتبة، وهو في سجنه، وها هو يراجعني يريد صرف معاشاته كنائب رئيس وزراء، لا كعقيد فقط. في البداية توسَّل لتخفيف حكم الإعدام، ثمَّ توسَّل لإطلاق سراحِهِ، ثم معاشاته كعقيد. ماذا أفعل؟ إنَّهم لا يشبعون أبداً.

- سيدي الزعيم دعكَ منهم، وتزوَّج، لِتَجِدَ حُضناً دافئاً تعود إليه كل ليلة.

- كيف يتزوَّج من لديهِ أربعة آلاف أخت عانس؟

ظنَّ طبيب الأسنان أنَّ الزعيم سيقول له: ولماذا أتزوَّج وكل الذين من حولي زوجاتي؟ أنا مستمتع ببث داء الضرائر بينهم. قال طبيب الأسنان:

- لكنَّ العراق كله لم يبلغ أربعة ملايين بعد.

- قبل عشرة سنوات كانوا أربعة ملايين ونصف.

في مساء آخر قرر الزعيم أنْ يشاهد فيلم

(احنا التلامذة)، حيث رفعَ له مدير الأمن تقريراً يقول فيه إنَّ الرقابة أخطأت في تمرير الفيلم، لأنَّ الفيلم مفبرك ضد الجمهورية، والجمهور يطلق على مجلس الوزراء اسم جماعة احنا التلامذة. أمرَ الزعيم أثناء مشاهدتهِ للفيلم إيقاف التشغيل عند الكثير من المشاهد، كان أولها المشهد الأول من المقدمة، وسأل:

– هذه السبَّابة التي تشير إلى كلمة شكر، هل هي لليد اليسرى أم اليمنى؟

– وكيف سنعرف فخامة الزعيم؟

– لو شغَّلتم عقولكم ستعرفون! أنَّها لا يمكن أنْ تكون لليد اليمنى. تمثلوا المشهد.

مرت لحظة صمت، سألهُ أحد الحضور:

– فخامة الزعيم، هل نعيد تشغيل الفيلم.

– اقرأوا ماذا كُتِب: المنتج حلمي رفله يسعده أنْ يُقدِّم أعمق الشكر وخالص التقدير إلى حضرات أساتذة التربية وعلماء النفس ورجال الفكر والصحافة الذين اشتركوا في دراسة قصة احنا التلامذة، وساهموا في وضع خطوطها واتجاهها، وكان لآرائهم السديدة، وتوجيهاتهم السليمة، آثارها في إبراز القصة، والمشكلة التي ترويها، بصورة صادقة، حققت الأهداف من إنتاج الفيلم، وأكدت تجاوب السينما، ومساهمتها في تطهير المجتمع والنهوض.

انتهى الزعيم من قراءة كلمة الشكر، ثم وقف أمامنا، وظهره إلى الشاشة، وقال:

– هذا الشكر علامة على المبالغ الطائلة التي تمَّ إنفاقها على هذا الفيلم.

قال له مدير الاستخبارات:

– لو أمرتم فخامتكم الموافقة على اقتراح العقيد ركن غانم إسماعيل.

– ومن هو هذا العقيد؟

– ملحقنا العسكري في بيروت.

– وماذا يقترح أفندينا؟

– يريد من فخامتكم تخصيص بعض المبالغ للأقلام المأجورة في بيروت، للرد على الهجمة الشرسة التي يشنها المأجورون الآخرون على جمهوريتنا الوليدة.

– هذه آخر مرَّة أسمع كلمة جمهوريتنا الوليدة. هل فهمت؟ قل جمهوريتنا الخالدة، قل جمهوريتنا العظيمة. ليس مِنْ مأجورين بمقدورهم إنهاء مأجورين، كما ليسَ من حربٍ يمكنها أن تنهي حرباً، كلُّ حرب تَلِدُ حرباً أخرى، إلى أن تقوم الساعة. وماذا تريد منِّي؟ ألا تخجل من نفسك؟ أنا الزعيم أشترك في جريمة إفساد ذِمم المثقفين؟ هل جننت؟ ماذا سيقول التاريخ عَنِّي؟ اعملوا بصدق، بالعمل وحده يمكننا خدمة الوطن، وليس بالأكاذيب. هذه أموال الشعب، لن أنفقها إلا على الشعب، لن أنفقها من أجل تزويق صورتي، هذا حرام، لا زال بين الشعب من لا يجد قوتَ يومهِ. ثمَّ أنَّهُ لدينا أكثر من ٨٢

صحفي في نقابة الصحفيين، ماذا يفعلون؟ أينَ (الجواهري) نقيب الصحفيين، ورئيس اتحاد الأدباء، ماذا يفعل؟ أظهروا للعرب حقيقة منجزاتنا.

وجلس في مقعدهِ منزعجاً، وهو يتابع الفيلم، ولم تمضِ عشر دقائق حتى أمرَ بإيقاف التشغيل ثانية، بإشارةٍ من يدهِ. بقيَ في مقعدهِ لدقيقتين، ثم وقفَ ثانيةً:

– انظروا هؤلاء الثلاثة يحملون أوراقاً بأيديهم، يحاولون قراءتها على ضوء الفانوس الذي يحمله ذلك الرجل العجوز، الذي يرتدي الزيَّ الروماني، إشارةً إلى حضارة روما، التي حكمت العالَم لألفي سنة، وها هم اليوم يريدون أنْ يحكموننا لألفي سنةٍ أخرى، بينما نحن منشغلين بالاقتتال الداخلي فيما بيننا. اكتبوا في كلِّ الصحف: أنا لستُ ضدَّ الوحدة العربية، أنا عربيٌّ وأفتخرُ بقوميتي أكثر منهم. أينَ (الجواهري)، لماذا لا يكتب قصيدة عصماء عن عروبتي؟ وفوق كلِّ هذا يريد وزارة؟ وهنا دخل العقيد (فاضل عباس المهداوي) يلهث، ووقف أمام الزعيم:

– سيدي وصلت الآن إلى مقر وزارة الدفاع البيضة التي عثروا عليها في الأنبار، وعليها صورة فخامتكم؟

لم يقل الزعيم شيئاً، لكنَّهُ لم يستطع أنْ لا يمتعضَ ويرفع الجزء الأيسر من شفتهِ العليا، كما فعل قبل أنْ يدخل إلى قاعة السينما،


فاضل عباس المهداوي

وهو يشكو قائلاً:

– كنتُ محاصراً بين الشيوعيين التابعين للسوفييت، والقوميين التابعين لعبدالناصر، وكلاهما ضد الغرب. نصحني صديقي (همفري تريفليان) بأنْ أضربَ أحدهما بالآخر.

وكانت نصيحة (همفري تريفليان) قد جاءت بعدما رأى بعينيه في ١٩٥٩/٥/١ كيف قاد الحزب الشيوعي مظاهرة، قدر عددها بنصف مليون، جاؤوا من عموم العراق. عن هذه المظاهرة صرَّح (هنري كابوت لودج)، ممثل أمريكا في الأمم المتحدة: عدد أعضاء الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ستة ملايين، لكنهم في العراق ثمانية ملايين! وكان عدد سكان

العراق آنذاك ثمانية ملايين!

بعد مجازر كركوك في ١٤-١٦ تموز ١٩٥٩ خطبَ الزعيم في كنيسة (مار يوسف) في ١٩ تموز: إنَّ مَنْ قام بهذه المجزرة برابرة أسوأ من هولاكو، وسخرَ منهُ أعضاء الحزب الشيوعي، قائلين:

- انظروا صوت الزعيم يرتعش، انظروا يديه ترتعشان خوفاً مِنَّا!

كتبَ (محمد حسنين هيكل)، في جريدة (الأهرام)، في ١٩٦٣/٩/٢٧، أنَّ ملك الأردن أخبره: إنَّ ما جرى في بغداد في ٨ شباط ١٩٦٣ حظيَ بدعم الاستخبارات الأمريكية.

لم يذكر الزعيم أنَّ (همفي) نصحهَ أيضاً بالإفراج عن اللواء (غازي الداغستاني)، وكان قائداً للفرقة الثالثة، وذكرَ أمام محكمة الشعب، التي حَكَمَت عليه بالإعدام، بتهمة الاشتراك في محاولة الانقلاب العسكري في دمشق، والتي لم ينكرها، فذكر أن (نوري السعيد) استدعاه في ربيع عام ١٩٥٧، وأطلعه على خطة للقيام بانقلاب في سورية، مدعوم بهجوم للجيش العراقي على حلب و حمص و دمشق، وقد أعطيت الحركة الانقلابية الداخلية في سورية اسم (عملية نصر)، بينما أعطي التدخل العسكري اسم (عملية سيف العرب)، وأنَّهُ التقى (هوارد ستون)، السكرتير الثاني للسفير الأمريكي في



سوريا، وبعض ضباط الجيش السوري، في بيروت، الذين سيعلنون الوحدة بين العراق وسوريا والأردن، فيما لو نجحَ الانقلاب، كرد على محاولات الوحدة مع مصر، التي أعلنت بعد هذه المحاولة بشهور. ولأنَّ اللواء (غازي) لم يرَ جديَّة من (عبد الحميد السرَّاج) و(أديب شيشكلي)، وأنَّهم كانوا لا يتحدثون إلا عن المائة مليون جنيه استرليني، والتي وقعَ جزء كبير منها على حكومتي العراق والسعودية، ولهذا دفعَ (غازي) نصف المبلغ فقط، وأعاد النصف الآخر إلى خزنة السفير العراقي في بيروت، لإعادته إلى العراق.

قال العقيد المهداوي:

- سيدي هل أجلبُ لكم البيضة؟

- ليس الآن. ألا تراني مشغولاً؟

خرجَ العقيد فاضل عباس. كان العقيد مجيد سعيد جالساً في الصفِّ الأخير، لم يبدُ

عليهِ الارتياح، وازدادَت كآبته بدخول العقيد المهداوي فجأة، حيث تذكّر اجتماع اللجنة العليا للضباط الأحرار في بيت الزعيم بتاريخ ٤/٧/١٩٥٨، حيث دخل المهداوي يلهث، وهو يقول: انكشفنا، الاستخبارات لديها علم بهذا الاجتماع. فتفرَّق الضباط، وكانت أسوأ ليلة، ولكن الجميع آنذاك تناسوا أنْ يسألوا الزعيم: لماذا فبركت علينا هذه اللعبة؟ وبعد ذلك لم يجرؤ أحدٌ على سؤالهِ. وقبل ذلك أخبرني (شامل عبدالقادر) بأنَّ المهداوي اقتحمَ اجتماعاً سريًّاً بين الزعيم ومدير الأمن العام ومدير الاستخبارات، ليخبرهُ بأنَّ الناس يتظاهرون في شارع الرشيد، لأنَّهم رأوا صورته على وجه القمر، ونهضَ الزعيم، وخرجا معه، وتطلعا إلى وجه القمر لأكثر من عشرة دقائق، وهم يضحكون، ثمَّ سألهم الزعيم:

- هل تريان شيئاً؟

- كلا سيدي، لا نرى شيئاً.

وهنا ابتدرَ العقيد فاضل عباس:

- أنا السبب سيدي، لقد تأخرت في المجيء.

- عبوسي، ألا ترى أننا في اجتماع، لا تزعجنا مرة أخرى.

كان الزعيم حين يكون راضياً عنه يناديه عبوسي، وكان الزعيم في الاجتماع يخبرهما:

- الباشا نوري السعيد لم يستطع القضاء على الشيوعيين لأنَّهم كانوا في الأقبية والسراديب، وأنا قد أخرجتهم إلى النور، وصاروا مكشوفين لكم، ماذا بكما؟ هل عجزتم عن القضاء عليهم؟

- لم نعجز سيدي، ولكننا بانتظار أوامر فخامتكم.

- ما هيَ أخبار الاستعدادات للاحتفال العظيم؟

- سيدي لقد جلبتُ لكم الجرائد والمجلات كافة- وراح يقرأ- حتى صحف المعارضة مهتمة، نشرت مجلة الوادي العدد ١٤، يوم السبت ١١/٦/١٩٦٠، إعلاناً بعنوان: نداء (إلى كافة المواطنين: ترغب لجنة الاحتفالات بيوم ١٤ تموز الخالد، من سيادتكم، معاونتها في صياغة شعارات ترفع من قبل الدوائر الرسمية والمنظمات الوطنية بهذه الذكرى المجيدة، وترجو اللجنة أن تنبثق تلك الشعارات الشعرية أو النثرية، وتستمد من الشعارات الثلاث التي دعا إليها سيادة الزعيم المنقذ عبدالكريم قاسم، وهي: أ: تحيا الجمهورية العراقية الخالدة. ب: تحيا الوحدة العراقية الصادقة. ج: تحيا الأمة العربية المجيدة. ونحن نؤكِّدُ رجاءنا هذا، على أن يصل قبل يوم ١٥ حزيران ١٩٦٠ إلى مدير إدارة بلدية الموصل، ولكم مزيد الاحترام. خيرالدين محمود، عضو لجنة الاحتفالات في ١٤ تموز الخالد).

– وأين عبدالله صديق الملاح رئيس بلدية الموصل، هل يأنفُ أنْ يصيرَ رئيساً للجنة الاحتفالات بالثورة؟

– كلا سيدي، لكنه عضوٌ في اللجنة العليا التي يرأسها المتصرِّف.

– وهذا تقرير وزارة البلديات: لقد تمَّ التعاقد مع الصين لشراء مائة ألف صورة لفخامة الزعيم. سيغني (ناظم الغزالي) أغنية للشعب، من كلمات الشاعر (جبوري النجار)، وألحان (خضر الياس)، ويقول فيها: للشعب تسلم تسلم، ركن الظلم يتهدَّم، تسلم يا عبدالكريم، باسمك مجدنا ترنَّم. تسلم يا عبدالكريم، تسلم وأنت الزعيم، أنت يا قائد أمتنا، يا ذخر اليوم العظيم، ليل المظالم ولّى، فجر العروبة تجلى).

– توقف، توقف. ما هذه العروبة التي أقحمتها في الأغنية؟ اجعلها: فجر العراق تجلى.

– نعم سيدي. وهناك أغنية: يبقى الزعيم عبدالكريم. وأغنية: عبدالكريم كلُّ القلوب تهواك، عبدالكريم ربُّ العباد يرعاك، كلنه فِداك، نحمي حِماك، عبدالكريم، عبدالكريم، عبدالكريم، أنت الزعيم، عاشت بك الأمجاد، لا عاد ملك يحكم ولا طاغي ولا جلاد، بثورتك اتوحدت كل القوى، بين العرب وأكراد.

– سيدي لن تتصور مدى الإقبال الكبير لمؤسسات الدولة، ورغبتها في المشاركة في العيد الثاني للثورة، لكنَّ (محمد حديد) يقول إنَّ النفقات صارت كبيرة، وأنَّ الموازنة لم تعد تحتمل.

– هذا المجنون ينتحر سياسياً، يريد أنْ يقفَ ضد رغبات الشعب العراقي العظيم في الاحتفال بثورته الجّيدة.

بعد الثورة بفترةٍ وجيزة، حين سأل (هيكل) (محمد صديق شنشل)، وزير الإرشاد العراقي، عن قاسم وعارف، أجاب: الأول نصف مجنون، والثاني نصف عاقل. وبعد ذلك بسنوات طويلة، ستنشر مجلة (دير شبيغل) الألمانية، أنَّ المخابرات الأمريكية سلمت الطبيب العراقي، الذي يعتمد عليه عبدالكريم قاسم، مناديل ورقية مشبَّعة بعطر فيه مواد مخدِّرة، حين يستعملها الزعيم للمسح والشم، يُصاب بهلوسة.

لم يكن الزعيم ينسى إساءة، مهما كانت صغيرة، ففي العهد الملكي تمَّ إيفاد المقدم ركن عبدالكريم قاسم إلى لندن، للاشتراك في دورة الضباط الأقدمين، وكان يتردد على السفارة العراقية في لندن كثيراً، حتى انعقدت صداقة قوية بينه وبين السفير حسن مصطفى آنذاك، وكانت في أنفِ الزعيم آنذاك ثلمة أو قرطة تُشوِّه منظرَ وجهه، فطلب من السفير أنْ يسمحَ له بالبقاء، بعد انتهاء الدورة، ليجري عملية جراحية، فوافق السفير. وأجريت

العملية، وكانت أنظمة وزارة الدفاع تقضي بأنْ تدفع الوزارة نفقات معالجة الضباط الموفدين، وأجور المستشفى والعمليات والأدوية، لكن محمد إسماعيل رمضان الملقب أبو جاسم رفض أنْ يصرف مُبرِّراً: هذه عملية تجميل! وعلى الضابط أنْ يتحمل نفقاته وحده. ونشبت مشاجرة بينه وبين الملحق العسكري، ولم يصرف المبلغ أيضاً، إلى أنْ تدخل السفير، وأمر بدفع المبلغ على مسؤوليته. في أواخر ١٩٥٨ ذهب الزعيم رئيس الوزراء ووزير الدفاع ووزير الخارجية، إلى مبنى وزارة الخارجية في زيارة مفاجئة، واستدعى رؤساء الدوائر كافة، وحالما استقرَّ بهم المقام، التفت مبتسماً إلى نجدة فتحي صفوة:

- أين صار أبو جاسم الآن؟

- في سفارتنا في نيودلهي سيدي!

وكان الزعيم بعد ذلك بأيام بدأ يخطِّط لإعادته، والانتقام منه، إلا أنَّ أحداثاً جسيمة عصفت به، فأنسته أبو جاسم، وكان أول هذه الأحداث تصريح كامل الجادرجي زعيم الحزب الديمقراطي: على قادة الجيش تسليم مقاليد السلطة إلى سلطة مدنية منتخبة ديمقراطياً من قبل الشعب، والعودة إلى ثكناتهم! لم ينم الزعيم ليلتين متتاليتين، ولم ينسها له، وظلَّ يكيد حزبه حتى فكَّكه، وردَّ عليه في اليوم التالي:

- أينَ كان ساسة الصالونات حين فجَّرنا الثورة!

وكان (الجادرجي) يعتقد أنَّ الزعيم يقود الدولة بعقليَّة عريف آمر مفرزة كمين صغيرة، وقال ذات خِطاب: القطار يسير، والركاب يتخاصمون، لكنه سيواصل السير، وسيصل! كان يُفكِّر كسائق قطار يجب عليه إذكاء نار الفتنة بين الركاب، لأنَّها إذا انطفأت سيتلفتون إلى سائق القطار!

كامل الجادرجي ظلَّ مُشَكِّكاً بأنَّ مصير أية حكومة يشترك فيها العسكر ستتحول إلى دكتاتورية، كما حدث في انقلاب بكر صدقي. ورغم عدم اشتراكه شخصيا في الحكومة، فقد زجَّ بمحمد حديد وزيراً للمال، وهديب الحاج محمود وزيراً للزراعة، ثمَّ تطوَّع بفكرة السفر إلى مصر، لمقابلة عبدالناصر، في ١٤ أيلول ١٩٥٨، لبحث تأجيل الوحدة، أو إرجائها، ثمَّ أمرهما بالاستقالة، بسبب حماسة الحزب الشيوعي في مساندة عبدالكريم قاسم، فقدَّم كلٌّ منهما استقالته. وبحسب رواية محمد حديد فإنَّ الزعيم توسَّل بهما سحب الاستقالة، إلى درجة أنْ سالت الدموع من عينيه. كان (حديد) يرى المصلحة الوطنية في الاقتراب من عبد الكريم قاسم، لأنَّ في الابتعاد سيفسح المجال للعسكر والشيوعيين المتطرفين، ولَمَّا ازدادت الضغوط اضطرَّ محمد حديد إلى

الاستقالة من الحزب الوطني الديمقراطي، وقام بتأسيس الحزب الوطني التقدمي، كما استقال من الحكومة أيضاً. ويُقال إنَّ الاستقالة من الحزب والحكومة كانت متفقا عليها مع الزعيم، حيث كانت الاستقالة ضربة قوية قصمت ظهر الحزب الوطني الديمقراطي، فلم تقم له قائمة، وظلَّ محمد حديد محتفظاً بعلاقته الحسنة مع قاسم، وفعَّالاً أكثر مما كان في الوزارة. لكنَّ أهل بغداد علقوا على استقالة محمد حديد:

– ظل البيت لمطيره، وطارت بيه فرد طيره!!

كما وأنَّ الحزب الشيوعي، وحاشية عبدالكريم قاسم، كانوا قد ضاقوا ذرعاً بمحمد حديد، المنطقي أكثر من مناطقة العالم كلهم، وكانوا يطرحون أسئلة تشكِّكُ في نزاهتهِ:

– من الكسل ألا يميل الشباب إلى الاشتراكية، لكن من الغباء أنْ يظلَّ اشتراكياً بعد الأربعين! اشتراكية محمد حديد المبهمة قد تلاشت، مع ما وصلت أرباح شركة الزيوت النباتية التي يديرها إلى أرقام قياسية. هل يمكن لإنسان أنْ يبقى اشتراكياً، حتى عندما تكبر مصالحه وتنمو؟

– سيدي وقبل فترة أثارَ قضية شقيقكم (حامد عبدالكريم) بخصوص صفقة القمح الأسترالي؟

– أية صفقة؟

– التي وجدوا فيها بعض الجرذان.

– لكن استيراد القمح من اختصاص اللواء ناجي شاكر مدير عام مديرية الإعاشة.

– نعم سيدي، ومديرية الإعاشة العامة إحدى مؤسسات وزارة المال.

– وماذا بعد؟

– كتبَ محمد حديد بياناً بالرقم ٣٤٣ يقول فيه، إنَّ شقيقكم (حامد قاسم) لم تكن له أية علاقة، ولم يمارس أيَّة ضغوط على وزارة المال، التي رفضت الصفقة، وقام المجهزون ببيع القمح في السوق، بعد استحصالهم موافقة الجهات الكمركية والصحية المعنيَّة. وبذلك فإنَّ وزارة المال لم تعد مختصة بهذه القضية، التي صارت من اختصاص وزارة الصحة.

– هذا شيءٌ جيد، حامد شقيقي بريء إذن.

– نعم سيدي، لكن كان من الأفضل عدم ذكر اسمهِ في البيان.

– ولماذا؟ نحن لا نخاف من أحد. اطلبوا لي محمد حديد لنرى مسألة الموازنة.

بعد ساعة واحدة كان محمد حديد وزير المال جالساً قرب الزعيم في غرفته، وأمرَ الجميع بالخروج، بادره الزعيم:

– ما أخبار الموازنة؟

ابتسم حديد، وقال:

- سيدي العزيز، بعد الانتهاء من الاحتفالات بالذكرى الثانية لثورة ١٤ تموز المجيدة، ستبدأ وزارة المال بجدية، ونشاط خلية نحل، بإعداد ميزانية الدولة للسنة الثانية، بطلب إلى جميع الوزارات والدوائر لإرسال تخميناتها للمصروفات المتوقعة، وقد ضمَّت في السنة الأولى توسعا كبيراً في التشكيلات الإدارية، ونتوقَّع هذه السنة توسُّعات أكبر، وسنعمل -كما في السنة السابقة- تخصيص ٥٠٪ من موارد النفط للميزانية التشغيلية، و٥٠٪ للتخطيط الاقتصادي، وبالنسبة إلى العجز في السنة الفائتة، فهو لم يكن كبيراً، وسيكون بمقدورنا تجاوزه بزيادة الضرائب، علماً إنَّ المبلغ الإجمالي سيكون ١١٦ مليون دينار عراقي تقريباً، أي بزيادة أربعة ملايين عن العام.

قاطعه الزعيم:

- لكن لماذا نستورد القمح، وقد كنَّا نصدِّره؟

- سيدي الزعيم لدينا ٤٤ مليون دونم صالح للزراعة، وعدد الفلاحين لا يتجاوز المليونين، لكن بعد تفتيت الوحدات الزراعية، ومنح كل فلاح خمسين أو عشرين دونم، أو خمسمائة دونم، كحد أعلى، أسهم في تقليل الإنتاج الزراعي، لعدم شعور الفلاحين بالمسؤولية الجديدة، التي ألقتها الثورة على أعتاقهم. سيدي، ترك الفلاحون أراضيهم، وعلقوا على أبواب أكواخهم الطينية سندات ملكيتهم للأراضي، وقاموا بهجرة جماعية إلى بغداد، حيث وفَّرت لهم الثورة السكن والماء والكهرباء مجانا، في مدينة الثورة، والتحقوا بالوظائف العامَّة، وصارت العائلة المؤلَّفة من خمسة أنفار تتقاضى ثلاثمائة دينار شهريا، هذا المبلغ لن يجنيهِ من أرضهِ خلال عشرة سنوات.

- اسمع هذا التقرير الذي وصلني صباح اليوم: كان العراق قبل الثورة ينتج مليوني طن من القمح والشعير والتمر، يستهلك ثلاثة أرباع الطن، ويقوم بتصدير ما لا يقل عن نصف مليون طن، ويحتفظ بالباقي كخزين استراتيجي، وها نحن في العام الثاني من الثورة نستورد الطماطم من السعودية. هذا غير مقبول أبداً. نحن بلاد النهرين نستورد الطماطة من السعودية الصحراوية!!

- سيدي لا تُصدِّق هذا كلام جرائد.

- كيف، لقد سألت إبراهيم كبَّة وزير الاقتصاد، فقال هذا الكلام كله صحيح. وقال لي أيضاً إنَّه استطاع خفض العجز في الميزان التجاري بمقدار ١٤ مليون دينار. انظر هذا الكلام بخطِّ يدهِ: العجز سنة ١٩٥٧ كان ٥٠٥،١٠٩ مليون دينار، وهذه السنة هبطَ إلى ٩٥ مليون دينار عراقي فقط، هل تعرف كيف فعلَ هذا؟

- لا سيدي.

– بالتزامهِ بنصائحي بوجوب منع استيراد المواد التافهة والكماليات.

كان (حديد) يريد أنْ يقول: إنَّ خفض العجز بنسبة ١٠٪ ليس إنجازاً، نظرة الزعيم الحادة منعته، فقال:

– لكنه سيدي لم يخبرك برداءة الموسم الزراعي، وانقطاع الأمطار لفترةٍ طويلة، ولا تنس سيدي بأني طرحت مسألة الانخفاض في الصادرات الزراعية في اجتماع مجلس الوزراء قبل سنة، واقترحت عِدَّة نقاط لمعالجة هذا الانخفاض، ولقد تمَّ فعلاً هذا العام تسليف الفلاحين ثلاثة ملايين دينار عراقي، واستيراد الجرارات الزراعية، وتوزيع البذور المستوردة، مما سيؤدي حتماً إلى زيادة المنتوج الزراعي. ولقد كانت اتفاقيتنا مع الصين الشعبية، بشرط أن يكون استيرادنا بقدر صادراتنا إليهم، وكذلك مع تشيكوسلوفاكيا وفيتنام الشمالية وبلغاريا وهنغاريا وبولندا ورومانيا.

– ما هذه الاتفاقيات الهزيلة: أينَ روسيا، أين انكلترا؟

– سيدي هؤلاء لا يقبلون منتجاتنا، حتى لو صدرناها بالمجان لهم. لقد قمنا بتقليص استيراد السلع الكمالية عن طريق التخصيصات المحدودة، ورفع الرسوم الكمركية عليها، ومنع استيراد البضائع المماثلة لما تنتجه صناعتنا الوطنية لتشجيعها، وقد أسهم قراركم الحكيم بخروج العراق من المنطقة الاسترلينية، فحققت إنجازاً آخر من إنجازات ثورة ١٤ تموز.

– كان قراركم، وليس قراري، ولم أرَ له نفعاً.

– كان اقتراحنا سيدي وقراركم، لقد تخلصنا من احتمالات تقلبات الباون الاسترليني، وزاد في سيولتنا الخارجية، وزادت العملة المتداولة من ٥٤،٥ مليون دينار لسنة ١٩٥٧، و٩،٦٨ مليون دينار لسنة ١٩٥٨، إلى ٢،٨٢ مليون دينار لسنة ١٩٥٩.

– وأين الفائدة في زيادة حجم العملة المتداولة؟

– سيدي العزيز، إذا حدث نقص في حجم العملة المتداولة، سترتفع القوة الشرائية، وتنخفض الأسعار، وتنتشر البطالة، وهذه مصيبة كبيرة يسمونها في علم الاقتصاد بالانكماش.

– نعم، لكن ما قلت لي ماذا سيحدث حين يرتفع حجم العملة المتداولة.

– لن يحدث شيءٌ ذو بال، سيدي، إنَّ في ازدياد حجم العملة المتداولة، تنخفض القوة الشرائية، وترتفع الأسعار، فيكفُّ النَّاس عن التبذير، و(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ).

– وأنت من الشياطين، أم من إخوانهم؟

- خادمكم المخلص سيدي.

كان الزعيم، وظلَّ طوال حياتهِ، يتشاءم من كلمة خادمكم المخلص، لكثرة ما ردَّدها على أسماع نوري السعيد، كلما سأله:

- كرومي، جا توصلنا ما خوش تقارير عنكم.

- خادمكم المخلص باشا، والله كلها دعايات!!

وانتبهَ الزعيم إلى وزيره، وهو يبتسم، فامتعضَ وهو يقول:

- اسمع، نحن جميعاً نخدم الشعب، وأنا لا أملكُ خادماً شخصياً. هل فهمت؟

- نعم سيدي فخامة الزعيم، كلنا في خدمة الشعب، حفظك الله لنا وللشعب.

بالطبع لم يكن لدى الزعيم الوقت الكافي ليستفسر عن أضرار التضخم جراء زيادة العملة المتداولة، والذي قد ينتجُ عنه انهيار تام، يسبقه عدم التوازن بين معدلات الإنتاج والاستهلاك والادخار والاستثمار، وارتفاع مستمر في الأسعار، والأجور والعقارات، إلى أنْ يصل الدينار إلى مستويات لا يستطيع معها الصمود أمام الغلاء.

وفي العام ١٩٦٢ سأل طلبة كلية الاقتصاد والتجارة في (جامعة بغداد)، أستاذهم (إبراهيم كبَّة)، عن أسباب انخفاض الإنتاج الزراعي بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، باعتباره أحد أهم الوزراء، قبل أنْ يستقيل، فأجاب بابتسامة:

- كان قرار تفتيت الملكية هدفاً سياسياً لا اقتصادياً.

كان بمقدور أيِّ فردٍ من الشعب أن يعرف عن زعيمهِ الشيء الكثير، فقد كُتِبت عنه قصائد وأغنيات ومقالات كثيرة، لكنَّ أحداً لم يكن يعرف أنَّهُ كان يعيش أيامه الأخيرة.

لقد أخبره ذات مدير الأمن عن قلق الاستخبارات الغربية، لأنَّ صور الزعيم الفتوغرافية قد صارت تماثل تقريباً عدد سكان العراق، فدخلَ ذات ليلة من ليالي الشتاء الباردة إلى فرن للصمون، في منطقة باب الشيخ، وعرفهُ الفرَّان أبو جاسملر، الذي كان يتهيأ للدخول إلى نوبة سكرهِ الثانية والأخيرة، وأرادَ أنْ يقبِّلَ يد الزعيم، لكن مرافقه جاسم كاظم العزاوي منعه، فحدثت جلبة، اضطرَّ معها سائق سيارة الزعيم أنْ يترجَّل ليعرف ماذا حدث، ثم عاد إلى مكانهِ، راح الزعيم يُقلِّب الصمونة الصغيرة بيديه، وينظر إلى صورته الكبيرة، ثمَّ قال للفرَّان:

- ليش الصمونة صغيرة؟

- سيدي الطحين غالٍ، والضرائب ارتفعت، و...

- ابني كَبّر الصمونة شوية، وصغّر صورتي. شنو هذا الشعب ياكل صور؟

هذه القصة التي تمَّ تداولها كثيراً، ستظلُّ حديث الناس.

حين عاد أبو جاسملر إلى بيتهِ، قبل الفجر بقليل، كانت زوجته منهكة، وهي تبكي، وتمسح الدموع عن وجنتيها، فسألها بلا مبالاة:

– ماذا حدث هذه المرة؟

– مات الرفيق أرابلوف في حادث سيارة؟

– ومن يكون هذه اللوف؟

– سكرتير الرفيق ماستربوف.

– ومن أينَ لك هذا الخبر يا أم أووف؟

– جارتنا حمدية، ذهبت إلى مقر اللجنة المحلية في الكرخ، فأخبروها بالخبر.

– أيوووووه، وكيف مات الرفيق.

– في حادث سيارة.

– أعرف، في حادث خراء، قلتِ ذلك، لكن أقصد أين؟

– لا أعرف، غداً سوف أسأل حمدية.

– كفى نِفاقاً، ماتت أمُّكِ فلم تبكِ عليها هذا البكاء.

هل من المعقول أنْ تكون أم جاسملر تبكي بعينٍ مهراقةٍ على الرفيق الذي لا تعرف شيئاً عنه، كانت بالتأكيد تمتلك أسباباً أخرى لهذا البكاء المر، لكنَّ أحداً لم يكن بمقدورهِ استكناه الصورة الحقيقية التي جعلت أم جاسملر تنتحب بهذا الشكل.

قبل حادثة الفرن بسنتين، أو أكثر، وبالتحديد يوم الجمعة ١٩٥٧/١٠/٤، أطلق الاتحاد السوفيتي أول مركبة فضائية، هي (سبوتنيك واحد)، من مركز بيكانور الفضائي، في جمهورية كازاخستان، كان قطر (سبوتنيك) ٥٨ سنتمتراً، ووزنها ٨٤ كيلوغرام تقريباً، دارت حول الأرض في ٩٦ دقيقة و١٢ ثانية فقط، وكان في هذا الدوران نصراً معنويَّاً عظيماً للأحزاب الشيوعية المنتشرة في العالم، واستفاد الحزب الشيوعي من هذا النَّصر، وكانَ أبو جاسملر قد ولدت له بنت أسماها (تالا)، وهي تعني النخلة الصغيرة، التي كانت في باحة منزلهم، ولدت يوم الأربعاء ١٩٥٧/١٠/٢، لكنَّه قدَّم تاريخ ميلادها يومين، وغيَّر اسمها إلى (سبوتنيك)، مقابل دينارٍ وربع الدينار، من صديقهِ مسؤول اللجنة المحليِّة في الكرداة، وهذا المبلغ كان آنذاك يعادل نصف المرتب الشهري الذي تدفعه الحكومة للمعلم، وكانوا ينادونها سبوتنيك الحبيبة، وبسبب ثقل الاسم المركب، لم يبقَ من اسمها غير الحبيبة، وشيئاً فشيئاً صار اسمها حبيبة. واحتفلت كوادر الحزب الشيوعي في سجون ومعتقلات العهد الملكي بهذا النصر المؤزَّر على الامبريالية الرأسمالية، وقبل ذلك احتفلوا بدعم السوفييت لعبدالناصر في تأميمهِ قناة السويس، وقبل إعلان سبوتنيك بشهرين أعلنوا عن تزويد مصر بالسلاح، وكان الحزب الشيوعي ينتقل من احتفالٍ إلى آخر، وأبو جاسملر يرقص في قلب الاحتفالات.

في السينما كان الجميع منهمكين بمتابعة الفيلم، تحسُّباً للسؤال المقبل من الزعيم قاسم، رفع يدهُ إشارةً إلى إيقاف التشغيل:

– أريد تقريراً كاملا عن حياة كلّ من: كامل يوسف، وتوفيق صالح، ومحمد أبو سيف، ونجيب محفوظ.

– غداً، قبل نهاية الدوام، يكون الملف أمامك سيدي.

– قوموا بنا، لماذا نُضيِّع وقتنا في مشاهدة فيلم عن التلاميذ، ونحن ضباط، لو كان اسم الفيلم: احنا الضبَّاط، ثمَّ أنَّ الفيلم يبدأ بهم في قفص الاتِّهام، بينما نحن الذين نُقرِّر مَنْ يدخل قفص الاتِّهام، ومَنْ يخرج منه. هل تعرفون ماذا قال لي نائب رئيس الوزراء السوفيتي (انستاس ميكويان)، في زيارته الأخيرة: إنَّ أكثر من خمسين ألف شيوعي فرَّ خارج العراق. لقد نجحت خلال شهور قليلة من القضاء على الشيوعية، وهو ما لم تستطع أن يفعله الباشا، ومعه بريطانيا وأمريكا. قال لي كيف حال السيد مولانا؟

– بخير سيدي، ويدعو لكَ في كلِّ صلاة، لكن لديه عتبٌ صغير، بلغني أنْ أخبرك، لكني لا أريد إزعاج فخامتكم؟

– على العكس أخي، رغباته أوامر.

– منذ شكلتم الوزارة، وليس فيها سوى شيعيٌّ واحد، وهو الأستاذ باقر الدجيلي.

– وطلعت الشيباني.

– حسناً اثنان فقط.

– وأنا.

– حسناً ثلاثة سيدي.

– وأنتَ أهمُّ منِّي، ومن جميع الوزراء. و٦٨ آمر وحدة، ومدير عام. وأوَّلُ الغيثِ قطرٌ، ثمَّ ينهمرُ.

– سيدي عقلك يوزن بلداً بأكملهِ.

بعد لحظة صمت، أكملَ شكواه:

– لقد بلغ الشيوعيون درجةً من القوة لم يبلغوها حتى في موسكو. سيدي لقد وصل الأمر بلجنة الدفاع عن الجمهورية، في وزارة البلديات، إلى التدخل في تلقيح النخيل الموجود في حدائق المؤسسات الحكومية، وأماكن نصب المبردات.

– الكبرياء يأتي قبل السقوط. هل تعرف أنَّ يوسف إسماعيل، وشقيقه: عبدالقادر، رئيس تحرير جريدة اتحاد الشعب، اعترفا بكلِّ الأخطاء، وقال إنَّ همفري تريفليان دسَّ بيننا جواسيساً، بلغت أعدادهم واحدا وخمسين، كان واجبهم الوحيد تشجيعنا على ارتكاب المزيد من الأخطاء. لم يشعر أحدٌ بأنني كنتُ من أكبر المشجِّعين للشيوعيين والقوميين وللأكراد، أنا أشجِّع الجميع، لأنني مهما كانت النتائج أظلُّ الرابح الوحيد.

– سيدي هذا التقرير كتبهُ صديقك، طبيب الأسنان: محمد عثمان.

راح الزعيم يقرأ، ويتعجَّب، ثم قال:

– طلبت منهُ تقريراً عن جورج كرستنس، فإذا به يكتبُ لي تقريراً عن خيَّاط!

كانت الدفعة الأولى من طب الأسنان قد تخرجت في عهد الزعيم، واستوردَ لهم الزعيم رئيساً جديداً للقسم: جورج كرستنس، أسترالي الجنسية، ولأنَّه كان يتردد على السفارة البريطانية، أرادَ الزعيم أنْ يدسَّ عليه صديقه ليتعرف نواياه. وكان (محمد عثمان) قد ذهبَ إلى (ميكائيل حسو) لاستلام بدلته حسب الموعد، فوجدها ضيقة قليلاً، وطلبَ من الخيَّاط توسيعها، وأعطاهُ الأخير موعداً جديداً، وفي الموعد رفضَ الطبيب استلام البدلة، ودفع ثمنها، إلا أنَّ الخيَّاط اضطرَّه، وهدده باستخدام القوة، فاغتاظَ الدكتور، خاصةً وأنَّه قد دفعَ ديناراً ونصف ثمنا لبدلة سوف لن يرتديها أبداً، فكتبَ تقريراً بخطّ يدهِ، وسلَّمه بيد أحد ضباط الاستخبارات، الذي أقسم بأنَّ التقرير سيصل بيد الزعيم مباشرةً، وذلك بعدما يأس من زيارة ثالثة للزعيم. ومما جاء في التقرير أنَّ هذا الخيَّاط الكوردي علاقات مع الثوار الكرد في الجبال، وأنَّ شقيقهُ هو أحد القادة المهمين. أمرَ الزعيم بتوقيفه، والتحقيق معه. هذا التحقيق الرهيب سيدوم تسعة شهور، سيعترف خلالها أنَّ ابن شقيقة زوجته، واسمه شكري ملا حسن، هو أحد قادة الثوار. هذا الاعتراف جعلهم يساومونه، ويحاولون ترغيبه بالمال، ليلتحق بالثوَّار، ويكون عيناً للحكومة عليهم. وكان هو يرفض، لأنَّه لا يجيد، ولا يحب استخدام السلاح. وحكمت عليه محكمة الثورة بالسجن أربع سنوات. في ١٩٦٢/٤/٢٩ غادر (ميكائيل) سجن مديرية الشرطة، جلبوا إلى السجن أكثر من ثمانين ضابط شرطة، وآخرين من المراتب الأخرى، بتهمة التآمر، ورأى (ميكائيل) وجه النقيب الذي داهمَ بيته واعتقله. كانت فرحته كبيرة، لأنَّ هذا النقيب أشبعه ضرباً ورفساً، أمام زوجته وأبنائه، قبل أنْ يأخذه، وكان السجن يحتوي على متهمين بالتحريض على إضراب البنزين، الذي وقعَ بسبب قرار زيادة سعر لتر البنزين عشرة فلوس، منذ نهاية آذار ١٩٦١، ولم يتم تقديمهم إلى المحاكمة.

وافق الزعيم على عودة (رشيد عالي الكيلاني)، بعد سبعة عشرَ عاماً في المنفى، واستقبله استقباله الأبطال، وأعاد له ممتلكاته المصادرة، وزاره في بيتهِ مع وفدٍ كبير من الضباط، ولم يمضِ شهران حتى ألقيَ القبض عليه، مع مبدر الكيلاني، وعبدالرحيم الراوي، بتهمة التآمر على الثورة، صدرَ قرار محكمة الشعب في ١٩٥٨/١٢/١٠ ببراءة (رشيد)، وحكمت بالإعدام على (مبدر) و(عبدالرحيم)، هذا الحكم الذي أغضبَ الزعيم حدَّ الجنون، فأمرَ بإعادة المحاكمة،



وانتـزاع اعترافـات جديـدة مـن مبـدر وعبدالرحيم. وتفاجأ الشعب بموقف الدولة من (الكيلاني)، الذي كان قبل أسبوع قائد ثـورة ١٩٤١ التحررية ضـد الاستعمار البريطاني، ورجل السياسة الوقور الحكيم، إلى خادم الاستعمار البريطاني، ووجَّهت محكمة الشعب إلى (الكيلاني) تهمة عقد اجتماعات في دارهِ، مع نفر من أدعياء القومية المزيفة، الناقمين على النظام الحالي، يدعو إلى الوحدة الشاملة والفورية، مخالفاً الدستور المؤقت للجمهورية العراقية. وكذلك تهمة الاتصال مع مستشار سفارة الجمهورية المتحدة، بهدف إسقاط الوزارة الحالية، لتحقيق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، وكتبت الصحف البغدادية انتقادات شديدة لهذه المحاكمة، حيث لا يجيز القانون إحالة المتهم إلى المحاكمة مرة ثانية، بنفس التهمة، ونفس الوقائع، التي صدر بها قرار البراءة بحقِّ المتهم. وعينُ ما فعله الزعيم مع (الكيلاني)، فعله مع (ملا مصطفى البارزاني)، وآخرين.

وذات مرَّة، قال له مرافقه المُقَدَّم (قاسم الجنابي):

- سيدي، لو قمنا بتأسيس حزب، لكسبنا أكثر من ٨٠٪ من الشعب.

- ولماذا أخسر الـ ٢٠٪؟ أنا أبو الفقراء، أنا الأخ الأكبر لضباط الجيش، أنا أبو الشعب.

لم يكن الزعيم يعلم أنَّهُ قد خسرَ الشيوعيين، والقوميين، والكورد، والإسلاميين، من أئمَّة السنَّة والشيعة، ولم يعد بالإمكان إصلاح الضرر. فقد ذكرَ صادق الحسيني الشيرازي: من سيئات عهد قاسم، تشريع قانون الأحوال الشخصية، الذي يمنح المرأة حق الطلاق مثلما للرجل، والذي لا يسمح للرجل بأن يتزوج أكثر من واحدة، كذلك يساوي هذا القانون المرأة مع الرجل، في الإرث... فكانت الخطوة الأولى تشكيل وفد لزيارة عبد الكريم قاسم، لتقديم النصح إليه، وحثّه على ترك محاربته للإسلام. وقمت بدعوة السيد سعيد الزيني، وصهرنا السيد عبد الحسين القزويني، وسافرنا إلى بغداد،

والتقينا بعبد الكريم قاسم. وعاد الوفد بخفّي حنين، كبقية الوفود السابقة واللاحقة.

وذات مساء جلبَ له المهداوي رجلاً بهيأةٍ رثّة، وقال له:

– هذا هو مؤلّف أهزوجة: نوري سعيد القندرة، وصالح جبر قيطانها.

– مهداوي هذا ثالث واحد، تأتيني به، وتقول: هذا هو مؤلفها.

– سيدي أقسم لكَ، هذا هو المؤلف الحقيقي؟

– والآخران ماذا كانا؟ مزيفان؟ وإذا كانا مزيَّفين، فما هو المانع أنْ يكون هذا مزيَّفاً أيضاً. لا، لا، كفى، لقد اكتفيت من هذه الألاعيب.

ووقع فتور بين الزعيم وابن خالته المخلص: المهداوي، لم يتبدَّد إلا بعدما عرف الأخير كيف ينقل له هذه الحادثة الطريفة، التي أطربت الزعيم، فعادت المياه إلى مجاريها: أثناء محاكمة أحد المتهمين في ثورة الشوَّاف، ذكر أحد الجنود الشهود، العقيد (حسن عبود)، آمر حامية الموصل، ودوره في قمع التمرد، ووصفه بالرجل الحديدي، فاحمّر وجه العقيد (فاضل عباس المهداوي) رئيس محكمة الشعب، من شِدَّة الغضب، لكنَّهُ لم يقل شيئاً. وفي اليوم التالي، ذكر شاهدٌ آخر، العقيد (حسن عبود)، ووصفهُ أيضاً بالرجل الحديدي، فصرخَ المهداوي فيه: اسمع، لا يوجد رجل حديدي إلا الزعيم عبدالكريم. وضجَّت القاعة بالتصفيق والهتافات للزعيم الأوحد!

العقيد فاضل عباس المهداوي لم يستطع إتمام الدراسة الإعدادية في بغداد، فسافر إلى بيروت، وحصل على الشهادة خلال بضعة أسابيع، لكن وزارة المعارف لم تعترف بالشهادة، فاضطرت وزارة الدفاع منحه رتبة ملازم احتياط، ولانعدام كفاءته لم يشغل منصباً قيادياً، وكان آخر منصب له في العهد الملكي: آمر سرية حراسة، وكان آنذاك برتبة عقيد. أصدرَ الزعيم أمراً بنقلهِ إلى منصب آمر اللواء الأول في الفرقة المدرعة الرابعة، فرفض قائد الفرقة: العميد الركن (محي الدين عبدالحميد)، تنفيذ الأمر، استناداً إلى إضبارة المهداوي الشخصية، واقتنعَ الزعيم بعدم كفاءتهِ، وعدم توليه قيادة أيَّة وحدة فعالة، وفتشوا له عن منصب، فلم يجدوا غير المحكمة العسكرية العليا الخاصة، وصدر المرسوم الجمهوري رقم ١٨ في ١٩٥٨/٧/٢٠ بتعيين هيئة المحكمة العسكرية العليا الخاصة، وتعيين العقيد (عباس فاضل المهداوي) رئيساً لها. وكان لا ينطق بحكم إلا بعد الاختلاء مع الزعيم، الذي قال: احكم ناظم الطبقجلي ورفعت السري بالإعدام، وأنا أصدر عفواً عنهم بعد ذلك!

لم يكن المهداوي يعلم أنَّه سينال شهرة

عالمية، ليس بأقل من شهرة الزعيم نفسه، فولاة الأمر في مصر اختاروا اللواء فؤاد الدجوي لمحاكمة بعض خصوم عبدالناصر. قال أحد الصحفيين: اختاروا للمحكمة رجلاً هو مهداوي صغير! ولما اختيرت محكمة في السودان، لمحاكمة عصبة قامت بانقلاب فاشل، وقف أحد الانتهازيين أثناء نظر المحكمة للقضية، وأخذَ يلقي أبياتاً من الشعر يمدح النظام القائم، زجره رئيس المحكمة: نحن في محكمة، لا في سيرك المهداوي!

في مساء آخر، خطرَ ببال الزعيم أنَّ صورته في الصحافة العالمية باتت هشَّة، وهو يريد أنْ يتصدَّر الأخبار مرَّة أخرى، فاستدعى (سعيد الدوري)، سكرتيره الصحفي والإعلامي، ليشرح له تطورات أزمة (خليج الخنازير)، ثمَّ أمره بعقد مؤتمر صحفي، فاعتذر لتأخر الوقت، الذي لم ينتبه له الزعيم، واقترحَ أنْ يدلي الزعيم الأمين بتصريح عن الأزمة إلى وكالة الأنباء العراقية، وهي بدورها تقوم بتوزيع التصريح إلى وسائل الإعلام العراقية والعربية والأجنبية، فوافق الزعيم بعد لأيٍ. قام (الدوري) بالاتصال بـ(محسن حسين)، مدير قسم الأخبار الداخلية في وكالة الأنباء العراقية، وأمرهُ بالمثول فوراً، لمقابلة الزعيم قاسم، في مبنى وزارة الدفاع. كانت الساعة الثانية عشرةَ ليلاً. كاد هذا الاستدعاء أنْ يوقفَ قلب المسكين هلعاً، وزاده رعباً، أنَّهُ حين دخلَ تفاجأ بمدير الاستخبارات العسكرية، ومدير الأمن العام. ولم يطمئن حتى قال له (الدوري) إنَّ الزعيم الأمين يريد منحَ وسائل الإعلام تصريحاً حول قضية خليج الخنازير، في (كوبا)، وظلَّ الزعيم حتى الخامسة والنصف يعطي أقوالاً، ويعدِّلُ فيها، وحين انتهى من التصريح، أمضى أكثر من ساعة في حيرته: أيُّ الألقاب يناسب هذا التصريح: ابن الشعب البار، الزعيم الأمين، الزعيم الأوحد، رئيس الوزراء، أو الاكتفاء بالرتبة العسكرية فقط: العقيد الركن، وكثيرا ما كان يطلب رأي مدير الاستخبارات، أو مدير الأمن العام، فيجدهما نائمين، فيقول للدوري ومحسن:

- انظرا، لقد تركتُ العراق أمانة بيد هذين النائمين!

أما (محسن حسين)، فلم يتركه الزعيم ولا دقيقة واحدة، وحكى له طرائف، كان عليه أنْ يضحك كلما رأى أسنان الزعيم بارزة، لأنَّهُ سمعَ عن أحد زواره، رماه في السجن لعدة شهور، لأنَّه لم يضحك على طرفةٍ رواها الزعيم. وحكى الزعيم كيف أنَّه في سينما الخيام وقف يوبِّخ الجمهور، الذي كان يهتف:

- اعدم اعدمْ، جيش وشعب وياك اعدم،

فردَّ عليهم بعصبية واضحة:

- لماذا لا تطلبون بناء مدرسة أو مصنع؟
فالتزموا الصمت، كأنَّ على رؤوسهم الطير. ولم يخرج (محسن حسين) من غرفة الزعيم، في مبنى وزارة الدفاع، إلا بعد خمس ساعات ونصف، وقد نالَهُ من الإرهاق والتعب والنعاس ما لا يمكن لأحدٍ وصفه. وبعد هذه الحادثة، وحرصاً من الزعيم ألا يملَّ الوزراء والزوار، أو تأخذهم سُنَّةٌ من النوم، طلبَ الزعيم شراء تلفزيون، ليتمتع الوزراء بمشاهدته، وقت انتظارهِ في الصالة إلى ساعات متأخِّرة من الليل. وطلب شريط المقامات العراقية، التي سُجِّلت في مؤتمر الموسيقى الشرقية الأول في القاهرة ١٩٣٢. وكان أثناء انعقاد الجلسة أحياناً يأمر بالصمت، رافعاً يده بحركة متشنِّجة، ليستمعوا إلى تسجيلات المقام العراقي، وغالباً ما كان الوزراء تأخذهم سِنَّة من النوم!

كان الزعيم معجبا بـ(فخري البارودي)، وطالما ردَّد دعوته للمسيو (مورغان)، المدَّعي العام الفرنسي، إلى المبارزة، ويحتفظ بنسخة من (جريدة القبس)، التي كان يصدرها (نجيب الريس)، التي نشرت مقولة (مورغان) بالنص: إن السوريين أنذال يختبئون في دورهم، ويرسلون نساءهم للمظاهرات في الشوارع. وكان لا يملُّ من إعادة هذه الحكاية. ووقفَ في قاعة السينما للمرة الرابعة، بعدما أعاد هذه الحكاية، وقال: اكتبوا لسفيرنا في مصر، أنا أيضاً أدعو جمال عبدالناصر إلى مبارزة بالمسدس، أو بالسلاح الذي يختاره.

لم يجرؤ (هاشم جواد) أنْ يسأل عن جديَّة هذا الاقتراح، ولم يجرؤ أحدٌ على تكرار هذه الحكاية، التي ذهبت أدراج الرياح كحكايات أخرى كثيرة.

في قاعة السينما، وقفَ الزعيم وقفة مسرحيَّة للمرة الخامسة، وسط الغرفة، وقال كلمات طالما رددها في خِطاباتهِ كافة، كانت لازمة يحفظها الزعيم منذ صغرهِ:

على الصغير أنْ يحترم الكبير، وأنْ يخصَّ الكبير الصغير بالمودة، وبهذا نؤلف فيما بيننا وحدة متينة تعمل من أجل هدفٍ واحد.

هذه الكلمات، حين سمعها لأول مرَّة البروفيسور (أوريل دان)، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة تل أبيب، سيقفُ أمامها باحترامٍ تسعين مرة، الأولى تعيده إلى طفولته في برلين، حيث وُلد وسمعَ هذه الكلمات لأول مرة من والدهِ. والمرَّة الثانية حين اضطرَّ إلى مغادرة برلين، خوفاً من هتلر، والثالثة حين عمل في الجيش البريطاني، والخامسة عشرَ حينَ انضم الى سلاح الاستخبارات الإسرائيلي، والخمسين حينَ أكمل درجة البكالوريوس في التاريخ الحديث، من جامعة لندن. وسيظلُّ يتذكرها

إلى الســاعة الأخــيرة في ١٩/١٠/١٩٩١

ويقول لأبنائهِ، احفظوا الوصيَّة:

على الصغير أنْ يحترم الكبير، وأنْ يخصَّ الكبير الصغير بالمودة، وبهذا نؤلف فيما بيننا وحدة متينة تعمل من أجل هدفٍ واحد.

ويلتفت لأبنائهِ: لا تسخروا من بساطة الكلمات، بفضل هذه الكلمات تحققت كلُّ أحلامي الكبيرة.

وهذه الكلمات تُعاد في احتفالية ذكرى رحيل البروفيسور السنوية، التي تقيمها (جامعة تل أبيب).

وهنا في السينما ردَّ مدير الاستخبارات:

- والله سيدي لقد فعلتَ ما يفعله العالَم كله! لم يبقَ أمامكَ غير الشمال.

- نزهة صغيرة في الشمال وينتهي كلُّ شيء، كيف الأوضاع هناك؟

- كلُّ شيء هادئ في الجبهة الشمالية، سيدي.

- قد حانَ الوقت، يجب أنْ نفعلَ شيئاً الآن!

لم تكن نظرة الزعيم تختلف عن نظرة صديق (عبدالسلام عارف) إلى الحرب، باعتبارها فرصة أو لعبة، فقد ذكر الصحفي (عبدالعزيز بركات) أنَّهُ سأل الرئيس (عبدالسلام عارف): إلى متى تستمر الحرب بين الحكومة العراقية والأكراد؟ فأجاب (عارف): وما يهمنا من الحرب، عبدالزهرة وكاكا يتقاتلان.

في تلك اللحظة، كانَ سدنة الحرب العجائز يتبسمون لشبح الحرب، الذي بات قريباً، ولا يراه سواهم!

وقبل ذلك بفترة قصيرة، لم يتفق عليها المؤرخون، صدر المقال الذي أوغلَ صدر (عبدالكريم قاسم)، كتبه (إبراهيم أحمد)، سكرتير الحزب الديمقراطي الكوردستاني، في جريدة خبات، عدد ١٩/١١/١٩٦٠، بعنوان "الأمة الكردية والمادة الثانية من الدستور"، فغضب (قاسم) وقال:

- مَنْ كتب هذا الكلام الفارغ في الدستور؟

- اللجنة، سيدي.

- فليحضروا أمامي حالاً.

- ليس هنا إلا (حسين)، وهو الذي كان رئيساً للجنة.

- أينَ هو؟ ليدخل فوراً.

دخل (حسين جميل) خائفاً بالكاد يبلع ريقهُ، وقبل أنْ يقول له اجلس:

- ما هذا الذي كتبته في الدستور؟

- سيدي، أنتَ أمرتني بالانتهاء من كتابة الدستور في يومين اثنين فقط، وكافأتنا لإتمامنا المهمة في المدة، وكتبتَ لنا بخطِّك الجميل نقطتين غير قابلتين للنقاش: العراق جزء من الأمة العربية. العرب والكورد شركاء في هذا الوطن.

– أنا كتبت هذا؟

– نعم سيدي، والورقة لا زالت محفوظة عندي.

– حسناً اجلس، في المرَّة المقبلة اجلب الورقة معك لأراها.

كانت المقالة تشير إلى أنَّ المادة الثالثة من الدستور، التي تنص على أنَّ العرب والكورد شركاء في هذا الوطن، والمادة الثانية تنص على أن العراق جزء من الأمة العربية، العراق العربي جزء من الأمة العربية، أما الشعب الكوردي فهو جزء من الأمة الكوردية. فأحيل إلى المحكمة بتهمة تفرقة صفوف الشعب، والتي حكمت ببراءته.

هنا كتبتُ سؤالين:

هل من المعقول أنَّ قاسم انقلبَ على الكورد بسبب مقال؟ هل من المعقول أنَّ قاسم انقلبَ على الشيوعيين بسبب مذابح الموصل وكركوك؟

واستمرَّت الحرب تأكل من تأكله، وتذر البقية جرحى الأجساد أو النفوس. يوم الخميس ١٩٧٥/٣/٦ وقّعَ شاه إيران مع نائب الرئيس صدام حسين ما يُعرف باتفاقية الجزائر، يوم الخميس ١٩٧٥/٣/١٣ استقبل الشاه ملا مصطفى في قصره في طهران، وقال له:

– المسلحون الكورد أمام خيارين، لا ثالث لهما: نزع السلاح، والرجوع إلى العراق دون قيد أو شرط. أو البقاء في إيران بصفة لاجئين، والانصهار في المجتمع الإيراني.

كان لكلام الشاه وقع كالصاعقة، قال (ملا مصطفى) في نفسهِ:

– لو كان الانصهار بهذه السهولة، كنَّا انصهرنا مع العرب في العراق!

تلبدت سماء كوردستان بغيوم الهزيمة، وتولدت الشكوك، وتناثرت أشواك اليأس، وانهارت المعنويات وسقطت البنادق، وضاعت الآمال الكبيرة. سمعتُ بأنَّ البعض قتلوا أنفسهم، وأنَّ البعض قاموا برمي بنادقهم من أعلى الجبل، فالذين التحقوا بالثورة تركوا مواردهم المالية وبيوتهم وحقولهم ومراكزهم الاجتماعية، كان كطعم الموت، عليهم الآن أنْ يعودوا مُنَكِّسي الرؤوس، مشمولين بعفو الثورة، التي بالتأكيد لن يكون عفوها كاملاً.

فتحَ (نيوار) عينيه، وهو في قوافل السائرين إلى الحدود الإيرانية: تلال (قادر كرم) الجرداء، ثم (جمجمال)، ثم (السليمانية)، ثم (بنجوين)، ثم عبرنا إلى مدينة (مريوان) الإيرانية. استغرقت الرحلة عشرة أيَّام، وهناك قافلة أخرى دخلت مدينة (آشنوية) الإيرانية" هنا حيث تمَّ اغتيال (سمكو شكّاك)، عام ١٩٣٠، وبعد التحقيقات نقلتنا باصات إيرانية إلى



(كرمنشاه)، ومن هناك إلى (مهاباد)، كان معنا بعض النقود، فلم نذهب إلى معسكرات اللاجئين حتى نفدت. قمنا ببيع حاجياتنا: راديو، ساعة يدوية، قال لنا صاحب الفندق:

– أنتم مجانين إذا فكرتم في البقاء هنا. في العراق أسوأ شيء يحدث لكم: أنْ تقولوا نحن عراقيين، ندمنا على أفعالنا، وعدنا، فتعيشون معهم كعراقيين. الأكراد هنا في إيران، لا يُعاملون كما في العراق، ستظلون تحت المراقبة والملاحقة، إلى أنْ يأتي يومٌ يتمُّ فيه اغتيالكم، فأنتم قد فتحتم أعينكم، والشعب الكوردي هنا في إيران أعمى مغلق العينين، والحكومة الإيرانية تخاف عليهم منكم، وستعمل على تصفيتكم الواحد تلو الآخر.

علمنا أنَّ (ملا مصطفى) في رحلة علاج إلى أمريكا، وحين عاد ذهبنا لرؤيته، فقال لنا ما قاله للجميع:

– مصيرنا مجهول، مصير شخص موقوف في سجن الحكومة، ينتظر لحظة صدور الحكم. مَنْ كان منكم يأتمن حياته، فليعد إلى العراق، ومَنْ كان يريد البقاء معنا، فلن نحرم كسرة خبز.

ثم جاءت التعليمات: أنَّ إيران ستمنح الجنسية الإيرانية بعد ثلاث سنوات لمن يرغب في البقاء، وباب اللجوء إلى دول أوربا مفتوحٌ على مصراعيه. هكذا بجرَّة قلم انتهت أربعةَ عشرَ سنة من الحرب. كانا، هو وشكري، يعملان كحمَّالين في السوق، وفي الليل –قبل أنْ يناما– يُغنِّي شكري كلمات عشوائية، اخترعها للتعبير عن حزنهِ:

يا كوردستان يا أمَّ الفقير، نحن نضرع لله كل ليلة للعودة إليك، طلعَ عليكِ الصباحُ، وأرضكِ مملوءةٌ بالمعتدينَ الغرباء، يا كوردستان يا أمَّ الخيرات...

أجمل ما في أغانيه، أنَّها لم تكن جميلة، بل من أقبح ما سمعت في حياتي، لا كلمات لا

لحن لا صوت، رغم ذلك فقد كانت شجيَّة في تلك اللحظات، كجائع يرى كل الأطعمة لذيذة!

ذات يوم، وهما جالسان في مصطب الحمالين، وسط السوق، اشتريا ورقة صغيرة، فيها قرار العفو المرقم ٦٦٦ بعنوان: إعفاء المحكومين الأكراد من كافة العقوبات. ولا زلت أحتفظ بهذه الورقة في محفظة نقودي، مع بطاقة الهوية ونقودي. سأخرجها الآن لأتأكّد:

القرار منشور في جريدة الوقائع العراقية، العدد: ٢٤٧٩، والصادر بتاريخ ١٩٧٥/٧/٧:

المادة ١: إعفاء المحكومين من الأكراد، العسكريين والمدنيين، من كافة العقوبات الأصلية، والتبعية، التي صدرت بحقهم من المحاكم الخاصة، ومن محكمة الثورة، عن الجرائم التي ارتكبوها بسبب حوادث الشمال، وإطلاق سراحهم حالا، ما لم يكونوا مسجونين، أو موقوفين عن قضايا أخرى، لا صلة لها بحوادث الشمال.

وفي (إيران)، قبل أنْ يعود، وصلت الأنباء بوفاة الراعي الصالح (خه مخور)، ووفاة شقيق ديار (دلير)، وجدَّتهِ قبلهما، و(جافشين) قد تزوجت، وأنجبت دستة أطفال، وابنه (غازي) قد تزوج ابنة خالته..

قرر (نيوار) أنْ يعود، وكانوا يسمونهم (عائدون). صباح يوم الخميس، الثاني من تشرين الأول ١٩٧٥، عاد (نيوار). كانت شمس الخريف رائعة، وصلَ إلى مدينة (عقرة)، بعدما بات ليلتهُ في بيت شقيقته في حي الفاروق، قرب الجسر الخامس، في الجانب الأيمن من مدينة الموصل. حالما تأكّد أنَّه في مدينة (عقرة)، شَعَرَ بوخزة تأنيب ضمير، فلقد تأخَّر كثيراً! هناك أشخاصٌ يصلون مكان ما، فيتغير كلُّ شيء بوصولهم، وإنْ كان ظهورهم يتأخَّر قليلاً، وهناك آخرون انكسرت بأيديهم زجاجة السعادة، تكاد ترى التعاسة في عيونهم، لكنَّ أحداً لا يرى شيئاً. في (عقرة) جميعُ أهلها يُعانونَ الخوف والفقر والتعاسَة، كجميع مدن وقرى المنطقة، تنتشر فيها قرحة الخوف، وانعدام الثقة، حيث كلُّ الأعمال صعبة، أو مستحيلة، لا لشيء إلا لأنَّهم لا يجرؤون على البدء بها، فتتحوَّل هذه الأعمال إلى كوابيس، وأشياء أخرى، لم يكن (دلير) يعرفها، لأنَّه كان غير مهتم سوى بالعودة إلى قريته. كان قد خطّط لزيارة كلِّ الأقرباء والمعارف، لم تكن خطة بقدر ما كانت حُلُماً، ولم يكن يعرف أنَّ كلَّ أحلامهِ وخططه، سوف تتبدَّد بسهولة، كفقاعة صابون، رغمَ أنَّه شعرَ بضيقٍ في صدرهِ، كان يزداد يوماً بعد يوم، ويمنعه الوصول إلى القرار الصائب في اللحظة المناسبة❒

الجنرال عبدالله مينو.. رؤية مغايرة

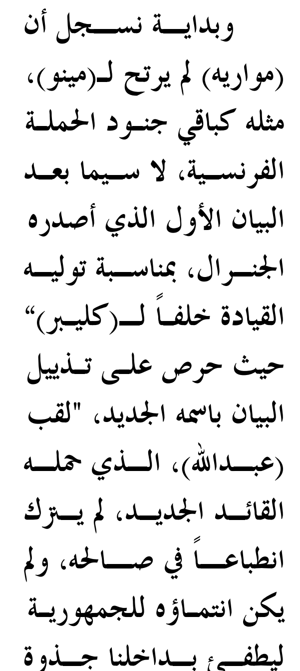
محمد عبد العزيز منير
كاتب مصري

✍ لا جدال في أنه جاء غازياً، وانسحب بعد هزيمة الحملة الفرنسية عسكرياً، وليس الهدف من هذا المقال تمجيد المحتل أو تبرير أفعاله" فمقاومة المحتل حق مقدس، وواجب ملزم، والهدف هنا هو الوقوف على جوانب شخصية (الجنرال مينو) (١٧٥٠-١٨١٠)، ومقارنتها بالصورة الذهنية المنطبعة لدينا.

ما سبق كان مقدمة لازمة قبل تناول شخصية الجنرال (عبدالله مينو)، ثالث قواد الحملة الفرنسية على (مصر)، الذي إن سألت أحداً في منطقتنا العربية عنه، سيجيبك بأنه ذلك الجنرال متواضع المستوى، محدود الكفاءة، الذى تظاهر باعتناق الإسلام، تقرباً للمصريين، وحتى يتمكن من الزواج من (زبيدة)، فاتنة (رشيد)، تلك العذراء التي تهافت عليها شباب (رشيد)، وفاز بها الجنرال (مينو).

وبالطبع ستدهش إذا علمت أن (زبيدة بنت محمد البواب) سبق لها الزواج من (سليم أغا نعمة الله)، وطلقت منه، حسبما ورد بوثيقة زواجها من (مينو)، المحفوظة بـ(محكمة رشيد الشرعية)، وستزداد دهشة إذا علمت أن (مينو)، بعد عودته لـ(فرنسا)، تقلد العديد من المناصب الرفيعة، التي لا يتقلدها عادة سوى من تتوافر فيهم صفات القيادة والحزم (حاكماً عاماً لتوسكاني، وفينيسيا). وإذا أكملت - عزيزي القارئ - هذه السطور إلى نهايتها، فقد تعيد النظر في ما وصل إلينا عن (مينو)، وتدرك أنه قد لا يمت للحقيقة بصلة، أو - على أقل تقدير - ليس هو كل الحقيقة.

فهناك رؤية مختلفة، تناولها الضابط (جوزيف مواريه) في مذكراته عن الحملة، والتي كانت معدة للنشر عام ١٨١٨، وتأجلت لأسباب غير معروفة، ونشرت للمرة الأولى في (باريس) عام ١٩٨٤، وأصدرها (المركز القومي للترجمة) بالعربية.



وبداية نسجل أن (مواريه) لم يرتح لـ(مينو)، مثله كباقي جنود الحملة الفرنسية، لا سيما بعد البيان الأول الذي أصدره الجنرال، بمناسبة توليه القيادة خلفاً لـ(كليبر)" حيث حرص على تذييل البيان باسمه الجديد، "لقب (عبدالله)، الذي حمله القائد الجديد، لم يترك انطباعاً في صالحه، ولم يكن انتماؤه للجمهورية ليطفئ بداخلنا جذوة



أفكارنا الدينية، التي نهلنا تعاليمها من تربيتنا الأولى، وعاداتنا القومية. فهذا الرجل المرتد عن دينه، الذي تخلى عن بلاده، ليدخل في شريعة محمد، ويرتدي العمامة، هل هو كفء لقيادتنا؟".

والتساؤل السابق يبرئ صاحب المذكرات من تهمة الإنحياز لـ(مينو)، ويطرح شكوكاً عديدة ساورت جنود الحملة بشأن صلاحية (مينو) لقيادتها، بعد اعتناقه الإسلام.

ويمكن لنا تحليل البلاغات الرسمية، الصادرة من مركز القيادة باسم (مينو)، والموجهة لجنود الحملة في (مصر)، وأهمية هذه البلاغات تكمن في أن المؤرخين عادة ما يشككون فى مصداقية البلاغات الموجهة إلى المصريين، باعتبارها محاولة من المحتل لاستمالة أهل البلاد، بينما تعبر البلاغات الصادرة من القيادة إلى الجنود، عن المنهج الفعلي للجنرال (مينو).

هل كان (مينو) إنهزامياً؟!

"لقد قلت إن الجميع، نعم الجميع، ممن لا يرضيهم إلا سماع صوت الشرف، والارتباط بالجمهورية، والصالح القومي، سيشعرون أنه ليس من سبيل آخر، ولا أية طرق شرعية ومشرفة، لإبرام أية معاهدة مع الأعداء، سوى هذه الطريقة {يقصد معاهدة



مشرفة}، ولو أنني رجحت كفة مصالحي الشخصية، وغفلت للحظة عن كوني جمهورياً، أو استطعت إيثار ما هو شخصي على الازدهار العام، لما ترددت مثلكم – ولو للحظة – في الرغبة للعودة إلى بلادنا. ولكن لا أيها الجمهوريون ، لا أنا ولا أنتم فكرنا على هذا النحو، لأن مصلحة الجمهورية هي وحدها التي تقودنا، وإن استدعى الأمر فسوف نحارب ونكسب".

أما عن الصفات القيادية لـ(مينو)، فيقول (مواريه): "على الرغم من تحفظاتنا فى البداية على الجنرال مينو، بسبب تغييره اسمه، وحبه لمصر، إلا أننا لم نلبث أن اكتشفنا خصاله، وأعجبنا بها، وبعقليته المنظمة، وحبه للعسكريين، ومعرفته الواسعة بشؤون الإدارة، وأخلاقه الكريمة.. حاول أن يقودنا بلغة الإقناع، وليس بلغة الأوامر التي تتسم بالقوة والحدة، ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن حازماً، حينما كانت الظروف تقتضي هذا..".

"لقد دأب على تقديم أية مساعدة، تقع في نطاق مسؤولياته، لأقل جندي.. لقد كان واضحاً تماماً من أسلوب تعامله الراقي، أنه تلقى تربية ممتازة.. لقد أحاط نفسه بكل من يبدون له النصيحة والمشورة، وينيرون له الطريق، ليتمكن من الاضطلاع بمهمة الإدارة على أحسن ما يكون.. لقد استطاع أن يخرس بحزمه كافة الألسنة التي أرادت الوقيعة، ولم

يتورع عن الإعلان عن أية انحرافات".

هل كان مينو يخدع المصريين بإسلامه؟

هنا نورد تلك الفقرة التي تعد وثيقة مرجعية عن كيفية معاملة من وقعوا تحت الاحتلال، إذ يخاطب مينو جنوده: "إنني مستاء من العديد منكم، فقد تعالت الأصوات تكشف عن مظالم خطيرة.. إذ يسمح الجنود لأنفسهم بمعاملة السكان بغلظة وفظاظة.. ما هذا؟! كيف تكونون جمهوريين ولا تعرفون معنى الكرم؟ أيها الجنود! فلتتعلموا كيف تكونون كرماء مع المصريين.. تعلموا احترام الشيبة، تعلموا احترام النساء، تعلموا العدل. أي مجد ستكسبونه بالإساءة لرجل يرتعد أمامكم، أو حين تخطفون أو تهينون امرأته! فلتعاملوه مثلما تريدون أن يعاملكم، إذا تبادلتم المواقع.. لقد بلغتني شكاوى عن تجاوزات اقترفت في الحمامات العامة، فهناك من يريدون اقتياد نساء للاستحمام معهم، إن هذا الجرم يعاقب عليه القانون في جميع البلدان المتحضرة، فهو مدمر للعادات والتقاليد العامة. إنني آمر جميع الجنرالات والقادة العسكريين أن يردعوا ويعاقبوا بشدة جميع الجرائم التي أوردتها أعلاه".

أما عن حنكته الإدارية، فيقول (مواريه): "دفع لنا الجنرال مينو كل مستحقاتنا المتأخرة، وأعاد رواتبنا، وكفلها لنا مستقبلاً. وقد استطاع الوصول لهذا الحل السعيد بحكمته الإدارية، وبوسائل تهدف كلها لرفاهية الجيش، دون الإضرار بمصالح السكان، ولا إرهاقهم".

أما عن الهزيمة العسكرية، التي حاقت بالفرنسيين على يد الإنجليز، فيقول (مواريه): "اتخذت الخلافات القائمة بين القائد العام والعديد من المنشقين، منعطفاً خطيراً، فيه ضرر على أمن وسلامة الجيش.. وقرر الجنرال وضع حد، بموجب سلطاته، ففي الليل قام بغتة باعتقال الجنرال (رينيه) و(دوما).. وأرسلهم بحراً إلى فرنسا". ويوضح الجنرال في بيانه للقوات، السبب في اتخاذه هذا القرار، الذي أرجعه إلى "استسلام القوات التي كانت تحت إمرة القائدين، دون مقاومة، ودون أن يشن عليها هجوم منتظم".

هذه وجهة نظر أخرى عن شخصية (عبدالله مينو)، ربما يكون فيها شيء من الحقيقة، ولكنها تبين أننا لا نملك الحقيقة كلها، ولعل الوقت قد حان لإعادة النظر في مناهج التعليم في بلادنا، فبدلاً من الاعتماد على مناهج الحفظ والاستظهار وإصدار الأحكام القطعية، سيكون من الأنفع الاعتماد على طرق تعين المتلقي على طرح الأسئلة، ولو من باب الإحكام□

مقالات

الكورد والأمن الإقليمي

زيرفان البرواري

إن مهمة حماية الأمن والسلم الدوليين مناط بالأمم المتحدة، التي بدورها نظمت العلاقات الدولية على أساس التوازن والمصالح المشتركة بين الدول المستقلة، بهدف منع النزاعات والحروب بين الشعوب. ولكن نظرا للتسابق والتنافس على الموارد والنفوذ السياسي والاقتصادي، فقد أخفقت (الأمم المتحدة) في تحقيق أهدافها، في ظل الحرب الباردة بين القطبين: السوفيتي السابق، والولايات المتحدة الأمريكية.

وفي ظل العولمة، والتسارع في التكنولوجيا الرقمية، وفي غضون انهيار الاتحاد السوفيتي، تغير وجه العالم: من عالم الثنائية القطبية، إلى عالم متعدد في أقطابه، ومتنوع في أزماته، وتعقيداتها الإقليمية والدولية.

إن دراسة الأمن الإقليمي في بداية تسعينيات القرن الماضي، وبداية الألفية الثالثة، تظهر حقائق ومعطيات جديدة في السياسة الدولية، وذلك بسبب تغير الأرقام التي تتحكم بالمعادلات السياسية.

فالدولة لم تعد العنصر الوحيد في إدارة السياسة الدولية، حيث ظهر لاعبون جدد، سوى الدول، غيروا من الحقائق والنظام الدولي، من خلال المساهمة في تغيير السياسات الدولية، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ومن بين تلك العناصر: المنظمات العسكرية الإرهابية،



بها، رغم عدم امتلاكهم لكيان سياسي مستقل، في تسلسل الدول المستقلة، ضمن منظومة الأمم المتحدة.

إن ظهور (داعش)، أيا كان مصدرها، والقوى الخفية التي تقف خلف ظهورها، مثل تهديدا واضحا على الأمن الإقليمي في الشرق الأوسط، حتى وصل الأمر إلى محاولة دول إقليمية كبيرة تجنب التصادم معها، و(تركيا) مثال بارز في ذلك. إن المخططات الإقليمية، والأجندة الخفية، حولت (داعش) من منظمة قائمة على تجارة الحرب، في المعادلة السورية، إلى عنصر وورقة عسكرية وأمنية، في المعادلة العراقية، بعد إعلان الخلافة المزعومة في (نينوى)، مما أفرز تعقيدات جديدة على الأزمة العراقية، في ظل غياب القيادة السياسية الواقعية، وكذلك الاحتكار السلطوي لحكومة المالكي، وأجندتها غير الوطنية .

إن ظهور (داعش)، وتمددها في (نينوى)، شكل تهديدا أمنيا مباشرا على الأمن القومي الكوردي، وذلك التي استخدمت من قبل المخابرات الدولية في تصدير الأزمات، وصناعة التأثير، خارج حدود دولهم. وكذلك المنظمات الأهلية، التي تحولت هي الأخرى إلى وسائل في تصدير التأثير، وتنفيذ مخططات القوة المرنة للقوى العظمى، خاصة مخططات ومشاريع السياسة الخارجية الأمريكية، في ظل إدارة الحزب الديمقراطي للبيت الأبيض.

والعنصر الأخير، يتمثل في ظهور قوى منظمة، في الدول التي تتجه نحو الدول الفاشلة، والتي حملت على عاتقها مهمة الدول التقليدية في حماية الأمن الإقليمي، ومواجهة التهديدات المتزايدة من قبل الجماعات الإرهابية، وهذا الدور يمكن القياس عليه في حالات عديدة بعد الربيع العربي، وأخص بالذكر في هذا المضمار: الكورد، باعتبارهم القوة التي لا يستهان

للاحتكاك الجيوسياسي مع الإقليم، وكذلك التوجه الأيديولوجي المعادي تجاه الإقليم، في داخل القيادات التي تحكمت بالقوة العسكرية لـ(داعش)، ويكمن التوجه الأيديولوجي في التعبئة الفكرية ضد الكورد من خلال ربطهم بالمشاريع الأمريكية والإسرائيلية في المنطقة. إن الواقع السياسي والاقتصادي في الإقليم لم يكن ملائما لمواجهة خطر أمني بمستوى (داعش)، ولم تكن لدى القيادة الكوردية استراتيجية الحماية الضرورية على الحدود التي تفصل بين الموصل والمناطق المتنازع عليها بين الكورد والعرب السنة، الأمر الذي أدى إلى الانسحاب أمام هجمات (داعش)، وأسلحتهم النوعية .

إن التصدي الكوردي لخطر (داعش)، حول أنظار العالم باتجاه إقليم كوردستان، وأدرك اللاعبون الدوليون أن الحرب على الإرهاب، وحماية المنظومة الأمنية في البعد الإقليمي، لا يمكن أن يتحقق من دون مساندة للجهود السياسية والعسكرية لإقليم كوردستان. وبذلك تحول الإقليم، والكورد، من ورقة سياسية في أروقة صناع السياسات العالمية، إلى شركاء في حماية الأمن الإقليمي، وهذا يظهر بأن الإقليم سوف يتحول، في المرحلة القادمة، إلى محطة مهمة في محاربة الإرهاب العالمي، ولكن في ظل التهميش، وربط الرقم الكوردي بالأزمات الداخلية للعراق، قد يتعرقل ويضعف هذا الجهد. ولكن الأحداث الدولية تتجه نحو دعم الكورد بالمزيد من المواقف السياسية، والدعم العسكري، وذلك لوجود المصالح المشتركة في الوقت الراهن بين الكورد والمجتمع الدولي، وهذا ما يضمن تحرير الكورد من كونهم أوراقا سياسية، إلى شركاء بارزين في السياسة الدولية، الأمر الذي يتطلب مزيدا من الجهود من الإدارة الكوردية نحو إعطاء الصفة الدولية في مواجهة (داعش)، وذلك عن طريق التأثير في الرأي العام العالمي، بتفعيل الإعلام الكوردي خلال مخاطبتها للرأي العام العالمي، وتفعيل بحوث علمية في هذا المجال، على مستوى الدول الفاعلة في السياسة الدولية، وكذلك صياغة رسالة كوردية مشتركة تعبر عن المصلحة الكوردية في البعد الخارجي❑

أنا هو أنا.. مسلم كوردي كوردستاني..
لست شارلي ايبدو..
ولا داعش..



أحمد الزاويتي

الذين هاجموا هيئة تحرير جريدة (شارلي ايبدو) في (باريس)، وقتلوا اثني عشر شخصاً، ارتكبوا جريمة، وعلينا – نحن المسلمين – أن ندين العملية قبل غيرنا، لا من منطلق المجاملة، بل من منطلق أن الإسلام نفسه يدين ذلك.

(فرنسا)، دولة عرفت عنها علمانيتها، وديمقراطيتها، وحريتها، وتميزت بالتعايش بين مكوناتها وأديانها وثقافاتها، وقد استفاد من هذه الأجواء المسلمون قبل غيرهم. فالإسلام هو من بين أهم الأديان في (فرنسا) حالياً، وهو ديننا الذي نفخر بانتمائنا إليه، وأحد أهم أعمدة العقيدة فيه، هو أن (لا إكراه في الدين)، وأن الحوار وتبادل الآراء هو سبيل الوصول إلى القناعات المختلفة. ولهذا عاش المسيحيون، وغيرهم من الطوائف والنحل، على أرض الإسلام، منذ مئات السنين، معززين فكرة أن الأساس في الإسلام هو القناعة لا الإكراه، ومن ثم التعايش بين الجميع.

ما يقوم به البعض باسم الإسلام، من قتل الآخرين، كما حدث مع (شارلي ايبدو)، ليس من الإسلام في شيء، بل هو يصيب الإسلام قبل غيره، مثلما أصاب الإرهاب، المستشري حالياً في العالم الإسلامي، المسلمين في ديارهم أكثر من غيرهم! إن أبسط إحصائية ستشير إلى أن المسلمين في أوطانهم، هم الضحية الأولى لهذا الإرهاب.

يؤلمنا أن تصبح فرنسا الحرية والديمقراطية هدفاً لإرهابٍ باسم الإسلام، وهذا ما وقع في يوم الأربعاء ٢٠١٥/١/٧! نعم فرنسا، وقيمها، هي التي أصبحت هدفاً، وليس جريدة (شارلي ايبدو)، التي نختلف نحن – كمسلمين – معها في توجهاتها، وخاصة في قضية التعرض لقضايا مقدسة في الإسلام، كالسخرية من نبينا (محمد) صلى الله عليه وسلم، فهذا ما لا يُقبل به إسلامياً، لكن أيضاً لا يمكن مواجهة ذلك بالقتل والإرهاب. ففي



الإسلام تتم مواجهة الأفكار بالأفكار، والقناعات بالقناعات، والحجة بالحجة، وليس بالقوة، أو بالقتل والإرهاب.

ما نراه بأعيننا في سوريا والعراق، وما وصل إليه الأمر، نتيجة إرهاب مستشر، هو أن الإرهابيين يقتلون، ثم يبحثون عن مبررات لقتلهم، ويتكلفون في ذلك، باحثين عن نصوص ليفسروها في غير محلها الحقيقي، حتى إذا لم يجدوا نصوصاً، استندوا إلى اجتهادات لا تعتمد أي دليل من الكتاب والسنة! ومثل هذه العمليات الإرهابية لا تستهدف أحداً بعينه، بل تستهدف الجميع، إلا أن دولاً – كفرنسا – بإمكانها الوقوف بوجه مثل هذا التهديد، وهي تعرف كيف تتصرف مع المهددين لأمنها وحريتها وديمقراطيتها.

لست (شارلي ايبدو)، بل أدينها، لسخريتها بمقدساتنا وبنبينا، وأرد عليها بما هو أحسن، من منطلق الآية الكريمة: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)، واقتداء بالوصية الإلهية لأحد الأنبياء الكرام، عندما ابتعثه الله إلى أحد الطغاة: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)، والتزاما بالإرشاد الإلهي في كيفية التعامل مع من يسخر من دين الله، عندما وجهنا بأننا إذا ما صادفنا مجالس يستهزأ فيها بالله، فليس أمامنا إلا تركها: (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا، فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ، إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً). ونعرف كيف أن المنافقين في المدينة كانوا يستهزؤون بالإسلام كدين، وبالرسول نفسه (صلى الله عليه وسلم)، إلا أن تصرف الرسول تجاههم كان واضحاً، عبر عنه القرآن الكريم بقوله: (ومنهم الذين يؤذون النبي، ويقولون هو أذن، قل أذن خير لكم، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم).

لست (شارلي ايبدو)، لكنني أتعاطف مع فرنسا والفرنسيين في مصابهم، من منطلق إسلامي، باعتبار أن الإسلام لا يقبل بذلك. ومن ثم أتعاطف معهم من منطلق أنني كوردي، لأن فرنسا هي التي تعاطفت مع شعبي في محن ومآس مرت علينا. فلا نزال نتذكر موقفها في الهجرة المليونية، عندما هربنا كشعب من إرهاب دولة ونظام، عام ١٩٩١، ولم يكن بين أيدينا ما ندافع به عن أنفسنا، حينها كان يموت المئات من أطفالنا ونسائنا ومرضانا في الجبال، على الحدود بين العراق من جهة، وتركيا وإيران من جهة أخرى، ناهيك عن أننا فقدنا عشرات الآلاف من خيرة شبابنا ورجالنا، بعد أن قتلتهم آلة الحرب لنظام إرهابي، لم يكن يعطي للحرية، ولا للديمقراطية، ولا أي حق من حقوق الإنسان، قيمة تذكر. لهذا فأنا ككوردي أعرف حق المعرفة، قبل أي إنسان آخر في هذه الدنيا، ماذا يعني الإرهاب، وماذا يستهدف، ولماذا يجب أن نقف جميعا ضده؟

(دانيال ميتران) زوجة الرئيس الفرنسي السابق (فرانسوا ميتران)، عرفت بـ(صديقة الشعب الكوردي)، لأنها هي التي طارت حينها إلى الهاربين من الإرهاب، وعاشت معهم محنتهم، وحركت التعاطف الفرنسي والعالمي تجاهنا، وكانت هي جزءاً من حركة، شكلت – لأول مرة – موقفاً دولياً مشتركاً متعاطفاً معنا، ليكون بعد ذلك القرار رقم ٦٨٨، والصادر عن (مجلس الأمن)، يوم الخامس من أبريل/نيسان ١٩٩١ م، وتشكلت بموجبه (المنطقة الآمنة) في شمال العراق، لتكون بداية تشكيل كياننا السياسي، الذي تطور إلى ما يسمى حاليا بـ(إقليم كوردستان العراق).

ومنذ عام ٢٠٠٣ أصبح إقليمنا مأمناً للهاربين من الإرهاب، من مسيحيين ويزيديين وشبك وكاكائيين، بل ومن مسلمين عرب سنّة، طالما وقفوا ضد مطالبنا ككورد في العراق! هذا الإقليم الذي تحول لنواة كيان سياسي على وشك التشكل، يختلف كثيراً عما حوله من تجارب حكم، ويحاول أن يكون تجربة تقتدي بدول كفرنسا، لا بنظام من أنظمة حكم قمعية، حولت المنطقة إلى بيئة ينمو فيها الإرهاب، سواء باسم الدين، أو الطائفة، أو القومية.

لهذا فنحن الكورد، عندما نفكر بالمآسي التي وقعت علينا، نتذكر فرنسا. ففرنسا، والفرنسيون، دائماً كانوا هم المتعاطفون معنا، عندما كنا – ولا نزال – ضحية الأنظمة الدكتاتورية الظالمة، في العراق وسوريا وإيران وتركيا. وها نحن اليوم في (إقليم كوردستان العراق)، وكذلك في كوردستان الغربية (سوريا)، ضحية الإرهاب الأعمى، الذي أصاب (فرنسا) جزء بسيط منه. لقد



أصبحت فرنسا هدفاً لهذا الإرهاب، الذي يقف في طريق مده: البيشمركة الأبطال، والمقاتلون الكورد في (كوباني).

وفي الوقت الذي كنا في بداية وضعنا لأولى لبنات الديمقراطية، ضمن كيان سياسي كوردي تشكل جديداً، نسعى من خلاله إلى تطوير منطقتنا ثقافياً وفكرياً، بصورة تختلف عن المحيط الذي نعيش فيه، وجدنا أنفسنا أمام جبهة حرب مفتوحة مع إرهاب مدجج بأكثر الأسلحة تطوراً، يهددنا به آلاف الإرهابيين المتطوعين من كل بلاد العالم، وعلى طول مئات الكيلومترات.. إرهاب يهدد وجودنا وديمقراطيتنا.. ولهذا فنحن نعيش الآن معركة الوجود أو اللاوجود، وهي معركتنا المصيرية التي وجدنا أنفسنا فيها دون إرادتنا.

يومياً يُقتل العشرات من خيرة رجالنا في هذه الحرب، لنكون جبهة صد أمام الإرهاب الذي يريد أن يتمدد، والذي يستهدف كل ما هو جميل في عالمنا.. يريد أن يقتل البسمة الجديدة التي تشكلت مؤخراً على وجه الطفل الكوردي.. يريد أن يقتل الطمأنينة التي تشكلت في قلب الأم الكوردية، والتي طالما كانت في عزاء، جرّاء قتل أبنائها على أيدي النظام الدكتاتوري الإرهابي المنحل.. ويأتي إرهاب (داعش) ليزيل تلك الطمأنينة، ويريد أن يقتل الحرية التي تشكلت جديداً، ويقتل الأمن والأمان الذي تميز به إقليم كوردستان، ويقتل محاولات اللحاق بركب التطور والحضارة، وفرنسا كنموذج، بل يقتل كل شيء فينا، بل يقتل وجودنا كي لا نكون.

نعم يقتل العشرات من رجالنا يومياً، ورغم ذلك نفتخر، لأننا جزء من هذه الجبهة التي تقف في وجه هذا الإرهاب، الذي يريد إزالتنا من هذا الوجود.. لكل هذا نحن نشعر بالألم أكثر من غيرنا، عندما يصيب الإرهاب أي مكان في العالم، ونشعر بالتعاطف مع ضحاياه أكثر من غيرنا.

هذا هو أنا مسلم كوردي كوردستاني.. لست لا (شارلي ايبدو).. ولا (داعش).. ❒

وسقط القناع

د. سعيد سليمان سعيد

✍ التجربة العلمانية الحاكمة في المنطقة، المتحالفة مع السلطة العسكرية، مع عمالتها الواضحة للأجندات الخارجية – خارج دولها القُطرية – بحجة حفاظها على النظام العام، جسَّدت –وبدون حياء– عدم الإيمان بالديموقراطية، وآلياتها، في التداول السلمي للسلطة، وفي تقبُّل التعددية السياسية، وحتى الفكرية، وذلك بتشبُّثها بالسلطة، واحتكارها لمؤسساتها الوطنية، واستغلالها، من أجل البقاء على كرسي الحكم، وعدم التنازل عنه، ولو كان على حساب مصلحة الوطن العليا، والحفاظ على سيادته واستقلاله. وهذا الأمر واضح، من خلال إفساحها المجال للقوى الخارجية بالتدخل السافر في دولها، وبطلب منها، بحجة محاربة الإرهاب والمتطرفين، فأصبحوا عملاء، وبدرجة امتياز.

وأصحاب هذه التجربة، لم يُقِّروا بالفشل في إيجاد النظام السياسي المستقِّر، والاقتصاد المستقل، غير التابع للدول التي استعمرتها، ولم يقدِّموا المصلحة القومية على مصالحهم الحزبية والشخصية، لعدم التزامهم بآليات الديموقراطية، وعدم الاعتراف بالأخطاء التي ارتكبوها أثناء حكمهم المطلق، ولمدة عقود من الزمن. وإنما انتهجوا الأساليب غير المشروعة، لتخوين المقابل، المدعوم شعبياً، والحائز على الشرعية المدنية من خلال صناديق الانتخاب، واستخدموا المال العام،

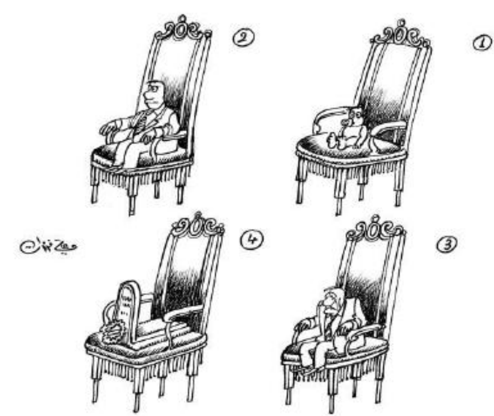
وجميع مقدرات الوطن، من أجل الحُكم، والبقاء فيه، ووصل بهم الأمر إلى استلام الأموال من حكومات ودول، كانت إلى وقت قريب عدوة لها، فخرقوا القوانين، وكل الأعراف، المعمول بها للحفاظ على سيادة الدولة، واحترامها بين الأمم.

وقد التجأ أصحاب هذه التجربة الفاشلة إلى الثورة المضادة، القائمة على أسس التخريب والتشويش والتشويه، لسرقة ثورات الشعوب، وتطلعها نحو حياة الحرية والرفاهية، وذلك بتحريك الشرائح والفئات المريضة من المجتمع، التي أنتجتها الأنظمة الفاسدة في الاتجاه المعاكس للثورات، فعملت على إفشال التجارب الوطنية المخلصة، من خلال المؤسسات التي أصبحت أعمدة راسخة للدولة العميقة. هذا الكيان المشوَّه، القائم على أسس ومبادئ الفساد والتبعية والمحسوبية والرشوة وأكل المال العام. وهذه المؤسسات توغلت فيها العلمانية، لا من أجل خدمة الوطن والمواطن، بل من أجل ترسيخ وتجذير تواجدها المُستَبِّد والمتسلِّط على رقاب الشعب، وبجميع فئاته وشرائحه، ومن قِبل قلة قليلة فاسدة، لا يهمُّها في الحياة غير التحكُّم والتسلُّط والتلذُّذ بمقدرات الشعوب، ولو كان على حساب جميع المبادئ والقيم الإنسانية.

علماً بأن المؤسسات العامة ينبغي أن تكون وطنية وعامة مفتوحة للجميع، ولكن النظرة العلمانية الأحادية الاحتكارية قامت باستغلال هذه المؤسسات، وبشكل سيء جداً، ليس من أجل الحفاظ على بنية الدولة واستقلالها، بل من أجل الحفاظ على النخبة العلمانية، وأجنداتها الداخلية والخارجية، فأصبحت وبالاً على الشعب ومُقدَّراته، وأصبحت معاول هدم لبنية الدولة، بدلاً من تقويتها، وأصبحت وسيلة لانتهاك حقوق المواطنين، والاعتداء على كرامتهم، بدلاً من الحفاظ عليها.

وكنموذج للمؤسسات، التي توغّلت فيها النخب العلمانية الفاسدة، واحتكرتها: المؤسسة العسكرية. هذه المؤسسة الوطنية أصبحت مؤسسة مغلقة لهذه الفئة، من خلال سيطرتها الكاملة على الكليات، والأكاديميات، العسكرية، وسيطرتها على مقدراتها، واستغلالها من أجل التسلُّط، وتحقيق الثراء الفاحش، عن طريق عقود التسليح والتموين..إلخ، وهذه المؤسسة، وخاصة في الدول العربية، لم تدخل معركة، وكسبتها، رغم الميزانيات الهائلة، ولعقود من الزمن.

وقد تم التحكّم في هذه المؤسسة لتكون الأداة بيد السلطة العلمانية، لقهر وإخضاع المعارضين لها، بدلاً من القيام بمهامها في الحفاظ على سيادة الدولة وحدودها.



فالنخبة العلمانية، التي فشلت في تسيير الدولة نحو التطور والتقدم، والتي تدير السلطة بقوة الحديد والنار، بعيداً عن الأساليب المشروعة في الحكم، قد سقط القناع عنها.

هذه النخبة، التي تمثّل جميع الأحزاب العلمانية، وبكل توجهاتها ومشاربها المتنوعة والمتعددة، والتي تتشدق ليل نهار بالديموقراطية والحرية والتعددية، فشلت ورسبت في امتحان الديموقراطية، وذلك بعدم تقبلها وعدم اعترافها بالفشل، وعدم تقبلها بآليات الديموقراطية" من صناديق الاقتراع، وإلى موضوع التداول السلمي للسلطة، وإنما التفّت حولها، ضاربةً عرض الحائط كل المبادئ والقيم والشعارات، التي رفعتها، ولعقود، حول الحرية والمساواة والتعددية والديموقراطية. نعم لقد رسبت، وبامتياز، والواقع المعاصر، والأحداث الجارية والمتسارعة اليوم، في منطقتنا، أكبر شاهد ودليل على ذلك.

نعم، لقد سقط القناع.

سقط القناع عن النخب العلمانية، في منطقتنا، في معركة المساواة السياسية، الصفة التي ينبغي أن تتوفر في أي حكومة تدعي الديموقراطية، من خلال عدم توفير الفرص، وعدم إفساح المجال لجميع فئات الشعب، ومن كافة التوجهات والرؤى، للمشاركة في صياغة القرار السياسي، وبالتساوي، ودون تمييز.

وسقط القناع عن النخب العلمانية، في معركة الاستجابة لمطاليب الشعب، والنزول عند إرادته، وذلك بتشبثهم بالسلطة وكرسي الحكم، وعدم النزول عند إرادة الشعب، فهم يحكمون على أنهم أوصياء وأولياء، والأصل أنهم ينبغي أن يدركوا جيداً بأنهم ليسوا أوصياء ولا أولياء، بل إنهم يحكمون بالوكالة عن الشعب، فهم وكلاء وليسوا أصلاء، فالشعب هو الأصل. ولكن الواقع يشهد بأن النخب العلمانية تُعدُّ نفسها الأصل، والشعب ليس إلا تبع لها ..

وسقط القناع عن النخب العلمانية، في معركة عدم إقرارهم بحقوق الأقلية في الدولة، فالحكم يكون للأكثرية في النظام الديموقراطي، ولكن مع الحفاظ على حقوق الأقلية، وعدم إقصاء أي طرف.. فلم تتكفل

هـذه النخبـة في حكمهـا بحـق معارضـيها في التعبير الحـر عـن الـرأي والمعارضـة ومراقبـة الأداء الحكومي، بل عملت على تهميش كل من يعارضها، وإقصائه، ومنعتـه مـن التمتـع بحقوقه كمواطن وليس كمعارض..!!!.

وسقط القناع عن النخب العلمانية، عندما فشلت في القـدرة علـى التواصـل مـع إرادة الشعب، في تحقيق الرفاهية والتطـور والتقـدم المنشود، الذي رفعـت مـن أجلـه الشـعارات البراقة، والخطط الخمسية العملاقة. نعم هـذه النخـب فشــلت في جميــع مجــالات الحيــاة السياســية والاقتصــادية والاجتماعيــة..إلخ، والشاهد والدليل هو مرتبتها في قوائم الأمـم المتحدة، والمنظمات الدوليـة، حـول المسـائل والقضايا المتنوعة، فهي دائما في ذيل القائمة: في الشفافية، وفي الرفاهية، وفي تمتـع شـعوبها بالحريــات العامــة، وفي الإدارة، وفي، وفي... إلخ.

وسقط القناع عن النخب العلمانية، عندما فشلت في توفير المستلزمات الضـرورية لبنـاء دولة مؤسساتية قائمـة علـى آليـات وأنظمـة وقوانين، تحافظ على وحـدة الـوطن، وتجمـع فئات الشعب المختلفة على مائـدة المصـلحة العليـا. بـل إن هـذه النخـب عملـت علـى العكس مـن ذلـك، فقامـت بتقريـب فئـات، وتجميــع أشــخاص، واســتبعدت الآخــرين، وعملت علـى تـأجيج الصـراعات المتنوعـة: الطبقيـة، والطائفيـة، والمناطقيـة، في المجتمـع، وقامت بتشكيل مراكز قوى، تتصارع داخـل المؤسســات علــى الفتــات والمناصــب. وكــل هــذا، الهــدف والغــرض منــه: الإشــغال والإغفــال، والعمــل علــى تمكــين وترســيخ تحكمهــا وتســلطها علــى جميــع مؤسســات الدولة.

وسقط القناع عن النخب العلمانية، عندما قصّرت في الوفـاء بالتزاماتهـا، وعـدم أدائهـا لواجبها بالشكل المطلوب، ولم تفسـح المجـال للرقابــة الشــعبية والبرلمانيــة باتخــاذ مجراهــا الطبيعــي، للوقــوف أمــام الفســاد الإداري والمالي، المستشري في جميع مفاصـل الدولـة، وذلك من خلال العمل علـى إفـراغ الهـدف والغايــة مــن المضــمون، والإبقــاء علــى الشــكليات، عــن طريــق وضــع قوالــب وتوجيهات وإداريات روتينية، لا تسـمن ولا تغني من جوع. والمماطلة في اتخـاذ القـرارات الحاسمـة حـول الفسـاد، والالتفـاف علـى القـوانين، للحفـاظ علـى امتيـازات الفئـات الفاســـدة" مـــن المســـؤولين والمتنفـــذين والمستفيدين من بقاء وديمومة الدولة العميقـة المهترئة الفاشلة.

وسقط القناع عن النخب العلمانية، عندما التفّت على مبدأ التداول السـلمي للسـلطة، مـن خـلال عـدم احـترام أصـوات النـاخبين وإرادتهم في التغيير والتعبير، وعملها المستمر

في تزوير إرادة الشعب، وذلك بالتلاعب بنتائج الانتخابات في كل جولة. فلم تسمح هذه النخبة الفاسدة بإجراء انتخابات حرة ونزيهة وشفافة في دولها، وعملت على فرض نمط من الحكم على الشعب، ولو كان خارج إرادته. ولم تعمل من أجل توفير وتأمين التعددية الفكرية والسياسية في البلاد، بل كان الاحتكار، ومصادرة الآراء، واستخدام القوة والتهديد والوعيد هي السمة البارزة لحكمها. وهذه النخبة هي أكثر من يتحدث عن الحرية، والمساواة، واحترام الحقوق، وعدم المساس بكرامة الآخرين!!! وتتشدق كثيرا بمصطلحات الديموقراطية، والتداول السلمي للسلطة، والتعددية الفكرية والسياسية، وحقوق الإنسان!!!.

وسقط القناع عن النخب العلمانية، عند رسوبها في امتحان (ماهية الديموقراطية)، والتي هي عبارة عن توفير حق المنافسة القانونية والسلمية لاستلام السلطة. فلم تقم بتوفير هذا الحق للمواطنين، بل عملت على العكس من ذلك.

وسقط القناع عن النخب العلمانية، عندما فشلت في إيجاد المناخ الذي تكون فيه الحريات والحقوق محفوظة لجميع المواطنين. وأيضا، عندما فشلت في الحفاظ على كرامة مواطنيها، وعدم مطالبتها بحقوقهم، وخاصة إذا كانوا خارج حدود الدولة.

وسقط القناع عن النخب العلمانية، عندما فشلت في امتحان التداول السلمي للسلطة والحكم، فاستخدمت القوة والمؤامرات والتحايل على القوانين لإدامة حكمها وتسلطها على رقاب الشعب، فلم تُعطِ المجال للجولات الانتخابية، كسبيل للتداول السلمي للسلطة، كي يتسلّم الحكم، من يعطيه الشعب صوته وثقته، وبصورة دورية وشفافة ونزيهة.

وسقط القناع عن النخب العلمانية، وظهر جلياً، وبشكل سافر، من هم حملة الفكر الاستبدادي، ومن هم الذين يحملون المشروع السلطوي الدكتاتوري، الذي لا يؤمن بالتعددية، والآليات الديموقراطية لتداول الحكم والسلطة، ولا يؤمن بنظرية الشراكة، ولا يعمل من أجل ترسيخ النظام السياسي المستقر في البلد.

نعم، هذه النخب العلمانية هي التي سمحت للاجتياح الدموي للمجتمع، وأجّجت الحروب الأهلية، وأباحت قتل المعارضين، وقامت بالاغتيالات السياسية. وهي تفرح بهذه الأوضاع، لأنها ليست قادرة على التحكّم كما تريد، وعلى أخذ زمام الأمور، إلا في الأحوال غير الاعتيادية، وغير المستقرة، ولأنها بارعة في الاصطياد في الماء العكر.

هذه النخب العلمانية مستعدة للعمل على

إيجاد وافتعال الأزمات، وخلق الصراعات الوهمية، والقيام بترتيب تفجيرات إرهابية، يذهب من جرائها المئات من الأبرياء، تقوم بها أجهزتها المخابراتية والأمنية، وفرق المرتزقة من الشبيحة والبلطجية، وبمساعدة المال الأجنبي والدعم اللوجستي الخارجي، كل ذلك من أجل ضمان بقائها في السلطة، وتثبيت نفوذها، وتحقيق مصالحها الآنية الحزبية والشخصية، على حساب أية نهضة شعبية ووطنية.

وهذه النخب العلمانية، ولتحقيق هدف استمرارها في السلطة والحكم، مستعدة لإفساح المجال للدول الأخرى، لتثبيت نفوذها، وتحقيق مصالحها الاستراتيجية، سواءً كانت سياسية أم اقتصادية، على المدى القريب، أو التحكم والتوغل في مفاصل الدولة، والسيطرة عليها، واستعمار البلد بثوب جديد، على المدى البعيد، هذا كله مقابل استمرار هذه النخبة في السلطة. وهذه النخب هم أكثر الناس تحدثاً عن الوطنية...!!! فعن أية وطنية يتحدثون؟؟

نعم، إن هذه النخب العلمانية الحاكمة في منطقتنا، تحمل الحقد والكراهية، والتتبع الدموي، والتخوين الوطني والسياسي للخصوم. وقد تجرَّدت من إنسانيتها، وفقدت كل المعاني الإنسانية، في تعاملها مع الآخر المخالف لها في نظرتها ورؤيتها. فكان الأسلوب الذي سيطر على عقليتها في التعامل، هو تجريد الخصم من كل الحقوق، وحتى وجوده المعنوي في البلد.

وسقط القناع عن هذه النخب العلمانية، عندما قامت بترسيخ الحكم الشمولي المستبِّد، الذي نقض كل فُرص الشعب في حياة حرة كريمة، ومَنَع منحَهُ الأمل للتعلق بمشروع التطوير السياسي، وإقامة النظام العادل، فكانت الاضطرابات، والأوضاع غير المستقرة، هي السمة الغالبة للواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في البلدان التي يحكمونها، وهي نتيجة لما أفرزته عقلية هذه النخب من تصرفات وأعمال، قامت على الإقصاء والتهميش، بل حتى التقتيل والتعذيب والتعامل الوحشي.

نعم، لقد سقط القناع عن النخب العلمانية في المنطقة ..

وإنّ أي استقراء للواقع الذي تعيشه منطقتنا، سيتوصل إلى نتيجة مفادها:

فشل الأنظمة الحاكمة، ومنذ أكثر من عشرة عقود، أي ما يقرب القرن من الزمان، في سياساتها، والشعارات التي رفعتها، وتبجحت بها. وسقوط الأقنعة عن النخب العلمانية، التي كانت الأداة لهذه الأنظمة، بل المسيِّرة لها، والممثلة بالأحزاب العلمانية، وبكافة مشاربها وتوجهاتها❑

بيروقراطية الألقاب العالمية في الجامعات العراقية



سعد سعيد الديوه جي

✍ تعاني الجامعات العراقية من أمراض عديدة، وعلى كافة المستويات، بدءا من أعداد الطلبة الهائلة، والمستويات العلمية المتدنية لقطاع كبير من هيئات التدريس، وإشكالية لغة التدريس، مما لا يمكن حصره في مجال ضيق كهذا، حتى أن أحد المختصين وصف حالة الجامعات العراقية بأنها مصابة بمرض الشيخوخة المبكرة (البروجوريا)، وهو مرض عضوي يصيب الأطفال، ويبدون كأنهم شيوخ في نهاية العمر، ولا يوجد علاج لهذا المرض إلى حد الآن.

وأحد هذه الأمراض هو (بيروقراطية الألقاب العلمية)، ويعني المصطلح استغلال الألقاب العلمية، من قبل هيئات التدريس، لأغراض شخصية وانتفاعية، لا تمت للعلم بصلة، ولا حتى بتطوير المسيرة العلمية.

وقد يستغرب القارئ من جمع مفهومين في مصطلح واحد، فالأمر ممكن إذا أردنا تقريب المسألة إلى ذهن القارئ، فالبيروقراطية مفهوم يتم استخدامه في العلوم السياسية والاجتماعية، يشير إلى تطبيق القوانين بكافة الأساليب المشروعة واللامشروعة، تحت ستار الحفاظ على النظام، أيا كان هذا النظام: صالحا أم ظالما.

وإذا كان المعنى الحرفي للبيروقراطية يعني حكم المكاتب، فإن المعنى الأول قد طغى على المعنى الحرفي، فصارت البيروقراطية تجسيدا للفساد، والعدو الخطير للتقدم، فصار البيروقراطي هو الذي يدوس على الأدنى منه، ويرضي من هو أعلى منه بكل السبل، وذلك للوصول إلى ما يطمح إليه !

ومع شديد الأسف أن يقترن هذا المفهوم السيء، مع الساعين لنيل الألقاب العلمية من الهيئات التدريسية في الجامعات العراقية، بكل السبل، وممن حصلوا عليها، حيث أن الممارسات التي يقومون بها لم تؤد إلى النهوض العلمي، بقدر ما أدت إلى تدهوره. فمقياس الكفاءة العلمية يكاد

يكون معدوما في الحصول على الألقاب العلمية، ليحل محله عدد البحوث العلمية فقط، مهما كان نوعها، والشهادة العلمية مهما كان مصدرها، ومهما كانت مشروعيتها، ومصداقيتها !

ففي (بريطانيا) مثلا، يتم الاعتماد على (٧٠٪ – ٨٠٪)في مقياس الترقية العلمية على كفاءة التدريس، والتي يكون الطلاب النابهون جزءا من عملية التقييم، حيث تقوم لجان خاصة بتقييمه سريا، وإعطائه الفرصة للتدريس، بتحسين أدائه في حالة عدم تطابقه مع الأداء اللازم، وتبقى بقية درجات التقدير على البحوث العلمية، والفعاليات الأخرى.

أما في جامعاتنا، فإنه بمجرد الحصول على الماجستير أو الدكتوراه، ومن أي مصدر كان، فإن التدريسي يضع رجليه على السلم، بغض النظر عن كفاءته، وقابليته لنقل المعلومات، ومقومات شخصية أخرى، لتدور كل أفكاره بعدها، نحو الصعود إلى الدرجات الأعلى، بـ(عدد) البحوث المقدمة، أيا كان نوعها، ومستواها، والتي في معظمها لا تقدم ولا تؤخر، ولا تنشر إلا في مجلات محلية، وإن نشرت فلا تجد مجالا للتطبيق إلا ما ندر، ويبتعد حامل اللقب العلمي عن التدريس المتعب، وما يتبعه من واجبات، ليجلس على كرسيه، وأمامه لقب (أستاذ دكتور)، ولا يجيد غير عملية النقد والاستهزاء !

وفي اثناء دراستي للهندسة في (جامعة نيوكاسل)، في (بريطانيا)، كان رئيس القسم يحمل البكالوريوس فقط، وهو بدرجة مدرس، بينما تحمل إحدى المنتسبات شهادة ما بعد الدكتوراه (pphd)، وهي معيدة، وكان نائب رئيس الجامعة، وهو الرئيس الفعلي للجامعة، حيث أن رئاسة الجامعة في بريطانيا تكون رئاسة فخرية، وكان يحمل شهادة الماجستير فقط، وهو بروفسور! وقد أعطى ٣٢ شهادة دكتوراه، وعشرات شهادات الماجستير، وهو رئيس تحرير مجلتي الهندسة الميكانيكية البريطانية، والهندسة الزراعية البريطانية، ويدرس طلاب البكالوريوس في المرحلة الأولى !

هذه الصورة ليس لها وجود على الإطلاق في جامعاتنا، حيث لا وجود لمعيار الكفاءة مطلقا. فترى في بعض الأقسام عشرات الحاملين للقب الأستاذية، في سابقة خطيرة لا وجود لها في أي مكان بالعالم، إلا في البلدان المتخلفة، وصارت مسألة الحصول على لقب الأستاذية تثير السخرية بين أعضاء هيئة التدريس. وضمن هذه الدائرة المفرغة يجري التسابق على المناصب، بدءا من استلام عمادة الكليات، إلى رئاسات الأقسام، إلى الحصول على الإيفادات والمنح والسفر للخارج، وأخذ المقاولات في المكاتب الهندسية، وغيرها. فمجرد حمل لقب (أستاذ دكتور) يعد جوازا للولوج لكل المناصب والهيئات.

إن ما نذكره هنا إنما هي بعض الجوانب القاتمة لصورة التعليم العالي في جامعاتنا، حيث تكاد الكفاءة تنعدم تحت زحمة التدافع البيروقراطي لأصحاب الألقاب الفخمة، والذين يوصدون الأبواب بوجه الكفاءات، تحت حجة عدم حمل الألقاب العلمية، وظاهرة بيروقراطية الألقاب العلمية ترقى لمعاداة الكفاءة، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حفاظا على المصالح المكتسبة، وخصوصا المادية❑

إن انتفى المحسنون

فكن أنت المحسن

فاتن محمد

ماجستير في الدعوة والثقافة الإسلامية

قسم العلماء الدين الإسلامي إلى ثلاثة أركان: الإسلام والإيمان والإحسان، وقد اعتمد العلماء في هذا التقسيم على حديث جبريل: "كان النبي (صلى الله عليه وسلم) بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا النبي (صلى الله عليه وسلم): {إن الله عنده علم الساعة} الآية، ثم أدبر، فقال: ردوه: فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل، جاء يعلم الناس دينهم"/ صحيح البخاري.

وهناك كثير من الناس أَلِفوا الإحسان أنه من باب الكمالات في الدين، وغَدًا لا يُنظر إليه إلا من باب الرقائق والوعظ، وهو خطأ كبير، فهو كما ذكرنا ركن في الدين، والركن في اللغة: جانب الشيء الأقوى. يقال: ركن المسجد أو البيت، فإن زال الركن، انهدَّ البناء. وفي الاصطلاح: هو جزء من الماهيَّة، التي لا تتحقق الماهيَّة إلا به، وبذلك لا يسع الإنسان التنازل عنه.

وهناك ارتباط بين الإحسان والإيمان والإسلام، فبدون الإحسان لا يتم للمسلم إيمان ولا إسلام، فهو الروح المنبثقة من أركان الإسلام، فإذا خليت هذه الطاعات من الإحسان، كانت ميتة لا روح فيها. وكذلك العقيدة، إن لم تبن

على أساس الإحسان، كانت متخلخلة ناقصة. قال أحد العلماء: "أما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه، من الإيمان. والإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه، من الإسلام. فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام".

وهناك قسمين للإحسان: قسم يتعلق بالقلوب، وقسم يتعلق بالعمل. ففي الأول، كيف يكون الإحسان، وفي القسم الثاني، كيفية ممارسة الإحسان.

أما القسم الأول، وهو ما يتعلق بالقلوب، فالمُستَنَدُ فيه هو حديث جبريل السابق، وهو مرتبط بمعنى المراقبة، وهناك من جعلها مرتبة واحدة، وهي استشعار مراقبة الله. وهو معنى مهم جداً، فمن استشعر مراقبة الله لن يصدر عنه إلا الإحسان. وهناك من جعله رتبتين، وجعل المرتبة الأخف فيها هي استشعار مراقبة الله، وأنك في مراقبته دائماً. ولكن مع استمرار المجاهدة في هذه المرتبة، ورسوخها في القلب، ينتقل الإنسان إلى مرتبة أعلى، وهي: (كأنك تراه)، وهي أعلى من الأولى. والفرق بينها وبين الأولى، أن الإنسان في المرتبة الأولى يتقن العمل، إما خوفاً من الله، أو رجاءً بأجره، أو حياءً منه. لكن في المرحلة الثانية، هو يستضيء بنور الله، فهو في معية الله عند مزاولته للعمل، وهو عاجز عن ألا يتقن. "طلب رجل من صانع عملاً فأنجزه له، وبعد عودته للمنزل رأى أنه لم ينجزه بالقدر الصحيح من الإتقان، فقضى ليلته وهو يصنع بديلاً لذلك العمل، مع مراعاة أن يكون على أكبر قدر من الإتقان، فلما أصبح أعطاه للرجل، وطلب منه أن يرد له الأول، فشكره الرجل، فرد عليه الصانع: أنا لم أعمل ذلك لتشكرني عليه، بل قضاءً لحق الصنعة، كراهة أن يظهر من عملي عمل غير متقن. فمتى قصّر الصانع في العمل، لنقص الأجرة، فقد كفر بما علّمه الله، وربما سُلِب الإتقان".

وأما القسم الثاني، الذي يتعلق بالأعمال، والمستند فيه حديث النبي (صلى الله عليه وسلم): "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم، فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته"/ النسائي. ومن خلال هذا الحديث يظهر ربط النبي لمفهوم الاحسان بالإتقان، بل إن هناك علاقة متداخلة بينهما، مع كون الإحسان أعم من الإتقان، إذ يتعلق الإتقان فقط بالجانب التطبيقي للعمل. ومن المهم جدا معرفة هذه النقطة، وهي صلة الإتقان بالإحسان، وأنه جزء منه. فكما أخطأ البعض من المسلمين في تصنيف



الإحسان، أخطأوا الخطأ نفسه في تصنيفهم للإتقان، فصُنِّف على أنه من الذوقيات، وأنه يختص بالعمل الدنيوي، وأنه منفصل تماماً عن الدين. ولكن حين نعيده إلى مكانه الصحيح، وهو أنه جزء من الإحسان، وقبله يُعاد الإحسان إلى موقعه الصحيح، وأنه ركن الإسلام الثالث، وبالتالي تعود للإتقان مكانته الصحيحة في الإسلام، ويكون التقصير فيه ليس مجرد ترك ذوقية من الذوقيات، إنما يكون هدماً لدينٍ بأكمله. فإذا استشعر المسلمون هذا المعنى، لم يكن لهم خيار إلا تطبيق الإتقان في حياتهم كلها، كما قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم، فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته"/ النسائي. والأمثلة التي ذكرها النبي في الحديث، تبين مدى عموميّة معنى الإتقان، فهو لم يضرب لنا مثلاً بأمر، يتبادر إلى الذهن فيه معنى الإتقان، كالعبادة، والعمل، و...إلخ، بل تجاوز هذه الأمثلة كلها من تعاملات الناس اليومية، ليضرب مثلاً بشيء أبعد ما يكون الإنسان في ممارسته له متنبّهاً لمعنى الإتقان، ليبين لنا أنه أمر تعبديٌّ محض، دون النظر بنتائجه، وإنما التسليم التام بتطبيقه بكل المجالات. وهو ما أيّده حديث النبي (صلّى الله عليه وسلّم)، حين وقف على جنازة، فعند تسوية القبر لم يتمّوا تسويته، فأمرهم النبي بتسويته، وقال: "أما إن هذا لا ينفع الميت، ولا يضرّه، غير أنّ الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه". فإن كان الأمر بالإتقان في أمور لا يكون لإتقانها أي منفعة تذكر، فكيف بالإتقان للطبيب في عمله، وهو المسؤول عن صحة أجساد الناس؟ وكيف به للمزارع الذي يتعلق بصنعته قوت خلق الله؟ وكيف بالتاجر المسؤول عن اقتصاد البلاد؟ وكيف بالعالم المسؤول عن تطور البلاد؟ وكيف بالمدرس والمربي المسؤولين عن عقول الأجيال؟ و...إلخ.

ويرتبط القسم الثاني من الإحسان بالقسم الأول ارتباطاً وثيقاً، إذ إن الإنسان يكون في أكثر إتقانه حين يكون تحت مراقبة صاحب العمل، فكيف إن كانت المراقبة من الله؟! فاستشعار المراقبة لله هو الطريق الحقيقي لإتقان العمل، ففي القصة المشهورة: "أن عمر بن الخطاب كان يدور في الليل، زمن خلافته، فسمع امرأة تقول لابنتها: اخلطي الحليب بالماء، كي نبيعه في الصباح، فقالت البنت لأمها: ولكن أمير المؤمنين نهى عن خلط اللبن بالماء، فقالت الأم: ولكن أمير المؤمنين لا يرانا، فقالت الابنة: إن كان أمير المؤمنين لا يرانا، فإن رب أمير المؤمنين يرانا"، فمع تصادم

رغباتها مع الإتقان، ومع وجود الخوف من الأم، والطمع بالربح، إلا أن استشعار مراقبة الله، وعلمها أن الإتقان جزء من دينها، لم تجد بُدّاً من الاستسلام لأمر الله. وكان ثمرة تطبيقها للإحسان، في الدنيا قبل الآخرة، أن زوّجها سيدنا عمر لأحد أبنائه، أي تزوجت ابن الخليفة، ابن حاكم أكبر دولة في ذاك الزمن، بل وكانت جدة لأمير المؤمنين (عمر بن عبد العزيز)، الذي كان هو نفسه ثمرة من ثمار إحسان جدته.. أفلا تطمع أن يجازيك الله بإتقانك للعمل، أن يجعلك أنت، أو من يخرج من صلبك، ممن يصلحون للأمة أمر دينها، كما كان الحال مع (عمر بن عبد العزيز)، فيجدد لها أمر دينها، ويعيد العدل بعد انتشار الظلم؟ وعلى النقيض، فما تعانيه الأمة اليوم ما هو إلا نتيجة التخلي عن الإتقان، ففي إحدى الدول الإسلامية افتتح مصنع لتجميع السيارات، وبعد فترة فشل المصنع، وعندما بحث الخبراء في السبب، وجدوا أن العامل المسؤول عن تركيب البراغي، الخاصة بالهيكل الداخلي للسيارة، كان يضع نصفها، ويسرق النصف الآخر، فكان يؤدي ذلك إلى تعطل السيارة بوقت قصير، فأدى إلى فشل المصنع، وبالتالي فشل دولة في افتتاح مصنع لتجميع السيارات، وبالتالي خسارة العالم الإسلامي ككل، وكل ذلك نتيجة لعدم إتقان إنسان واحد.

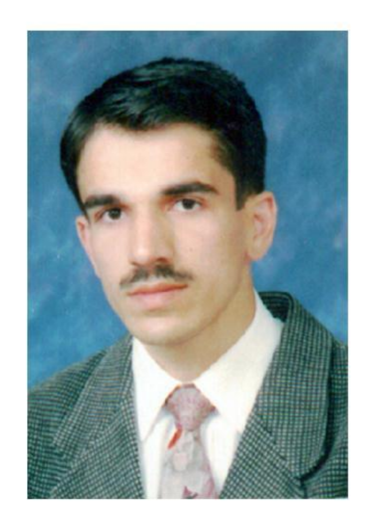
جملة استوقفتني: "لولا البقية الصالحة من المحسنين، لكان الناس في أسوأ مما هم عليه الآن". فنحن في زمن تعاني فيه الأمة من شدة ما ينزل بها: الدماء التي تسفك، الأراضي التي تحتل، الأعراض التي تنتهك. فأرخص الأراضي أراضينا، وأرخص الدماء دماؤنا، وأرخص الأعراض أعراضنا. التخلف الذي نعيشه، على جميع المستويات، التناحر والتنازع والتباغض وغيرها من مصائب تعصف بالأمة. هذه الجملة طرحت في نفسي سؤالاً مخيفاً، وهو: إن كان هذا حالنا، وهو أسوأ ما يمكن أن تصل إليه أمة من الانحطاط، أفتكون الأمة قد خلت من المحسنين؟

سؤال تركته دون إجابة، سواء عجزا، أم فزعاً من الإجابة، فذاك لن يغير من الحال شيئاً. ولكل أن يجيب عنه بحسب رأيه، ولكن إن كانت إجابتك نعم، انتفى المحسنون حقاً، فكن بربك أنت المحسن.. ❒



- التراجع المعرفي في زمن الـ(فيسبوك)! سعد الزيباري

التراجع المعرفي في زمن الـ(فيسبوك)!



سعد الزيباري

Saadz76@yahoo.com

✍ حضارتُنا اليوم لا زالتْ – حتّى هذهِ اللحظة التي نعيشهُا – تزوّدنا بكُلِّ جديدٍ في عالَمِ التكنولوجيا وتقنية الاتصالاتِ والمواصلات، فسهّلتْ لنا العسيرَ وقرّبتِ البعيد، وشرعتِ الآلةُ تقتحمُ حياتَنا في أدقِّ تفاصيلها، ولم يعدِ المعيارُ الضابطُ في تأهيلِ الموظفين معقُوداً على الكفاءةِ العلميّة والقوّة العضليّة، وإنما على كفاءةِ التقنيات المستخدَمة وقدرتها الميكانيكيّة، وربّما بعد عقدينِ مِنَ الزَّمن سيأخذُ (الروبوت) أو (الموظّف الجديد) موقعَ الآلافِ من (الموظفين القُدامى) الذين سيتمُّ تسريحُهم من قبلِ الشركاتِ العملاقة، ويؤدِّي ذلك إلى تفاقمُ العِلَل النفسيّة أكثر فأكثر في بنية المجتمعاتِ المعاصرة التي اكتسحتها الآلةُ اكتساحاً، وحوّلتِ الإنسان إلى (نصف آلي)، وجعلتهُ يلتهمُ الآلاتِ التهاماً. ولم يقف شغفُ الإنسان عند هذا الحد بَلْ لا زالَ توّاقاً إلى الآلةِ التي ملأتْ حياتَهُ بكاملِها، وجعلتهُ أكثرَ قُرباً مِنَ الذي يعيشُ في القارةِ الأمريكية، وأكثرَ بُعداً مِنَ الذي يعيشُ في حيّه الذي يحيا فيهِ، وذلك لأن وسائلَ الإعلامِ الجديدة حوَّلتِ العالَمَ – حسب مَقُولةِ المارشال ماك لوهان – إلى قريةٍ كونيّة، فالإعلامُ بدأ يمثِّلُ (سلطةً ثانية)، بعدَ أن اعتُبِرَ تقليديّاً (سلطة رابعة)، وأصبحَ عالَمُنا – في هذا المفصل الزمنيّ تحديداً – عالَماً من نوعٍ جديدٍ توقّف فيه نبضُ الزّمن، وتقلّصت فيهِ المساحاتُ الجغرافيّة، وأصبحنا

على قِمَّة هرمِ التطوُّر، استناداً إلى المراحِل التي حدَّدها (ماك لوهان)، تلك المراحِل التي تعكسُ – في رأيهِ – التاريخَ الإنسانيَّ، وهي تندرجُ أوّلاً: في المرحلةِ الشفويّة، أي مرحلة ما قبل التعلّم، وثانياً: مرحلة كتابةِ النُسَخ التي ظهرت في اليونان القديمة، واستمّرتْ ألفَيْ عام، ثالثاً: عصرُ الطِباعة من سنة (١٥٠٠)م إلى سنة (١٩٠٠)م تقريباً، رابعاً: عصرُ وسائِل الإعلام الالكترونيّة من سنة (١٩٠٠)م إلى الوقتِ الحاليّ. وهي لا زالتْ في سيرها تتقدَّم، وأصبحتِ الوسائِلُ الإعلاميّةُ اللُحمةَ الاجتماعيّةَ التي تربطُ العالَم كُلّهُ ببعضهِ في نسيجٍ مُتجانسٍ مُتوائِمٍ مُتآلِف، وقد صرَّح عالِمُ الانثروبولوجيا (مالنيوفسكي): "أن اللغةَ في استخداماتِها البدائيّة، تقومُ بدورِ حلقةٍ في سلسلةِ الأنشطةِ الإنسانيّة المتآلفة، باعتبارِها جزءاً مِنَ السلُوكِ الإنسانيّ. فهي وسيلةٌ من وسائِل الفعل، وليستْ أداةً للتأمُّل". هذا إذا كانت بدائيّة، فكيف إذا كانتِ اللغةُ مُستخدمةً بصورةٍ مُتقدِّمة، كاستخدامِها مطبوعةً في الصِحَافةِ الورقيّة – التي تحملُ في ثناياها القوّة البلاغيّة الكامِنة، فضلاً عن قوّتها التأثيريّة الفعليّة – ولكنّها اليوم أصبحتْ تندبُ حظّها، بعد أن تبوَّأتْ مركزاً مهمّاً في بنيةِ المجتمعاتِ الإنسانيّة كافّة، واقتحمتِ البيُوتَ كُلّها، وخاطبتِ الطبقاتِ الاجتماعيّة جميعَها، وتناغمتْ مع مُشكلاتِ المجتمعِ كُلّها جمعاء، فقد كانتِ الطفلةُ المدلّلة التي تدغدغُ الإنسانَ مِنْ على سريرهِ، وتُضحكهُ أكثرَ مِنْ سميرهِ الذي بجوارهِ، وتُشاركهُ فيما يحزُّ المجتمع مِنْ أزماتٍ ومُنغصّات وعقباتٍ ومُعوِّقات، كُلَّ ذلك يحصلُ في وقتٍ ما زالَ فيهِ الإنسانُ الشرقيُّ – المكبُوت المقمُوع – مأسُوراً في دوائِرَ أمنيّةٍ خانقة، يُراوح في دوّامةٍ مفرّغة بين مطرقةِ السياسةِ النفعيّة الميكافيلية وسندان الأوضاعِ الاقتصاديّة البائسة المزرية. فالصِحافةُ جاءتْ لكي تقفَ جنباً إلى جنبِ مُشكلاتِ الإنسان المعاصِر، وتُخاطِب أدقَّ ما يُعانيهِ الفردُ والمجتمع في محكِّ الصيرورةِ الزمنيّة. وليس مبالغة أن نؤكّد – بكُلِّ ثقةٍ – أن الصِحافةَ قد أحدثتْ تغييراً جذريّاً في عُمقِ الوعي المجتمعيّ، وأسهمتْ في تشغيلِ الماكنةِ الإنسانيّة التي ترنّحتْ في ظلِّ الأوضاعِ المأساويّة التي تعيشُها المجتمعاتُ النامية تحديداً، وطفقَ الإنسانُ يعتمِدُ في الحصُول على المعلُوماتِ من خلالِ الرؤيةِ البصريّةِ عبرَ الكلمةِ المطبُوعة.

ولا ضيرَ أن نعترفَ في هذا السياق ونقرّ أن الصِحافةَ المكتوبةَ أو الثقافةَ المقروءة – وإنْ كانتْ لا تُضاهِي الثقافةَ المرئيّة الجاهزة أو المعلومةَ البصريّةَ النابضةِ بالحياةِ والحركة – لا زالتْ تقومُ بواجبها في إيصالِ الكلمةِ المعبّرة التي تتناغمُ مع نبضِ الإنسانِ المعرفيّ،

وتتناغى مع تطلّعاتهِ في نشدان حياةٍ مِلْؤُها الطمأنينةُ والسّلام والعدالةُ والوئام، وليسَ صحيحاً أن الصِحافةَ المكتوبة أو بالأحرى الكلمة المقروءة تعيشُ في أزمةٍ، وإن كُنّا نسمعُ بينَ آونةٍ وأُخرى عن صِحافةٍ بلا ورق أو الصِحافة الالكترونيّة، ولكن كُلّ ذلك بقيَ حِبْراً على ورق، وخاصّةً في فضاءِ الدول النامية – حسب التعبير المهذّب – على أقلِّ تقدير. ولكنّنا مع ذلِكَ لا نُنكِر أثرَ الإعلام البصريّ في تشكيلِ الأذواق وتدجين العقول وتنميط التوجّهات من خلال ثقافةٍ مرئيّة عَرضيّةٍ مُسَطّحة، تقدّم وجباتِها على طبقٍ مِنَ الإغراء والمُتعة والإثارة، فرُوّاد الشاشةِ أو الثقافةِ المرئيّة أصبحُوا أكثرَ عدداً من زبائنِ الثقافةِ المقرُوءة، ومن ضِمْنها الثقافة التي تُقدّم الآن كبضاعةٍ مُزجاة على فضاءاتِ الشاشةِ الالكترونيّة الزرقاء الـ(فيسبوك) التي يستخدمُها أكثر من مِليار شخص على مُستوى العالَم، فهذهِ الشبكةُ تقدِّم لزبائنها ورُوّادها ثقافةً مسطّحة أكثرَ من اللازم، وتجعلُ من كُلِّ النّاسِ كُتّاباً، يكتبُون بلغةٍ مِلْؤُها الركاكة الأسلوبيّة، والهلهلة التعبيريّة، والضحالة الفكريّة، وأصبح بمكنةِ كُلِّ هاوٍ للأنترنت أن يكون كاتباً يُشار إليهِ بالبنان، وأصبح شهرةُ الكاتِبِ رهناً بعددِ (الإعجابات) التي ينتزعها من روّاد الشبكة ومُدمنيها، بصرفِ النظرِ – غالباً – عن المحتوى أو المضمُون الذي يسعى إلى ترويجه على صفحته أو صفحاته التي يديرُها، المهم أن يستحوذ على شبكةِ اهتمامِ المعجبين، ويُثير فضولَهم، ويُلفت أنظارَهُم، بغضِّ النظر عن قوّة ما ينشرهُ من أفكار أو يثيرهُ من قضايا أو أخبار، وليس طُرفةً أنّ نقرِّر هنا أن الكثير من المعجبين يؤكِّدون إعجابهم لصاحبِ المنشور دون أن يقرأوا منشورَهُ أحياناً، فهم يُعلنون إعجابَهُم لأجل (عيون) صاحبِ الصفحة هذهِ أو تلك، وهذهِ تمثِّلُ مأساة الثقافة الراهنة التي بدأتْ تنهارُ بمعاول هؤلاءِ مِمّن أصبحُوا حفارّي قبور الثقافةِ الأصيلةِ على مذبح الـ(فيس)، كما أن التعليقاتِ التي نقرأها على هذهِ الشبكة الاجتماعيّة الأكثر شعبيّة في العالَم – والتي تكون عادةً أقلّ مِنَ الإعجابات – هي في جُلّها تعليقاتٌ فارغةٌ لا تحملُ مضموناً معرفيّاً ذا جدوى، وفي هذا السِّياق كتبَ الرّوائيُّ الأمريكيِّ (جوناثان فرانزن) تعليقاً طريفاً، يعبِّر فيهِ عن رؤيتهِ الفلسفيَّة: "حينَ أتأمَّلُ وسائِلَ التواصُلِ الاجتماعيِّ، أشعرُ أنَّ العالَمَ – الذي كان ناضِجاً – تحوَّلَ فجأةً إلى كافيتريا مدرسيَّة بها صبيةٌ مِنْ طلبةِ الصف الثاني الإعداديّ. وحينَ أتأمَّلُ صفحةَ الـ(فيسبوك) أشعرُ أنّني إزاءَ صالةِ الميسرِ في (لاس فيجاس)". وهذا لا يعني البتّة أن نقلّل من شأنِ هذهِ الوسيلة التي أصبحتْ أفضلَ

وصيلةٍ بين جيل اليوم، فهي مُغرية أكثر مِنَ اللازم إذ تثيرُ شهيّة مُرتاديها، وتشبعُ فضولَهم، وتروي نهمَهم المعرفيّ وإن كان مُسطّحاً، فهي تقدِّم المعلومةَ الحيّةَ في قلبِ لحظاتٍ وامِضة للمشاركين - مِنْ مختلف الألوان والأذواق والمشارب - الذين يتواصَلُونَ معاً في الأُمسياتِ الافتراضيّة على هذهِ الشبكة العنكبوتيّة العملاقة، وهم يتطارحُون كؤوسَ المتعة، وربما نجدهم في ظروفٍ أُخرى وهم يتراشقون بكُلِّ ما أنتجته المعاجِمُ اللغويّة من الألفاظِ النابية والعبارات البذيئة والإشارات المسيئة، وتتحوّل شبكات التواصُل الاجتماعيّ إلى ساحاتِ الوغى يتشابك فيها المتصارِعُون بالكلماتِ المقذعة والتعليقاتِ المؤذية والإيماءاتِ السّافلة، فتتهاوى الفضيلةُ والبراءةُ على مَذْبح الفُحش والبَذاءة. هذا، ولم يسلم من هذهِ المشكلة الموقع الاجتماعيّ الشهير (تويتر) حتّى كتبَ أحدُهم تعليقاً ساخِراً لاذِعاً، مُندِّداً بشدّة بكُلِّ مَنْ ينتهكُ تخومَ الأدب واللياقة "ما ذنبُ الطائِرِ وشعارُهُ بما يرتكبهُ المستخدِمُون من تجاوزاتٍ وإساءاتٍ إلى الآخرين، هَلْ فكّرَ هؤلاءِ ما فائِدةُ "تغريدةِ الطّائِر" على النَّفْس الإنسانيّة؟ ألا يعني أن هذهِ التغريدةَ تجعلُ النَّفسَ البشريَّةَ في راحةٍ وسعادةٍ وسَكِينة؟ لماذا لا يزرعُون هذهِ المفاهيم الإيجابيّة بين النّاس؟ ويزرعُون بدلاً عنها بذورَ الشحناءِ والعداءِ بين الشعُوب؟ ألا يعني أنهم أساءُوا إلى شعارِ "تويتر"؟ فمتى تنظّم التغريداتُ في "تويتر"؟ لماذا لا يُمنع كُلُّ مَنْ هبَّ ودبَّ في التدخُّل بشؤون غيرِهِ، والتوغّل في غير تخصُّصه؟ أليسَ من الحقِّ والعدالةِ والإنصاف حجبُ حسابِ كلِّ مَنْ يتعدَّى على غيرِهِ بتغريداتٍ مُسيئة، حتّى يكون ذلك درساً لهُ ولأمثالِهِ؟".

هذا، وقد أصبحَ انتزاعُ الإعجابِ فنّاً من فنون الـ(فيس)! حيث ترى الهواةُ وهم مُنكّبون على فضاءِ هذهِ الشبكة المترامية الأطراف، لتكثير نسبةِ إعجاباتِهم، فيتهافتون على اختيارِ كُلِّ ما يثيرُ شهية المتصفِّح، ويملأ أقطار نفسهِ عجباً، ويتكالبُون على نشرِ العجائب والغرائب التي يتهافتُ عليها المتصفحِّون من كُلِّ جنسٍ ولون، وهذا ما يُضخِّم حصيلةَ إعجاباتهم، ويمنحهُم علامةً إيجابيّة بين قومهم وبني جِلْدتهم، ويشعرُون في قرارةِ أنفسهم بحالةٍ غامرة من الرِّضى عن إنجازاتهم ومكتسباتهم، بعيداً عن روح المسؤوليّة تجاه أمانة الكلمة التي ألزمنا الله بها، وإهداراً للأمانة العلميّة التي أصبحتْ في رحمةِ المتصفحين الذي يتصرَّفون بنتاجاتِ غيرهِم - حذفاً وتحويراً وبتراً وإضافةً - كيفما يشاؤون ومتى يشاؤون! وعليهِ أصبحتِ المنشوراتُ أو الاقتباساتُ أو الاستشهادات - التي تُنشر هُنا وهُناك -

بمثابةِ قُصاصاتِ الورق التي لا تصنعُ معرفةً ولا تؤسِّسُ ثقافةً ولا تعزِّز نهضة، بل لا تعدُو كونها وسيلة ناجِعة لتمضيةِ الأوقات، وقتلِ الفراغات تحاشياً من قولِنا ملءِ الفراغات والمسافات والبياضات.

والأنكى من كُلِّ ذلك أن الكُتّاب المخضرمين – مِمَّن استهوتهم هذهِ الشبكةُ المدلّلةُ – بدأوا بمجاراةِ الأساليبِ المستحدثةِ أو بالأحرى المسطّحة لكي تتناسبَ مع مُستوياتِ هُواةِ المعرفة السطحيّة العرضيّة العابرة، فهم يتقصّدون أحياناً انتقاءِ الكلماتِ البسيطة والعباراتِ السهلة من أجلِ امتلاكِ جمهورٍ عريض بدأ يتحاشى الكُتُبَ مهما كانتْ قيمتها العلميّة والمعرفيّة أو المنهجيّة، وكان على الكُتّاب – جرياً على العادة الشائعة اليوم – أن يأخذوا لأنفسهم مكاناً في هذا الفضاء المعرفيّ المتناهي. وما يُثير امتعاضَنا هو الكتابة باللغة العامية السوقيّة أو اللهجة المحكيّة الدّارِجة التي لا تتناسبُ مع المعرفة المعمقّة التي لا يمكنُ التعبيرُ عنها إلاّ بلغةٍ فصيحةٍ صحيحة سليمة من الأخطاء شَكْلاً ومضمُوناً. فكيف يصحّ في الأفهام الانزياح إلى العاميّة التي رُبّما تُسيءُ إلى قيمةِ الثقافةِ وعُمقها المعرفيّ وجوهرها الجوّانيّ. فالمعرفة في السابق كانت نزوعاً داخليّاً بل مسؤوليّة تاريخيّة من قبل مُتعطّشي المعرفة، وكُنّا نكتبُ لأنَّ حاجتَنا إلى الكتابةِ كانتْ كحاجتِنا إلى الطعامِ والشّراب، كما قال طه حسين، كُنّا نكتبُ لحاجتنا للآخرين، وحاجةُ الآخرين إلينا، فضلاً عن التعبير عن إحساساتنا ومشاعرنا وخلجاتنا ومكنوناتِنا، وكان الكاتبُ يُعاني من مكابداتٍ أليمة ومخاضاتٍ مُوجعة من أجلِ الوصُول إلى ضفاف القصديّة التي يتغيّاها، والأهداف التي يتمنّاها، وكانتِ الكتابةُ فعلاً يمارَسُ من أجلِ الآخرين، وتبدأُ بعد اكتمالِ مرحلةِ امتلاكِ ناصيةِ اللغة، فكانت مرحلةً فوقَ اللغة، وكانت بحقّ بحثاً عن الحقيقةِ الضائعة في متاهاتِ الزيفِ والانتحالِ والتجديف، فأصبحتِ الكتابةُ اليوم فعلاً لتحقيقِ الذاتِ وإثباتها بَلْ والتباهي بها، وإرضاءِ غرورِها في هذا المحيطِ الواسِعِ الفسيح، ولكنّها الآن أصبحتْ وسيلةً لملءِ فراغ الهُواة مِمَّنْ يتمعَّنُون في تزيينِ ذواتِهم، وإن كان على حسابِ غيرهم، فالهاوي أيّاً كان وأينما كان إنَّما يبغي أن يكون شيئاً مذكُوراً بعد أن كان مغمُوراً!

ولا أدري بعد سنواتٍ ذوات عدد يكون هذا المقالُ وأخواته مثار تندر بعضهم وطرافتهم، لأنَّ (الفيس) ستكون قنطرة غير هادفة للشرائحِ الاجتماعيّة كلِّها، حتّى من غير المتعلِّمين. والكارثة أن الـ(فيسبوك) في المحيطِ الغربيّ رُبّما لا تتركُ أثراً كارثيّاً مثلما تتركهُ في المحيطِ العربيّ الشرقيّ، لأن تقاليدَ

الكتابة والقراءة في السياق الغربيِّ المعاصر رُبّما هي أكثر عُمقاً ورسُوخاً بالمقارنة مع الكتابة والقراءة في شرقنا المبتلى اليوم بالعطالةِ الفكريّة والبطالة الاقتصاديّة والعمالة السياسيّة. فالقراءةُ في الغرب وأوروبا لا زالتْ في أوج نشاطها، بينما هي في الشرق المسكين كانتْ منذ عقود ولا زالتْ تعيشُ في سُباتٍ طويل! هذا، وقد تمَّ رصدُ العديدِ مِنَ المساوئ التي تتركُها الـ(فيس) في الجيل الجديد، ومن ضِمْنها العُزلة الاجتماعيّة الخانقة، والتوقّف عن مُمارسةِ الأنشطة الرياضية، الإساءة المقصُودة للآخرين، التأثيرُ السلبيِّ على الصحّة الجسمانيّة، إلى جانبِ اعتلال الصحّةِ النفسيّة والاكتئاب، وكذلك التسبّب بأوجاعِ الظهر نتيجة الجلُوس المتواصِل، أو الصُداع من كثرةِ التحديق في الحاسُوب، أو الإرهاق الشديد نتيجة السهر الطويل، فضلاً عنِ الإصابة بمشكلاتٍ في الرؤية والنظر، وتدني المستوى الثقافي والمعرفيّ، وإضاعة الوقت والمال، والتحريض وإثارة الشغب، وسيادة الأفكارِ التي تعارِضُ ثقافة المجتمع الأصيلة، وشيوع القيم التي تخالِفُ قيم الإسلام العظيم، وإهمال الصلوات الخمس في أوقاتِها، زيادة معدلات العنف والجنوح نحو الجريمة، وضعف المستوى الدراسيّ لدى الطلبة وخاصّةً في اللغة العربية كتابة وتعبيراً، والعزوف عن المذاكرة. هذا وقد أظهرت دراسة أميركية أن الطلبة الذين استخدمُوا الـ(فيسبوك) و(تويتر) وغيرها من وسائل التواصُل الاجتماعيّ قد حصلُوا على درجاتٍ مُتدنيّة مقارنة برفاقِهم الذين لا يستخدِمُون هذه المواقِع. كما أنَّ لهذهِ المواقِعِ انعكاساً سلبيّاً على مدى تركيزِ الطلبة في الدّراسة، فكلما زاد وقتُ الإقبال عليها قلّتْ فُرَص التحصيلِ الدراسيِّ عند الطلبة، بسبب إهدار الوقت وإضاعته!

وإضافةً إلى كُلِّ ذلك فإن الإدمان على الإنترنت يسبِّب الأرق والحِرْمان من النوم، وفي هذا السياق كشفتْ دراسةٌ طبّيّةٌ حديثة، أجراها باحِثُون أمريكيُّون بجامعةِ (بوسطن)، أنَّ الحِرْمان مِنَ النوم يلعبُ دوراً مهمَّاً في خفضِ معدلاتِ التفوُّق والتحصيل الدراسيِّ عند طَلبةِ المدارس في مراحِلِها كافّة، وأكّدُوا أن النظرَ إلى شاشاتِ الحاسُوب والهواتِفِ الذكيّة قبل الذهاب إلى الفراش يعطِّلُ أنماطَ النومِ الطبيعيّة.

ومن الآثار السلبيّة التي تتركُها هذهِ المواقِع – مع إيجابياتها الكثيرة التي لا يُمكن إنكارُها أو إهدارُها – ضَعْف الذوق العام، وعدم التفاعُل مع الأسرة والمجتمع، فضلاً عن الإصابة بالبلادة واللامبالاة، وإشاعة روح الخمُول والكسل، وفي هذا السياق كشفتْ دراسةٌ بريطانية حديثة أن كثرةَ استخدام مواقعِ التواصُلِ الاجتماعيِّ الـ"فيسبوك"

و"تويتر" قد تؤدِّي إلى زيادة نسبة الغباء. وذكرت صحيفة "ديلي ميل" البريطانية عبر موقعها الإلكتروني، أنَّ الباحثين القائمين على الدراسة أكّدوا أنَّ السّرعة والسهولة التي يتمُّ بها تبادُل المعلوماتِ من خلال مواقع التواصُل الاجتماعيّ الـ"فيسبوك"، و"تويتر" وغيرها، قد تؤدِّي إلى صعوبة التفكيرِ التحليليِّ لمستخدميه. وأكّد الدكتور إيّاد رهوان – من معهد مصدر للعلُوم والتكنولوجيا في أبو ظبي، بالتعاون مع جامعةِ إدنبرة البريطانيّة – أنَّ الذكاءَ الذي يُعتقد أن مواقع التواصُل الاجتماعيّ تمنحهُ لمستخدميها هو مجرَّد ذكاءٍ سطحيٍّ، وكُلُّ مَنْ يتصفّح هذهِ الشبكات يلحظُ فيها سرعة انتشار المعلُومات، وسهُولة الحصُول عليها، وهذا – كما تؤكّد الدّراسة – قد تؤثِّر سلباً على القدراتِ التحليليَّة لدى الأشخاص الذين يستخدِمُونها بكثرة، وتفسِدُ قدرةَ الفرد على التفكير، فضلاً عن تأثيرها السلبيّ على أسلُوب التعلّم. ولاحظتِ الدراسةُ أيضاً أنَّ هناكَ اعتماداً على "نسخ" المعلُومات من المحيط، أكثر من القدرة على تحليل البياناتِ، والتمسّك بالإجاباتِ الشخصية، كما كشفتِ الدراسةُ أنَّ كثافةَ المعلُوماتِ التي يحصلُ عليها مستخدِمُو الشبكاتِ الاجتماعيّة، قد تُعطي تصوُّراً أنها ترفعُ من معدلِ الذكاء، ولكنَّ الحقيقة أنَّ النتيجة سطحيَّة جداً.

ومن الآثارِ السلبيّة التي يتركُها استخدامُ الشبكاتِ الاجتماعيّة هو اعتيادُ المستخدِمِ على الوصُول السَّهْل إلى المعلُوماتِ المطلوبة، وهذا ما يجعلُ الذاكرةَ تتركّزُ على أسلُوبِ الحصُول على المعلُومة، دون تثبيتِ المعلُومات المستقاة بشَكْلٍ واضِح ومُركّز. وبناءً على هذه المعطيات ينصحُ الدكتور رهوان بأن يجريَ المستخدِمُون بحثاً تفصيليّاً مُعمّقاً في موضوعٍ واحِد بين الحينِ والآخر. وهذهِ ليست الدراسةُ الأُولى – التي تطرحُ موضوعَ الأثر السلبيّ لسُرعةِ انتشارِ المعلُوماتِ إلكترونيّاً على النَّشاطِ الذهنيِّ للمُستخدِم – بَلْ هناك دراساتٌ كثيرة في هذا المجال، ومنها الدراسةُ التي نُشرتْ في عام ٢٠٠٩م، في مجلة (Science) العلميّة، حول تأثير وسائلِ الإعلامِ المختلفة على قدراتِنا الإدراكيَّة، وقد أكّدتِ الدّراسةُ أنَّ الأنترنت يزيدُ من مهارة القراءة والكتابة البصريّة، ولكنّها يعوق بعض المهارات الأُخرى مثل التفكير الناقِد، والحلّ الاستقرائيّ للمشكلات، والخيال، مِمّا يعني أنَّكَ سوفَ تحصلُ على بعضِ المهاراتِ في مقابل فقدان مهاراتٍ أُخرى أهم، حيث إنّ الخيالَ والتفكيرَ الناقِد وحلَّ المشكلات الاستقرائيّ هِيَ صفاتٌ جميلةٌ مِميّزة للإنسان، ولكن استبدالها بمهارةِ القراءةِ والكتابةِ

البصريّة يعدّ صفقةً خاسِرة بالنسبة إليك.

هذا، وقد كشفتْ دراسةٌ علميّة حديثة أجراها باحثون أمريكيُّون أيضاً أنَّ قيامَ المراهقين بكتابةِ الرَّسائلِ النصيَّة القصيرة عبر الهاتِف المحمُول يُؤثّر سلباً على إمكانيَّاتِهم اللغويَّة، والنطق بشَكْلٍ سليم، وأشارتِ الدراسةُ إلى أنَّ هذهِ الرَّسائِل تسبِّبُ تأخُّراً في مهاراتِ التحدُّث والتعلّم بشَكْلٍ كبير، وأوضح الباحِثُون أن المراهقين - الذين يستخدِمُون الرَّسائِل النصيَّة في التواصُل مع أقرانِهم بشَكْلٍ دائِم - يرتكِبُون أخطاءً لغويّة ونحويّة كثيرة بالإضافة إلى اعتمادِهم على اللغةِ العاميّة، والكلماتِ المختصرَة والأرقام بدلاً من الحرُوف في أثناءِ كتابة الرَّسائِل النصيَّة. ونحن هُنا لا نجانبُ الحقيقة إذا قُلْنا "إنَّ شبكاتِ التواصُل الاجتماعيِّ تهدمُ ما تبنيهِ المدارسُ من مهاراتِ الكتابة والتعبير"! وأخيراً كشفتْ دراسةٌ أميركيّة عن وجُود علاقة مُباشرة بين تزايُدِ استخدامِ الأنترنت، وتراجُع النّاسِ عن التزامِهم بالقواعدِ والتعاليم الدينيّة.

ولكنّنا نقرِّر - على الرَّغمِ من كُلِّ الحيثيّات السَّابقة - أن الصِحافة المكتوبة المتمثّلة في الصحفِ والمجلاّت لا زالتْ في زهرةِ شبابها وربيع عمرها، وهي لم تبلغ الشيخوخة بعدُ حتّى تترنّح على عصا غليظة! فهل نحنُ يا تُرى على هذهِ الدرجةِ مِنَ العقُوق حتّى نرميَ الصِحافةَ الورقيّة في دورِ المسنين؟! بعد أن كانتْ في وقتٍ سابق من الوسائلِ الأثيرة التي دغدغتْ مشاعرِنا في الصِّغر، وتحاورت معنا في الكِبَر، وهي لا زالتْ بجوارِنا تعرضُ بكُلِّ سماحةٍ مشكلاتِنا على دفّتَيْ صفحاتِها بَلْ على صدْرِها الحنُون الذي تمخّض عنهُ جنينُ الوعي الإنسانيّ في أرجاءِ المعمورةِ، وخاصّةً في هذهِ اللحظةِ التاريخيّة التي نعيشُها معاً على هذا الكوكب الجميل، ولا ندري ماذا تخبؤهُ صفحاتُ المستقبل من عجائِبَ وغرائِب، ولكن ما نشاهِدهُ الآن أن الصِحافة المكتوبة لا زالتْ تُقرَأ في كُلِّ رجْئ من أرجاءِ العالَم، ولا زالتِ المطابعُ تتنفّسُ، ولا زالتِ الأقلامُ تبدعُ مع الكلمةِ المقروءة التي تنضحُ بالسِّحْر والجمال، ولا زالتِ العقُول تتفتّقُ منها رحيقُ العبقريّة! فالصِّحافةُ - بلا شكّ - وعلى الرَّغمِ مِنْ كُلِّ ما يُقال عن أدائِها، هي الوسيلةُ الحضاريّةُ التي أحدثتْ نقلةً ثقافيّة معرفيّة جبّارة، بَلْ طفرة هائلة في المسارِ الإنسانيّ، بحيث قرّبتِ البعيدَ وسهّلتِ القريب، وأحدثتْ تناغُماً بينَ المجتمعاتِ الإنسانيّة قاطبةً، تلك المجتمعاتُ التي أصبحتْ بفضلِ الوسائِل الإعلاميّة، وكأنّها تعيشُ في فضاءٍ إنسانيّ بلا سقوفٍ ولا جُدْران. فالإعلامُ يُعَدُّ بحقّ مِنَ الظّواهِر المميّزة في التاريخ الإنسانيّ برمّته، والصِّحافةُ - بشكلٍ خاص - أو الثقافةُ المكتوبة ورقيّاً أصبحتْ تملأُ فراغاً واسعاً في بنيةِ المجتمع المعاصر، فراغاً لا تسدّهُ الشاشات مهما كان

بريقها ومهما كانت جاذبيتها ومُتعتها، لأنَّ الشاشةَ أصبحَ هدفُها استقطابَ المشاهِد وجذبه بغضِّ النظرِ أحياناً عن المُعْطى الثقافيّ الذي تثيرُه، ولذا أصبحَ همُّ القنواتِ الفضائيّة – فضلاً عن شبكاتِ التواصُل الاجتماعيّ – زيادةَ عدد المشاهدينَ بصرفِ النظرِ عن قيمةِ المادّة المعرُوضة. والإنسانُ الواعي يقفُ سريعاً على أيديولوجيّة القنواتِ الفضائيّة أو شبكاتِ التواصُل الاجتماعيّ وضبابيّة توجّهاتِها وسطحيّة معلوماتِها وعرضيّة أفكارها، ولا يدعُوَنَّ هذا إلى العجب، لأنَّ هدفَ القائمينَ على الشاشةِ المرئيّة أو الشبكات الاجتماعيّة استقطابُ المشاهدينَ بغضِّ النظرِ عن السعراتِ العلميّة للمادّة الإعلاميّة المعروضة للتلقّي والاستهلاك، فلم يعد يهمّهم تغذيةُ شرايينِ الفكرِ البشريّ بالثقافةِ الرصينة الراقيّة، والمعرفة الأصيلة الرّائدة، بِقَدْرِ ما يُحاولون تخديرَ الطّاقةِ الفكريّة، وشلِّ الحاسّة النقديّة، وتسطيح الخلفيّة المعرفيّة، والإنسانُ بعد كُلِّ هذا مدعوٌّ لمراجعةِ حساباتهِ والتقليل من ساعاتِ مشاهدته للقنواتِ المرئيّة وشبكات التواصُل الاجتماعيّة من أجل التسلية وتزجية الوقت، وأن يجلسَ رويداً رويداً مع صديقهِ القديم (الكتاب) يحاورهُ ويُخاطبه ويُناقشه عسى ولعلّه يؤوبُ إلى رُشدهِ ويثوب إلى صوابه، فآن له أن يتأمّل قليلاً ويمضي في جولةٍ شعوريّة ورحلةٍ عقليّة مع سِحْرِ الكلمات النديّة، ويتواشج مع جَرْسِ العباراتِ الرخيّة، ويتغذّى من رحيقِ الألفاظِ النقيّة، هذهِ دعوةٌ إلى المراجعةِ، من أجلِ إعادةِ التوازُن إلى ميزان مُختل، فهذهِ من المفاهيم التي ينبغي أنْ تُصحّح، والإنسانُ مدعوٌّ إلى مُراجعةِ الذات ومُخاطبة المشاعرِ والنزعات، والموازنة بين الثقافةِ المرئيّة المسطّحة والثقافة المكتوبة المحكّمة، ولا أدري على أيِّهما يقعُ اختيار القارئ أو المتلقّي.

وأنتهزُ هذه الفرصة كي أوجِّه رسالةً إلى الأساتذةِ والمدرِّسين مِمّنْ يكتبُون رسائِلَ قصيرة، أو يُعلِّقون على القضايا المثارة على شبكاتِ التواصُل الاجتماعيِّ، أن يكتبوا بلغةٍ فصيحةٍ صحيحة، حتّى يتعوّد المتصفِّحُون من الطلبةِ وغيرهم على الكتابة بلغةٍ سليمة سامية، "وكيلا لا نناقض أنفُسَنا بين أن نعلِّمَهم قواعِدَ اللغةِ ونحاسبهم عليها في الاختبارات، بينما لا نحافِظُ نحنُ على قواعدِ اللغةِ الصحيحةِ المطّردة في تعليقاتِنا وتقريراتِنا ومنشوراتِنا". وفي الختام نتمنّى أن تكون الـ(الفيسبوك) وسيلةً ناجعة للتواصُل الحضاريّ الراقي بين الشعوب والحضارات بحيث يشتركُ فيها نخبة من المفكّرين والمثقفين وأصحاب القرار من أجل تلاقح ثقافي وتبادُل معرفي وتجانسٍ حضاري بعيداً عن لغةِ الإقصاء والإلغاء والمصادرة❑

ثقافة

الأدب النسوي في كوردستان



نوري بطرس

مازال الخطاب النسوي في كوردستان في بداية الطريق، يرسم خطوطه العريضة تجاه المتغيرات الحالية في ساحة الأدب الكوردي بعد مرحلة السقوط. وهذا القول يفسر مدى الصعوبات التي تعترض سبيل الكاتبة، التي ترفض الوقوع في شرك الصورة النمطية المرسومة لها من قبل المجتمع الذكوري، ذلك المجتمع المحكوم بأعراف وتقاليد موروثة ما زالت قائمة، وتجد نفسها محكومة أيضا بأدوار وقوالب بحكم انتمائها الأنثوي. وهذا يتطلب وجود منظمات جادة وقوية، نسوية، مدعومة من قبل طبقة المثقفين، الذين يؤمنون بعدالة القضية (١). والاتجاه النسوي الثقافي المعاصر في كوردستان، يختلف تماما عن الاتجاه العام السابق، إبان حكم الدكتاتورية، بعد بروز منظمات المجتمع المدني النسوية، ودورها في بناء العراق الجديد، والتنمية التي تدعم المجتمع. ورغم هذا، ففي مجال الأدب، فإن المرأة الكوردية قطعت شوطا لا بأس به في مجال الإبداع، مثل القصة والرواية والشعر. وإذا كان الأدب الكوردي عموما يفتقر إلى مدرسة نقدية، فإن الأدب النسوي هو الآخر يعاني من هذه الإشكالية، خاصة في قضايا السرد الأدبي(٢). وإذا كنا نستخدم مصطلح الأدب النسوي، فإنه ما زال هناك حالة عدم اتفاق بين الكتاب والأدباء والمثقفين في كوردستان بوجود هكذا أدب، على أساس أنه يشكل خلخلة في الثقافة الذكورية المهيمنة، وعدم وجود مرجعيات فكرية أو ثقافية تعمل عليها



المرأة، ومازال هناك خطوط حمراء لم تتجاوزها المرأة، بسبب التسلط الذكوري عليها، وهناك رؤية نسوية خاصة أدت إلى تكوين مرحلة لاحقة بأسلوب نسوي، فظهرت كتابات لها صفات ومميزات تختلف عن الكتابة الذكورية في الكثير من الاتجاهات التي اقتحمت تفاصيل الحياة. والصورة التي تسعى إليها في هذا المقام هو تشخيص أنماط المرأة في الأعمال الأدبية، كالرواية والشعر، وكيفية التعامل مع موضوعات أو تجارب أنثوية بحتة، لا يتعرض لها الرجال، وما زال الأدب النسوي يعاني من عدم وجود قارئات نسويات، أي أن المتلقي ما زال غائباً(٣). أما المهم الآخر، فهو إثبات وجود تجارب نسائية مستقلة، ومتميزة، في أنماط التفكير، والشعور، والتعبير، والإحساس بالذات. والكتابة النسوية أيضاً، لها لغة مميزة في مجال السرد القصصي، والروائي. وهذا الأسلوب النسوي له دلالاته الخاصة في صياغة الصور والكتابات، وهذ الميزة منحت بعض الكاتبات فرصة للولوج إلى عالم الإبداع، رغم أن النقاد في مجال الأدب يعتقدون أنه لا يرقى إلى مستوى الأدب الذكوري، ولا حاجة إلى وجود نقد أدبي أنثوي، وهذا يعود إلى شحة النتاج النسوي في كوردستان، مقارنةً بعطاء الرجل، والسبب يعود إلى كون المرأة لم تمنح لها الفرصة لكي تمارس حقها في الحياة الثقافية. ولكن رغم ذلك، برزت أسماء نسوية أثبتت جدارتها، وأصالة منجزها الثقافي الإبداعي. ففي المجال الروائي، هناك عدد من المبدعات،



مثل الكاتبات: (كلاويز صالح)، (كليزار أنور)، (شيرين كمال)، (هيرو عبدالله كوران). كما في الشعر، مثل: (جنار نامق)، (مهاباد قرداغي)، على سبيل المثال. وهناك أسماء أخرى كثيرة في مختلف المجالات، أبدعت فيها المرأة، وروايات أصبحت لها شهرة خارج كوردستان، مثل الروايات المترجمة للروائية (كلاويز صالح فتاح)، التي ترجمت إلى اللغات الأجنبية، وكاتبات لهن شأن في مجال الترجمة، بالإضافة إلى أدب المرأة في المهجر. إن حالة عدم الاستقرار السياسي، وفقدان الأمن، مدى نصف قرن في العراق، أدى إلى ندرة التجليات الإبداعية البارزة في الوسط النسوي، في مجال الأدب والفن(٤). إضافة إلى ذلك، فإن نمط الحياة الأسرية، بعد زواج المرأة، لعب دورا كبيرا في إحباط تلك التصورات الإبداعية، كما أشارت (شيرين طاهر) على هامش (مهرجان كلاويز العاشر) بأن هناك أدبا نسويا، وأن المرحلة الحاضرة هي بمثابة انبعاث هذا الأدب، وخاصة في مجال الشعر. والمستقبل، كما أضافت (شيرين) سوف يشهد ولادة نساء يكتبن بجرأة عن كل ما يجول في دواخلهن، رغم أن الصحافة لا تهتم بالأصوات النسائية، وأن الشعر النسوي، على سبيل المثال، لم يصل بعد إلى مستوى يخوله لأن يصبح صوتا أو ظاهرة. فالمرأة حتى الآن لم تستطع الوصول إلى مستوى يخولها في أن تصبح ظاهرة بحد ذاتها، كما أن الوصول إلى ذلك الجذر مهم لكتابة قصيدة شعرية لدى المرأة الكوردية، وأن لغة الشعر النسائية باهتة، تصف معاناة المرأة في المجتمع برومانسيتها. وتقول (سلمى جبو) إنه من المؤمل، بعد أحداث ٩/ نيسان/٢٠٠٣، أن تتغير حياة المرأة نحو الأحسن، لكن التخلف الاجتماعي والثقافي هو من أهم المعوقات في هذا المجال. وتقول (كوثر دهام)، وهي الناشطة في مجال حقوق المرأة: بعد السقوط تغير دافع المرأة، بل إنه انقسم إلى اتجاهين، فمن جهة كان هناك حرص على حصولها على أكبر قدر ممكن من حقوقها، وفي الاتجاه الثاني أو المعاكس: فإن المرأة تعرضت إلى الكثير من الاضطهاد والعنف.


هيفاء زنكنة


گلاويژ صالح فتاح


سحر سليمان


شيرين .ك

وما حققته النساء في كوردستان، بتعديل (قانون الأحوال الشخصية)، قد أثر على نتاجات المرأة في كل المجالات، كما أن أغلب النتاجات التي كانت تكتبها النساء، من الرائدات في هذا المجال، ممن اكتسبن خبرة في إتقان الصنعة الأدبية في ميدان الأدب، بمختلف أجناسه، أو في مجال الفكر والفن، كانت ترتبط بتجارب التحدي في الواقع الاحتياطي الذي يدعو إلى التحرر، وهو مجال مفتوح على فضاءات واسعة، وانبثق من مخاضات حالات الاستبعاد والظلم. على أن النسوية الداعية إلى حرب الجبهات قد أفل نجمها، وهناك أمثلة على ذلك، ففي قصص (بئر البنفسج)، للقاصة (كليزار أنور)، نجد نسمات عراقية خالصة، تتسم بالورع والتسامح والصدق والبراءة والفضيلة والحق والخير والالتزام المذهل والمتعب، بما يدعم مشروعها المتواصل لتقديس الأنثى، والحياة، عبر السرد، وعبر السلوك الحياتي(٥). و(الصندوق الأسود)، روايتها الثانية، التي لم تر النور بعد، لكن نورها الإنساني يبرق واضحاً أمام أعين الكثيرين، حيث الحياة الإنسانية الحالمة، والحافلة بآلام الإنسان، بل بأفراحه، وأحزانه، وهواجسه، وشكوكه، وإيمانه، وقلقه، وإشراقته. وما يقال عن ثيمات الورع والخشوع والصدق الإنساني، ورسم حركة الشخوص، بما تحمله من عوالم وفضاءات مفتوحة، وصور الإبداع، التي احتوت مساحتها البيضاء مئات الذوات المبدعة، وقد حملته الكاتبة على أزميل السرد الهادئ الصادق، وهي ترسم على جدار القص لترسم لها اسماً وصورة في سماء القصة.

وفي قصص (عنقود الكهرمان)، نجد أن الكاتبة تعي الواقع الاجتماعي، حيث تلامس همومه وأوجاعه. وهذه المجموعة القصصية التي فازت بجائزة مسابقة الشباب الأدبية، وهي تتناول الهم

الإنساني، ورسم عوالمه، وشخوصه، وصولاً إلى شاطئ الأمان. وفي قصة (البيت القديم)، وهي القصة الفائزة على (جائزة أور) الإبداعية لعام ١٩٩٩، تتناول الكاتبة موضوع الرحيل عن الوطن، إذ تخبرنا بطلة القصة عن شريط ذكرياتها، الذي يأخذها إلى البيت القديم، ويسقطها في ألم هذه الذكريات. وفي قصة (على عجل)، تعود بنا (كليزار أنور) إلى تلك الحرب اللعينة، في عام ١٩٩١. بينما نجدها في قصة (ذكريات للبيع) تعود بنا إلى زمن الحصار، حيث كان معظم الكتاب يبيعون كتبهم، التي طالما كانت عزيزة على قلوبهم، من أجل لقمة العيش. وهكذا نجد في قصص (كليزار) الحنين إلى الماضي، وهيمنة الذكريات. وأهم ما يميز هذه المجموعة، أنها مكتوبة من زوايا متعددة، وأسلوب رفيع (٦).

وفي روايتها (عجلة النار)، هناك مدلولات وعلاقات نبيلة، وطنياً وإنسانيا، تتسع شخصية الكاتبة (كليزار أنور) هويتها القومية، ونتاجها القصصي، لحمولات ترمز وتشير على الدوام إلى وحدة الانتماء الوطني والحضاري والإنساني. وهي وإن كانت لا تشكل في هذا السياق فرادة لوحدها، إلا أنها متميزة في جدل رؤيتها الممتدة عميقا وسحيقا في التاريخ الحضاري للبلاد والمنطقة، وبناء عليه فهي رمز للتآلف الحضاري والوطني، عبر مضامين الرواية الإنسانية.

ورغم ندرة التجليات الإبداعية البارزة في الوسط النسوي الكوردي، في مجال الأدب والفنون المختلفة، وهو أمر يثير التساؤل، لأن الحضور الإبداعي للمرأة في هذه المجالات، لا يحتاج إلى ما يحتاجه في مجالات السياسة والاقتصاد والتسلط الاجتماعي. وكأن المرأة قد اكتفت في عالم الأدب والفنون، بدور الملهمة للأدباء أو الفنانين. ويبدو أن لنمط الحياة الأسرية في المجتمع العراقي، وكذلك في المجتمع الكوردي، بعد الزواج، دوراً كبيراً وأساسياً في إحباط التطلعات الإبداعية لديها في هذه المجالات، وإجهاض الاهتمامات الواعدة الناشئة لديها قبل الزواج. ولكن أسماء مثل (كلاويز صالح فتاح)، (هيرو عبدالله كوران)، (كليزار أنور)، لها وقع خاص.

إن الرواية النسوية في كوردستان وضعتنا أمام نماذج إنسانية مسحوقة ومغلوبة على أمرها، أما الخطوة الأكثر تطوراً، والتي يمكن أن نعدها قفزة في الانتصار لقضايا المرأة المنافسة، ومناقشة

وضعها التاريخي داخل بنى المجتمع، فإننا نجدها في روايات وقصص (كلاويز صالح فتاح)، و(هيرو عبدالله كوران)، و(شيرين كمال)، و(سوزان سامانجي)، و(سحر سليمان)، و(هيفاء زنكنة)، وغيرهن.

ومنذ القرأة الأولى لقصص (هيرو عبدالله)، ومجموعتها (حافات الموت – حافات الحياة)، تتبين هويتها الكوردية بوضوح تام في فضاءات يتجاوز فيها الموت مع النقيض، الذي يتمثل بالرغبة في الحياة، والبحث عن الهوية الكوردية، والدفاع عن الأرض والوجود معاً. ويمكن تصنيف قصصها على أنها تمثل أدب المقاومة، مثل قصص: (غزو)، (مرور)، (قرية)، (جمهورية)، (تضحية)، وغيرها، واستذكار لتلك الصور التي ناضل فيها الشعب ضد أدوات القهر والاستلاب، وحقيقة تبعث من هذه القصص كانبعاث طائر العنقاء من وسط الدمار والحرائق وأهرامات الجثث التي اغتالها الطغاة في مختلف العقود.

إن هذه القصص قد غلب عليها توضيف الموروث التاريخي الكوردي في مجال القصة الكوردية المعاصرة، ففي قصة (مرور) تصور أحداثاً وقعت في كوردستان في القرن الرابع ق.م، إبان مرور (زينفون) اليوناني، القائد العسكري، عبر الأراضي الكوردية، لمواجهة الجيش الفارسي. وفي قصة (غزو) هنالك أحداث وقعت في القرن الثامن ق.م، تصور غزو (آشور بانيبال) الأراضي الكوردية، ومقاومة الكورد في (مضيق بازيان). ونعود إلى قصة (الجمهورية)، التي تقع أحداثها في منتصف القرن العشرين، حيث تطارد الطائرات جموع الأكراد البارزانيين، الذين انطلق بهم قائدهم الخالد (مصطفى البارزاني)، هرباً من بطش الدول الثلاث المتاخمة: إيران والعراق وتركيا. أما قصة (التضحية)، التي تقرأ فيها أحداث نهاية القرن العشرين، حيث تقدم مجموعة الشبان الأكراد، تتقدمهم امرأة، لتقديم مذكرة احتجاج إلى (الأمم المتحدة)، من خلال ممثلية لها في إحدى المدن الكوردية، حول إغارة جيش إحدى الدول المجاورة على حدود كوردستان، والقصف المتواصل للمناطق الحدودية، مما أدى إلى هرب معظم سكان القرى الحدودية. من هنا نجد أن طروحات (هيرو عبدالله) على أرض الواقع الكوردي، من خلال توظيف الموروث التاريخي، هو أساساً لتحطيم كل عوامل الإحباط، وبناء حياة ملؤها الأمل

والتفاؤل والرغبة في ازدهار الحياة في ربوع كوردستان، وبناء مؤسسات الدولة، والعيش ضمن ملاذ آمن (٧).

في قصة (تلك المرأة)، لـ(شيرين كمال)، تضع المرأة في كل عيد نوروز باقة من النرجس أمام الصورة الكبيرة. حيث اعتمدت القصة على تداخل الأزمنة: من الزمن الحاضر، ثم العودة إلى الماضي، بعدها الانتقال إلى المستقبل. وقد أضفت نزعة الحداثة على الأسلوب السردي للقصة، وإضافة عنصر الحوار، والعلاقة المتداخلة بين صوت الراوي وصوت البطل، بحيث تعطي المجال للقارئ لتفسير تداعيات الأحداث.

وفي قصة (الحبيبة الآتية من حلبجة)، للقاصة (سوزان سامانجي)، فهي تحكي قصة هروب فتاة كوردية إلى المناطق الحدودية، تخلصاً من ظلم النظام الفاشي. وتعطي القاصة كل حدود التفاصيل الدقيقة، من أزمنة وأمكنة وشخوص وأحداث، توضح فيها حياة البيشمركة، والعوائل الكوردية، التي لجأت إلى المناطق الجبلية النائية، أملاً في النجاة من بطش القوات النظامية للنظام السابق.

وتتوضح مسيرة الحب في قصة (سحر سليمان): (الهجرة من القدر)، ذلك الحب الذي كان محرماً في الفترات السابقة، بسبب عنف التقاليد العشائرية البالية، والتي قيدت المرأة بسلاسل حديدية، لا تستطيع الفكاك منها. بينما نجد في قصة (حياة معلبة)، للقاصة (هيفاء زنكنة)، تلك الإشكاليات التي حدثت تباعاً بعد الزواج. وتصف حالة المعاناة الواقعية، التي يعيشها الفرد في مواجهة تداعيات الحرية، والانطلاق نحو آفاق مفتوحة ورحبة (٨).

إن كتابة المرأة الإبداعية في كوردستان يمكن أن تتطور إلى خصائص وسمات ظلت مغيبة طوال الفترة التي انفرد فيها الرجل بكتابة النصوص الأدبية. فهل يمكن أن يتغير هذا الأمر، وأن تشاهد ولادة جديدة للأدب النسوي في كوردستان، بعيداً عن السيطرة الذكورية؟. نقول إن المرأة الكوردية، ومنذ الأزل، تتوافر فيها الإمكانات الإبداعية، وإن الاعتراف بهذه الحقيقة يقودنا إلى تبديد الكثير من المفاهيم التي ترافق الحالة المعاصرة، والجدالات المتصلة بالمرأة في مجالات متعددة ومتنوعة، والتي ظلت مطمورة بسبب شروط اجتماعية معينة، أو نتيجة فهم محدد لموضوع الإبداع، والتعبير عن القيم الحياتية، تتعدى السياق الآني (٩).

ومنذ فترة السبعينيات، عندما برزت

أقلام نسائية في كوردستان، في مجالات الشعر والقصة، اتخذ النقاش في هذه الظاهرة الإبداعية المكتوبة، ومع المسافة الزمنية نقترب اليوم أكثر فأكثر نحو ترسيخ مفهوم إبداعات المرأة الكوردية، في مجالات الأدب، كما في المجالات الأخرى (١٠).

ومجموعة (هيرو عبدالله كوران) الأخرى، وهي بعنوان (صفحات من الشرق)، تتضمن القصص الآتية: الثأر، عربة بحصانين، ثلاث فصول، الخريف، الشتاء، التقاعد، لن يصبح ابنه أبداً، الصرخة المزدوجة، حبات القرنفل، شمس الظهيرة، المجابهة، صفحات من الكتاب، امرأة، الليرة، وماذا بعد، ليالي الشتاء، البحث عن القصة. وهي قصص بمجموعها تبحث عن الهموم الإنسانية، والعلاقات الاجتماعية، وتداعيات البحث عن الملاذ الآمن في النفق الطويل المظلم، حيث كوابيس الماضي، وإفرازات الحاضر، وهي قصص تدعو المتلقي إلى التعاطف، مع معاناة تلك الشخصيات، التي رسمت بحذر شديد، وهي مواقف مختلفة تصب في النهاية إلى التوق نحو الحرية والقيم النبيلة والولوج نحو سبل السعادة والطمأنينة. وصوت المرأة الإبداعي هو قطيعة من ماض طويل، لم تكن شروطه المادية، وعلاقته الاجتماعية، تتيح للمرأة أن تمارس الإبداع. والكاتبة هنا تستبطن تجاربها الحياتية في واقع معاش، تجعلها تتخلص من القيم الذكورية. كتابة المرأة هنا تحرث في أرض شاسعة، وهي تضيء مناطق وفضاءات مغيبة لفترة طويلة.

وهذا ما يدعونا إلى القول إن هذه التحولات في كتابات المرأة الكوردية، إنما تحاول هدم الكثير من الأحكام المسبقة تجاه المرأة، يأخذ طابع الإلحاح والضرورة، باعتبارها خصوصية اجتماعية وتاريخية، تضمن لها أن تكتب باتجاه أفق مغاير، يستنطق، ويستوحي، ويشكل عوالم طالما لفها النسيان والصمت(١١) .

إذا كانت المرأة الكوردية محاصرة ذهنياً وعملياً، بهذا الكم الهائل، الذي يتدفق من كل صوب، من المفاهيم والمعايير الجديدة والمستجدة عليها، فهي لا تنكر أنها ضحية نقص معرفي شديد متعمد، إضافة إلى بقية النواقص المعروفة، التي تنهش استحقاقاتها الإنسانية.

وفي رواية (كنة آته خان)، للكاتبة (كلاويز صالح فتاح)، يتأسس السرد على الجزء الملحوظ، المستند على قاعدة الابتعاد عن التصريح المباشر، والاكتفاء

بالتلويح، بما فيه من تجليات فكرية وجمالية. وما نقصده هنا أن الرواية ليست تلك الثيمة الفكرية وحدها: علاقة الحماة الكوردية مع كنتها الإنكليزية، وإنما هناك ثيمات لم يأت الإعلان عنها، باستخدام الضجيج الذي يحوّل النص الأدبي إلى نوع من التعبير يمارس فيه العسف، الذي يتم عن طريقة تحويل النص إلى الحافة السياسية التي لا طائل من ورائها. وفي الوقت الذي نتفق مع من يرى بأن الرواية فيها من التقريرية والوصف ما يمكن أن يعد عبئاً عليها، إلا أننا نقول إن الكاتبة تتعقب الحقيقة، كما لو كان يعمل الباحث الأركيولوجي في الموجودات في المكان الذي يبحث فيه، مع ما فيها من مقاربات إبداعية تقول إنها عبارة ثنائيات الشرق والغرب، فهي تدعو إلى التحرر، إلى جانب ما تفضح عنه في المجال الواقعي، التي تصور فيه عالمين متناقضين بين المرأة الكوردية، وهي شرقية، وبين الإنكليزية الغربية، وما يصاحب ذلك من تناقض في الحياة، والمعيشة، والتعايش، والعلاقات الاجتماعية، وما فيها من صراع الأضداد(١٢).

ويقول رأي آخر، بأن الرواية محاولة جريئة للتأمل في السرد الكوردي، القادر على جمع عناصر التراثية والشعبية لأمة تنتمي، وبقوة، إلى المكان الذي تتفتح فيه الحرية. وقابلية الكاتبة في تحويل السرد إلى واقع، والواقع إلى عمل فني، في نقطة مشتركة تجمع هذه الثيمات. إنها عكست صورة عالمنا الكوردي، بعمق وصدق. وإن هذه الرواية تمثل أفضل نموذج للواقعية الاجتماعية. وهو نص قائم على تواصل الحوادث، وتبادل المنافع، والمعلومات، كنوع من الاحترام للإنسان، والعقل، والحرية، في عالم تسوده العدالة والمساواة، ورسم صورة الإنسان والواقع والحياة. هذا ما ترنو إليه الكاتبة في طروحاتها الروائية، وهي تحاول توفيق الموروث الحكائي التاريخي، بعناصره الحيوية، وتراكماته على مستوى التاريخ، والإحساس بالفواجع والكوارث، على اعتبار أن المعرفة في الأساس هي البحث عن الحقيقة (١٣).

ولاشك أن مسارات الرواية تشهد تحولاً هاماً في إعادة وصف الحياة، وتحولاتها الجوهرية، وبإمكانها الدخول في التفاصيل الحياتية الدقيقة، بطريقة جمالية وإنسانية. لقد تخلصت الرواية من ترهلاتها وتعقيداتها، ودخلت مباشرة في موضوعاتها، خاصة تلك التي كتبتها النساء، وهي الكاتبة التي يتجسد فيها

فعل التوازن، بين الصوت الداخلي الذي يحاول أن يفتح داخل المرأة المكبوت، نتيجة لعالم القسوة والخوف، يضيء مثل الشمعة داخل قلبها، غاصت فيه حتى الأعماق، وحاولت أن تمازج بين ما هو ذاتي وأنثوي في بنى سردية متباينة، تعبر عن قسوة التجربة التي تعيشها المرأة.

ولعل رصد النتاج النسوي الأدبي في كوردستان، وإبداعاته، يمكن رصده من خلال تلك الخصائص التي تميز بين أدب المرأة وأدب الرجل، في ظل ثقافة ذكورية، كانت سائدة لقرون طويلة في كوردستان. فإبداع المرأة لا يتطور بمعزل عن السياقات الثقافية المختلفة (١٤).

إن فعل الكتابة لدى المرأة، سواء أكانت معنية بقضايا وجودية نضالية، أم منغمسة في كتابة ذاتها. هذا الفعل هو تحقيق لرؤية حال المثقف، حيث نرى أن المثقف، رجلاً كان أم امرأة، إنسان مستقل عن مركز السلطة، معارض لها، يريد تحطيم الأفكار التي تختزل الإنسان في صفة واحدة، فللمثقف القدرة على تمثيل ذاته، وتمثيل العالم في خطاباته وكتاباته (١٥).

تبقى الروائية (كلاويز صالح فتاح) مخلصة للوقائع والأحداث التي شهدها التاريخ الكوردي، وكفاحه السياسي، منذ بدايات القرن العشرين، وحتى قيام الانتفاضة في آذار ١٩٩١، مسجلة بذلك موقف المرأة، والتضحيات التي قدمتها في تلك الفترة. ولطالما عرفت في رواياتها العشرة المنشورة، والتي ترجم العديد منها إلى اللغة العربية، بأثر تلك الذكريات التي اختزنتها في ذاكرتها خلال سني حياتها التي قضتها في الجبال والكهوف، وفي المنافي وبلاد الغربة، لتقدمها بعد ذلك في مقتطفات في الندوات الأدبية والسياسية في (لندن). وذلك ما يجعل نتاجاتها متألفة مع قارئها، بأسلوب تضفي عليه الواقعية النقدية(١٦).

إنها تتحدث عن تلك الذكريات بوصفها شهادة عن أمكنة وأحداث وشخوص مرت بها الأسر الكوردية، في السليمانية وأربيل وكركوك وبغداد، وفي مراحل تاريخية صعبة مر بها الشعب الكوردي في تاريخه الحديث. ففي قصتها الطويلة (عابر سبيل هائمة)، تمجد الروائية (كلاويز صالح) الدور الإنساني والبطولي الذي لعبه عدد من المناضلين الكورد، وبأسماء شتى، في مناطق مختلفة في العراق، سواء في كوردستان، أو في مدن العراق الأخرى. فنجد الشخصية المحورية في القصة: (وەنەوشە) التي

تهرب من المجهول، هربها المباغت من منزل خالتها، هذه الخالة الطيبة في ظل زوج متعاون مع السلطة الفاشية. وأن تركها لخالتها، بسبب عمالة زوجها للنظام ليس إلا. والقصة تسرد أحداثاً تقود أبطالها إلى مصائر مجهولة، في ظل نظام سياسي لا يعترف بالقيم الأخلاقية والإنسانية، ولا يتفاهم إلا بلغة الحديد والنار مع شعبه، لغة الإبادة والمقابر الجماعية، والأسلحة الكيمياوية، والقمع(١٧).

على أن أول رواية كتبتها (كلاويز) كانت (نحو كهف المقدامين)، في ظل ظروف عاشتها مع البيشمركة في المناطق الجبلية، وهي تقع في ٥٠٠ صفحة، وطبعت في أوروبا في عام ١٩٨٨، وترجمت إلى اللغة الفارسية باسم (جمهورية في الجبال)، وإلى اللغة الإنكليزية بعد ذلك (١٨).

تنتمي رواية (الأم والابن) للكاتبة (كلاويز)، إلى تيار الواقعية النقدية، وتعكس الصورة الحقيقية لواقع الشعب الكوردي، إبان حقبة الخمسينيات في القرن العشرين، وهي تتمثل في حس نقدي واضح تجاه الأحداث السياسية التي شهدها العراق في تلك الفترة. وفيها من العناصر والمواد الروائية، وأزمنة وأمكنة وأحداث وشخصيات ترتقي إلى الحدث الروائي، حيث تدور الأحداث حول شخصية كوردية مناضلة، قضت سنوات طويلة في سجون كركوك والموصل. ليعود بطل الرواية (كاكه حمة) أخيراً إلى بيته في السليمانية، بعد إذاعة بيان رقم واحد، وسقوط النظام الملكي في العراق عام ١٩٨٥(١٩).

وفي روايتها (العالم غابة)، تقارن الروائية (كلاويز) بين حياتين: حياة ملؤها البذخ واللامبالاة، وحياة السذاجة والحقيقة المرة، في العالم الكوردي المعاصر. حياة الكوردي البسيطة بكل تداعياتها ومفارقاتها في قصص أولئك الشخوص، الذين يعيشون على هامش الحياة. وهنالك تشابه بين رواية (العالم غابة)، وبين رواية (حيدر حيدر): (الزمن الموحش)، حيث مرارة الحياة في مجتمعات تحكمها قوانين وشرائع ملغاة أساساً، فالرواية تغص بالأحداث المؤلمة، من خلال أسرة، وواقع شعب، وذلك في لغة جميلة وممتعة (٢٠).


سرفراز نقشبندي

والروائية (كلاويز) تظهر هنا وهي تحمل فكرا إبداعيا، ومتمسكة بصيغ جمالية في طرحها، وهي تبحث في مضمون الضغوط التي تعيشها، وتأخذ بهامة الشموخ لحياة المرأة، التي شقت صلب الحياة، والواقع الذي تقع بين ثناياه. في وصف كامل عن المكان والحدث، والسرد يدخل في مجمل تجربتها، كمؤلفة روائية تعمدت إبراز الجانب الإبداعي في وصف حركة الأفراد الذين يتحركون ضمن الحدث الروائي، وتنسج شخوص روايتها من عوالم متعددة. فالأحداث تجري في شكلها التعبيري عن المرأة، أضفت شيئاً من القلق في عنصر التشويق، ومشاكسة المدرك من الخيال، بل رسمت بانوراما دقيقة فيما يصاحب شخوصها والحالات النفسية التي تعيشها من الداخل، وتعتمدها من الخارج، دلالاتها الظاهرية تتغذى على ما يحوك في أساليب حياتية تدخل في شكل البيئة و مرجعياتها الموروثة، والمحكي عن الحياة الكوردية. مما يوحي للقارئ أنها في رواياتها تثبت صورة واضحة لأسس الإبداع في الثقافة الكوردية، كنوع من السيرة، ليس فقط داخل الإقليم، بل داخل عموم الحياة المحيطة، معتمدة على ذاكرتها التوثيقية لتاريخ شعب امتزج مع ثقافات مختلفة في توثيق متشابك بالثقافة الإنسانية، مع وجود النضج في التجربة، محملة روايتها السرد الواقعي لحبكة فيها سارد ممسك بتيار شعور أبطال الرواية. وهذا ما يؤكد رؤية الكاتبة في امتلاك الوعي الزماني والمكاني، المدرك الوصفي، وعملية الحبك، وهيكلية جسم الرواية المناسب، بثقة كاملة على جسد الأدب الروائي، واضعة في حساباتها أن المرأة لا يفهم همومها غير المرأة. وبذلك نقول إن (كلاويز صالح فتاح) هي إحدى أبرز الروائيات الكورديات، حيث صدر لها رواية (كهف الشيطان) بأجزائها الثلاثة، ورواية (أجنحة طائر الرخ)، وأوراق من السيرة الذاتية، كما لها قصص خاصة بالأطفال (٢١).

ولا بد من أن نشير إلى الروائية الكوردية المغتربة (سرفراز علي شيخ النقشبندي)، وهي أول امرأة تصبح رئيسة تحرير، وصاحبة امتياز، لصحيفة في كوردستان (جريدة ولات)، ومثلت كامرأة وكاتبة كوردية في نادي الكتاب العالميين لأربعة أعوام، وشاركت في المؤتمرات العالمية، وتعيش حالياً في (برلين). ومن أعمالها : (بةلين)، وهي نصوص فلكلورية ١٩٨٦، ومجموعة قصص باللغة الكوردية: (ئةز هةبووم وتو نه)، ومجموعة قصصية بالعربية، هي (الرهان)، ومجموعة قصصية أخرى بعنوان (بروقالا)، ورواية طويلة بعنوان (لغم في الاحتساء)، في ٦٠٠ صفحة. ولها كتاب: (حوا الأدب الشعبي)، مطبوع في (برلين)، وآخر حول أدب الأطفال بين التراث والحداثة. وهي تعمل حالياُ في كتابة رواية، بعنوان (أمة دامعة القضية)، تحكي الحياة الاجتماعية والسياسية لمنطقة بهدينان، وبالأخص منطقة (بامرني)، وما فيها من أحداث تاريخية. (٢٢)❐

المصادر والهوامش

١- ثريا برزنجي: النسوية العراقية والفوضى الثقافية: الآخر هو مكمل. التآخي، العدد ٤٩٧٣ في ٢٠٠٧./٣/١

٢- كازيوه صالح: هل تستطيع المرأة الكوردية جعل قضيتها عالمية في ظل نظام العولمة؟ التآخي ، في ٢٠٠٤./٧/٢٥

٣- الكاتبة كقضية والذات كوسيط: اتجاهات ثقافية، بقلم إبراهيم جاد الله، العدد ٣٠٣ في ٢٠٠٦./١٢/٢٣

٤- هويدا صالح: مقاربة نقدية لأعماق الأنثى المنسية، اتجاهات ثقافية، العدد ٣٠٩، في ٢٠٠٧/٢/١٠.

٥- علي حسين عبيد: قداسة السرد الإنساني في قصص كليزار أنور، الاتحاد، العدد ٢١٣٨ في ٢٠٠٩./٦/٤

٦- عنقود الكهرمان: كليزار أنور . طريق الشعب في ٢٠٠٧/٣/١٤. وينظر أيضاً مقال (هدية حسين)، وهو بعنوان: هيمنة الذكريات في قصص كليزار أنور، الصباح الجديد، العدد ٨٤٧ في ٢٠٠٧/٤/٩.

وينظر أيضا: فخري أمين، قراءة في رواية (عجلة النار) لكليزار أنور، التآخي، العدد ٤٦٩٢، في ٢٠٠٦/١٢/١٦. ومقال كاظم حسوني، حول (عنقود الكهرمان)، في جريدة الزمان، العدد ٢٤٨٤ في ٢٠٠٦/٨/٢٤.

٧- يوسف يوسف. فضاءات الموت والحياة.. قصص الحافات. الاتحاد، العدد ١٦٩٥ في ٢٠٠٧./١١/٥

٨- هاوزين عبدالخالق: قراءة في مجموعة قصص نسوية كوردية، سردم العربي، العدد

١٤ في ٢٠٠٦.
٩- بختيار علي، هل بدأ عصر الرواية الكوردية، الصباح الجديد، العدد ١٢٧٦ في ٢٠٠٨./١٠/١٣
١٠- عبد الرضا جبارة، الملامح النقدية في الأدب الكوردي، التآخي، ٤٣٤٨ في ٢٠٠٤./١١/٤
١١- هيرو عبدالله كوران، صفحات من الشرق، مجموعة قصصية، السليمانية، ٢٠٠٦.
١٢- يوسف يوسف، طبقات السرد والمقترب التأويلي، الاتحاد، ٢٠٥٣ في ٢٠٠٩./٢/٢٢
١٣- لقمان محمود، الروائية كةلاويز صالح فتاح في كنة آتة خان، الاتحاد، العدد ١٩٥٩ في ٢٠٠٨./١٠/١٨
١٤- الملا أبو بكر، كنة آتة خان، قصة كوردية طويلة عن إعادة وصف الحياة وتحولاتها، الاتحاد، العدد ١٩٥٥ في ٢٠٠٨./١٠/١٣
١٥- فتح الله الحسيني، تعدد الأمكنة والزمن الأوحد في قصة كنة آتة خان للقاصة كلاويز، الاتحاد، العدد ١٩٦٧ في ٢٠٠٨/١٠/٢٧.
١٦- لقاء مع الروائية كلاويز، أجرته كزال أحمد في فضائية كوردسات، ونشرته جريدة الاتحاد، ترجمة عبدالكريم شيخاني، عن كوردستاني نوي. الاتحاد، العدد ١٢٨٤ في ٢٠٠٦./٩/١٠
١٧- نفس المصدر السابق، كزال أحمد.
١٨- نفس المصدر السابق، كزال أحمد. وينظر أيضاً مقال بعنوان: الروائية الرائدة كلاويز صالح فتاح، إبداع من أجل الحياة والحرية والتاريخ، المدى الثقافي، العدد ١٣٦٠ السنة السادسة ٢٠٠٦./٦/٤
١٩- الأم والابن: رواية الكورد المضطهدين في العراق، بقلم: عدنان حسين أحمد، الاتحاد، العدد ١٩٦٥ في ٢٠٠٨./٥/١٢
٢٠- فتح الله الحسيني، الأسى الكوردي الطافح في رواية (العلم غابة) للروائية كلاويز، الاتحاد، العدد الصادر في ٢٠٠٨./٥/١٢
٢١- رحاب حسين الصانع، قراءة تحليلية نقدية لرواية العالم غابة للكاتبة الروائية كلاويز، جريدة الأمة العراقية، العدد ٢٥٥ في ٢٠٠٨./٩/١٥
٢٢- حوار مع الباحثة والروائية سرفراز النقشبندي أجراه عباس عبدالله يوسف. التآخي العدد ٤٢٩٨ في ٢٠٠٤/٨/٢٦.

نوري بطرس عطو

- عضو البرلمان العراقي سابقاً.
- عضو نقابة صحفيي كوردستان.
- عضو اتحاد الأدباء والكتاب في العراق.
- عضو اتحاد الأدباء والكتاب السريان في العراق.
- عضو اتحاد برلمان كوردستان.

نسخةٌ من خطابٍ مكررٍ
مشهورٍ في كتبِ التراثِ الجاهلي

يا أبناءَ الشَّعب
أنتم السابقون إلى غبارِ كلِّ حربٍ
ونحن الراكضون
خلفَ بريقِ أوسمتِها.
لكم السَّمـــــــــــــاءُ كلِّها أمامَ أنظارِكم
فَتمتَّعوا بزرقِتِها
ولنا بضعةُ قصورٍ وجناتٍ وعيون تحتها.
لكم مناديلُ الوداعِ البيضِ – ما أجملها –
ترفرفُ عالياً
خلفَ أبنائِكم في كلِّ حرب
ولنا سلةُ مهملاتٍ نُقدِّمُها مجاناً
لدموعِ الأمهات.

لكم ترابُ البلادِ كلِّها
– على الخريطةِ –
ولنا الأرضُ كلِّها التي تمشونَ عليها.
أنتم الفيـــــــــــــــــــــلُ
الذي سننتصرُ بِهِ على الأعداء
ونحن أصحابُه.
فَسِيروا..
إلى الأمام
ولا تتوقَّفوا.. أبداً
لأنَّ كاميرا التاريخ
لا تُحبِّذُ اللقطاتَ الثابتة..
أو (الفلاش باك..) ❐

د.أحمد جارالله ياسين



هل هي نعمة أم نقمة؟!



د.يحيى عمر ريشاوي

الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، وغريزة العيش مع الآخرين متأصلة في أعماقه، وقد قيل الكثير عن طبيعة هذه العلاقة، وآثارها على التجمعات البشرية، بصورة قادت العقل البشري إلى طرح النظريات وتأليف الكتب حولها، حتى وصل الأمر إلى أن تتحول دراسة هذه الظاهرة إلى علم مستقل، يدرس في الجامعات والمعاهد.

وحين نبسط فلسفة هذه العلاقة الاجتماعية إلى علاقات التزاور والترابط الاجتماعي، أو نعنونها تحت مسميات القرابة، والمشاركة في النشاطات الاجتماعية، أو طبيعة الالتزام بالأعراف والتقاليد، فإننا دائما نكرر أن المجتمعات الشرقية، أو الإسلامية، تختلف عن المجتمعات الغربية باهتمامها الشديد بالعلاقات الاجتماعية، وننظر إليها كجانب مشرق وإيجابي، وكيف أن المجتمعات الغربية غارقة في الحياة المادية، ولا تعير هذا الجانب أي اهتمام ! نحن ننتقد المجتمعات الغربية في سلوكها الاجتماعي، وطبيعة العلاقة التي تربط العائلة الكبيرة، وكيفية تعاملهم مع الأعراف والتقاليد الاجتماعية.

ولكن حين ننظر بعمق إلى طبيعة العلاقات في مجتمعاتنا، فإن هناك الكثير من المظاهر الاجتماعية الغريبة و(المزعجة)، والتي نتعامل معها مكرهين، أو فرضتها علينا التقاليد الاجتماعية، وكلها خطأ في خطأ. وبدل أن تكون هذه العلاقة الاجتماعية وسيلة لإشاعة المحبة والود، نجدها قد تحولت إلى حمل ثقيل، يعاني الجميع من تبعاته وآثاره. ولنضرب مثالين (للذكر لا للحصر) حول كيفية تعاملنا مع بعض هذه المظاهر الاجتماعية:

هل يحتاج الزواج، كنشاط اجتماعي، إلى هذا البذخ والترف الزائدين ؟! إلى متى ننفق ملايين الدنانير على طقوس وتقاليد مصطنعة حول زواج، الله أعلم إن كان سيصل إلى بر الأمان، أم ينتهي إلى فراق وطلاق ؟!

إلى متى نهمل أصول الاستئذان في الزيارات الاجتماعية، في حين أن وسائل الاتصال في عصرنا الحاضر صارت أسهل من السهل، وحتى متى نتصنع في الضغط على الضيف كي يأكل، ويأكل، ويأكل.. إلى حد التخمة؟!

نحتاج إلى مراجعة نقدية لهذه الظواهر الاجتماعية، وغيرها، والتي إن تمعنت فيها، فإنها بعيدة كل البعد عن تعاليم ديننا، دين التيسير لا التعسير، دين الأتكيت والاستئذان.. لا دين النفاق والتكلف، اللذين ما أنزل الله بهما من سلطان!❑

تراجم عراقية

- وترجَّل الفارس أخيراً

نشأة غفور سعيد

وترجَّل الفارس أخيراً

الأستاذ المربِّي نوري عبدالله صالح ئاغجەلەرى

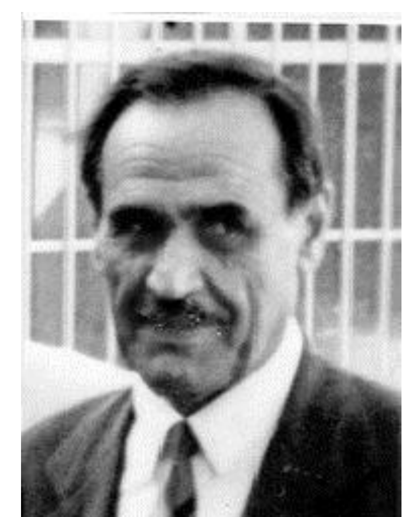


نشأة غفور سعيد

✍ قبل أن يرفعَ المؤذِن صوتَ الحقّ والإيمان فجرَ يوم الإثنين الموافق ٢٤/ ١١/ ٢٠١٤م، في الثاني من صفر ١٤٣٦هـ، جاء الوعد الحقّ مع أستاذنا المربِّي الملا (نوري عبدالله ئاغجلري)، ثالث فرسان لجنة الترجمة والتحقيق للرابطة الإسلاميّة الكُرديّة.

فقد رحلَ الداعية الكبير (عمر فتّاح ريشاوي) فجر يوم الخميس ١٨/ ١٠/ ٢٠٠١، وصعدت روحهُ الطّاهِرة إلى بارئها، وهو يستعدُّ لصلاةِ الفجر، وله الحقّ على طُلّابهِ ومُحبيّهِ أن يخلدوا ذكراهُ ويجمعُوا بصماته في الدعوةِ إلى الله، والتوجيه والإرشاد الإسلاميّ المبارك، في عمرهِ المديد، فقيهاً ومعلِّماً ومُدرِّساً وداعية إلى الله – سُبحانه وتعالى – بامتياز، كما فعلَ إخوان كركوك مع شبيهه في الدعوةِ والعقيدة، أستاذنا الكبير (سليمان محمَّدأمين القابليّ) (شيخ دعاة كركوك) رحمة الله عليه. فمن الوفاءِ، وحسنُ الخُلق، أن نعرِّفَ الجيلَ الحديثِ بدُعاةِ الرّعيل الأوّل، وعلى رأسِهم في السليمانية، الداعية المفكّر (عمر فتّاح ريشاوي) (رحمة الله عليه). وكان ثاني الفُرسان، صاحب القلب الإيماني الصّافي، والعمل الصّالِح، الأستاذ المعلّم (غفور أحمد كاني سبيكةيى)، والذي رحلَ عنّا ظهيرةَ يوم الإثنين ١٩/ ٨/ ٢٠١٣م، في الثاني عشر من شوّال ١٤٣٥هـ، وقد كان صاحِب العقل النيِّر الكبير، والفكر المتّقد، والإيمان العميق الرّاسِخ، والحريص على خدمةِ الفكر القرآنيّ، في ترجمةِ (الظاهِرة القرآنيّة) للمفكّر الإسلاميّ (مالك بن نبي)، والمباشرة في ترجمةِ

(كيف نتعاملُ مع القُرآن) للعلاّمة (يوسف القرضاوي)، وحملنا الوصية بالمضي قُدماً لإنجازِ ما تبقّى من أبواب الكتاب، ووضعه في متناول المسلمين الكُورد، ليغرس في قلوبهم محبّة كتابِ الله، كما كان مغرُوساً في قلبهِ وعاطفته وثقافته وجهادهِ الدائِب، (رحمة الله عليه).



وترجّل الفارس الثالث، أستاذنا المربِّي، المتمكّن من اللغتين: لغة القرآن الكريم (العربيّة)، ولغة قومهِ وأهلهِ وشعبه (الكُورديّة)، وكان متفانياً في خدمةِ لغة العقيدة والإيمان، ولغة الانتماء والتفاهُم. وكما كتبتُ عن العَلاقةِ الصميمة بالفارسَيْن في تأبينهما، أجدُ لِزاماً عليَّ أن أرثي أخي الكبير، وصاحب الفضل والعطاء، أستاذنا (نوري عبدالله صالح) (رحمة الله عليه).

مفتاحُ شخصيّة الأُستاذ (نوري الأغجلري)، أنه كان مُعلِّماً، وللمعلِّم مكانتهُ في الإسلام، والتاريخ الإنسانيّ. يقول المرحُوم أحمد شوقي:

قُمْ للمعلِّمِ وفِّهِ التّبْجيلا
كادَ المعلِّمُ أن يكون رسُولا

في الحديثِ أنَّ رسُولَ الله (صلّى الله عليهِ وسلّم) قال: (إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمَاً). حقّاً كان أُستاذنا مُعلِّماً، فقد شاهدتهُ في زياراتهِ الإشرافيّة يحملُ علماً راسِخاً، ومكانة عالية، وتوجيهاً صائِباً، وقدرة على الإجابة عن كُلِّ مُعضلة لغويّة. وعاشرته في الدوراتِ التربويّة في اللغة العربيّة، والتربية الإسلاميّة، مُدرِّساً مُختصّاً له مكانته السامقة، ومنزلته المرموقة، والاحترام العلميّ الرّصين، وملكاته الفائقة في أثناءِ الدّرس، أو عندما كانت الحلقات المتكررة حوله يستفسِرُون ويسترشِدُون ويأخذُون من علمهِ وفقههِ ودرايته.

لقد كنتُ معهُ تلميذاً ومُرافِقاً في جولاتِنا المشترَكة إلى الأقضية والنواحي، فكان مثالَ الملتزمِ بالوقت والمصاحبة والأُلفة واللطف في السفر، والأُنس في الطريق، والمعين في العِلْم والتوجيه والتوجُّه، وذكرياته ومكانته وتوجيهاته وسرعة بديهته محفورةٌ في الخاطِر. ومعالَم شخصيتهِ، وصورُها، شاخصة كأرقّ وأجملِ الصُور في التعاوُن والتكاتُف والتساند.

ومن معالم شخصيته الواضِحة، أنه كان مع الإصلاح والسّلام والاستقرار، والابتعاد عن الإيذاءِ بالعقوبات، وكم مرّة اشتركْنا في اللجان التحقيقيّة، وفي المسائِل الشّائِكة التي تودي بصاحبها إلى التهلكة، فكان المنقذ والموجّه إلى الإصلاح، وصاحبُ التدبير السويّ في إنقاذ (المتّهم) من السقُوطِ في الهاوية، أو نيل عقوبات انضباطيّة رادِعة، وكانت له القدرة على إقناعِ الجميع بأن (الصُلْح خير)، وأن العقوباتِ الانضباطيّةَ ما وضعت إلاّ للإصلاح، وإننا تربويُّون قبل أن نكون قضاةً، وكانت مداخلاته دوماً تؤدِّي إلى إصلاحِ المقابِل، والحفاظِ عليهِ من الانحرافِ أو الانجراف نحو الخطأ، وكان يُنادي دوماً "الإصلاحُ أساسُ الحياةِ التربويّة" رحمةُ الله عليه.

ومنذ أوائلِ لقائِنا في دورةِ التربيةِ الإسلاميّة، عام ١٩٨١م، كان يتحدَّثُ عن "مخاطِرِ الإلحادِ،





وأهميّة الإيمان"، وكان يشيدُ بأهميّة كتاب (قصّة الإيمان بين الفلسفةِ والعِلْم والقُرآن)، للشيخ (نديم الجسر)، وكان يقول: يا ليتني أقدر - بحولِ الله - أن أترجمَ هذا الكتابِ إلى اللغةِ الكُورديّة، فإنَّنا جميعاً بأمسِّ الحاجةِ الفكريّة والعقديّة إلى مثل هذا الإيمان، فساندتهُ وشجّعته، وكانت ثمرة جهودهِ الفكريّة بعد إحالتهِ على التقاعُد كتابةُ الرّائِع: (داستانى ئيمان)، الترجمة الأمينة لـ(قصّة الإيمان)، فكان العنوانُ الكبير في مسيرته مع العلمِ والفقه والإيمان والتقوى، والكتاب من خيرةِ أنواع الزادِ الفكريّ لجيلنا والأجيالِ القادِمة، مع بقاءِ أهميّة الإيمان في حياةِ الإنسانِ، كما يقولُ الفيلسوف محمّد إقبال:

إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمان ولا دُنيا لِمَنْ لَمْ يَحي دينا
ومَنْ رَضِيَ الحياةَ بغيرِ دينٍ فَقَدْ جعلَ العناءَ لهُ قرينا

وخلالَ العقُود الثلاثة التي قضيتُها معهُ، مُشرفاً وأخاً وصديقاً، كنتُ أتزوّدُ منه في كُلِّ لقاءٍ ثمرةً وفائدة وحكمة.

وفي ختامِ هذهِ العَبْرة الصّادِقة، في وداعِ أخٍ عزيز على الجميع، أُردِّدُ مع المرحُوم أحمد شوقي:

دقّاتُ قلبِ الْمرءِ قائِلةٌ لَهُ
إنَّ الحياةَ دقائِقٌ وثوانِ
فارْفَعْ لنفْسِكَ بعد موتِكَ ذكرها
فالذِكْرُ للإنسانِ عمرٌ ثان

رحمة الله وبركاته على أساتذتنا الكرام: عمر فتّاح الريشاوي، وغفور أحمد كاني سبيكةيى، ونوري عبدالله صالح ئاغجلري، وصدق الله فيهم وفي أمثالهم: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(سورة الفجر، ٢٧- ٣٠).

إخوتي وأحبّتي.. يا نجومَ الصّحوةِ الإسلاميّة المباركة، ويا أقلامَ الإسلامِ الصّادقة البليغة، ويا بدور الليالي الصّافية في تاريخ الإسلام، سلام عليكم أيّام تلقيكم العلم من أساتذتكم الأبرار، سلام عليكم أيّام جهادكم الفكريّ في المدارس وأروقة المحاضرات والدعوة، سلام عليكم أيّام ولحظاتِ استقبالِكم الموت المحتوم، سلام عليكم في دنيانا الفانية، سلام عليكم في آخرتنا الباقية، سلام عليكم من ربٍّ رحيم.. سلام.. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته❑

انظر: مقالي عن الداعية (عمر الريشاوي)، صحيفة (يةككرتوو) العربيّة، العدد (٣٦١) بتاريخ ٢٦/ ١٠/ ٢٠٠١م، وعن العالِم (غفور كاني سبيكەيى)، في مجلة (هەيڤ)، العدد (٣١)، سنة ٢٠١٣م



- مختارات من وثائق موصلية في الحقبة العثمانية   د.محمد نزار الدباغ

مختارات من
وثائق موصلية في الحقبة العثمانية

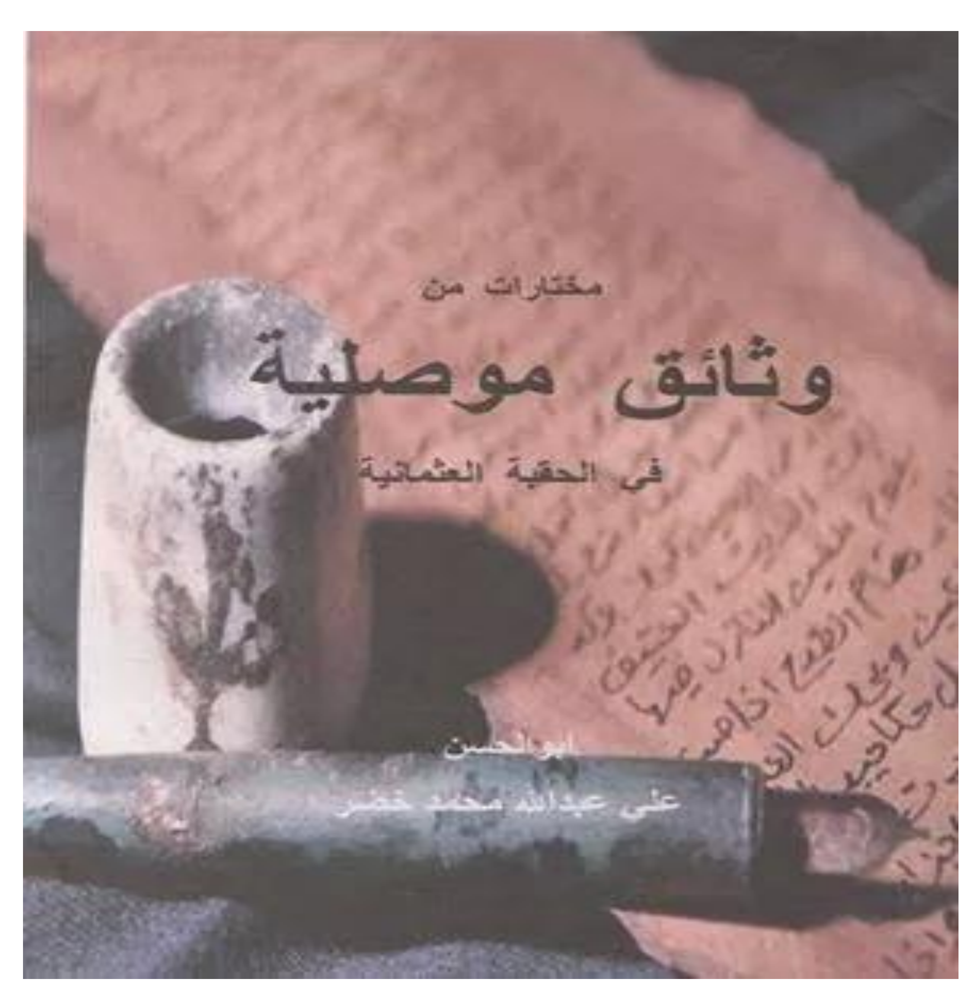


عرض: د. محمد نزار الدباغ

✍ صدرت عن مكتبة (ميسر النجماوي)/ شارع النجفي في (الموصل)، الطبعة الأولى من كتاب (مختارات من وثائق موصلية في الحقبة العثمانية)، سنة (١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م)، وفق رقم الإيداع (١٣) في (دار الكتب والوثائق) بـ(بغداد). ويقع هذا الكتاب تحت التسلسل (٢) من سلسلة تاريخ الموصل، الموثق من كتب المُؤَلِف، وبواقع (١٨٠) صفحة.

وقد ركز المُؤَلِف (علي عبد الله محمد خضر) في كتابه على بيان أهمية الوثائق، والاطلاع على أنواع الخطوط، مع الإحاطة بأصول اللغة، وبيان عائدية الكتاب، ليس من خلال الاعتماد على اسم المُؤَلِف فحسب، وإنما من خلال الأختام التي توثق أسماء المؤلفين أو المتملكين للكتاب.

وقد جاء في مقدمة الكتاب: إن أولى المراحل المنطقية في منهج البحث



التاريخي، هي عملية جمع المصادر والأصول التي تكون المادة الأساسية في كتابة أي بحث تاريخي، إذ لا تاريخ بلا وثيقة، ومتى ما ضاعت الوثيقة ضاع التاريخ. وقد اهتم الباحثون الأوربيون في القرون الوسطى بجمع الوثائق التاريخية، وفهرستها، وتصنيفها.

ولعل من أهم العلوم، التي تعارف عليها المختصون بمنهج البحث الوثائقي، هو علم الخطوط القديمة. فعلى الباحث أن يكون عارفاً بأشكال خطوط الوثائق التاريخية، وبحسب عصورها المختلفة،

كـذلك دراسـة نـوع الـورق، أو الـرق، والحـبر، وطـراز الخطـوط، وأنـواع الأقـلام التي تستعمل، والمصطلحات الخاصة بكل نوع، وعصر.

كما ينبغي على الباحث الوثائقي أن يكون عالماً بفقه اللغة، وعلم معاني المفردات وتطورها، فإن فهم نصوص الوثائق التاريخية، التي تكون مادة البحث التاريخي، يتوقف على معرفة الباحث التامة باللغة المدونة بها.

ويأتي (علم الأختام والطمغات) بمثابة العلم المساعد في البحث التاريخي، وهو ما يسمى علم دراسة الأختام والشارات والتواقيع (الرنوك)، وبه يستعين الباحث في تحديد أزمنة بعض الوثائق الخالية من التاريخ مثلاً. فضلاً عن ما يستنتجه عن العهد أو الزمن الذي يبحث فيه، من خلال أنواع الأختام والألقاب التي تحملها تلك الأختام، والشعارات والرموز التي تحتويها.

وقد بادر المُؤَلِف إلى جمع مختارات من وثائق موصلية مختلفة، كتبت في الحقبة العثمانية، اشتملت على مجموعة من الوقفيات الموصلية المختلفة، والتي كتبت بأسلوب أدبي خاص، يعبر عن الأسلوب المتبع في الكتابة في تلك الفترة.

فقد أوقف الولاة الموصليون، وبعض التجار والموسِرين، وقفيات خاصة، كمساجد ومدارس دينية، ومسابل المياه، وبعض الحمامات التابعة لها، ضمن شروطهم التي اشترطوها. ويستفاد من قراءة تلك النصوص، والاطلاع على فحواها، في معرفة طبيعة الأحوال المعاشية في تلك الحقبة، من خلال الاطلاع على نوع العملة المستعملة، وقيمة الرواتب التي كانت تدفع آنذاك للمؤذن والإمام، وغيرها من المصاريف. كما اشتملت هذه النصوص على وصف لبعض الأمكنة داخل المدينة القديمة، كأسماء بعض الخانات والأسواق القديمة، المندثرة حالياً، والشخصيات الموصلية الواردة ضمن تلك الوثائق.

كذلك اشتملت هذه المختارات على مجموعة من وثائق البيوع والمعاملات والقسامات الشرعية، والتي عادة ما كانت تسجل في سجلات المحكمة الشرعية بالموصل. وهي كتابات على شكل محاضر وجلسات، تكتب فيها حقوق الناس من بيع وشراء وميراث، وعادة ما تدعم بشهادات الشهود، وأختامهم الشخصية، ولها أسلوب أدبي خاص، وعادة ما تسمى بـ(مجلس الشَرع الشريف)، وغالباً ما تقع في ورقة طولية،

ويستفاد منها في الاطلاع على الكثير من التواصيف الدقيقة للأماكن والشخصيات الواردة ضمنها.

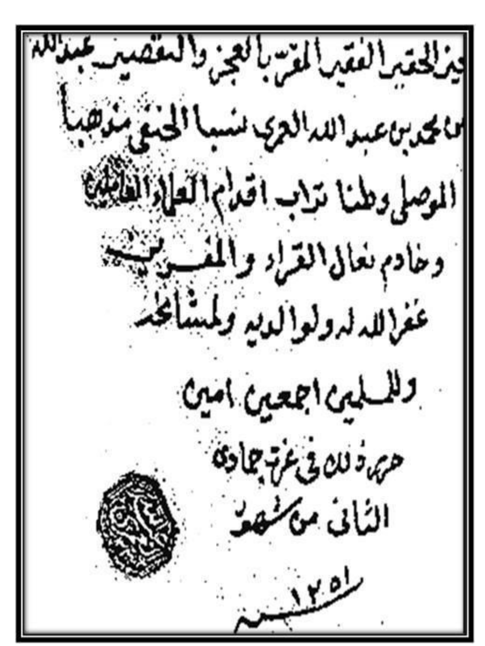
كما ضمت هذه المختارات بعض التواقيع للإجازات العلمية، والوصايا الصوفية، إذ تُعد الإجازات العلمية في ذلك الوقت أعلى شهادة علمية، ويمكن لصاحبها تدريس العلوم الشرعية والإفتاء.

وقد جمع المُؤَلِف أشهر التواقيع والأختام والرنوك، لأبرز الشخصيات الموصلية، وبعض خطوط وكتابات العلماء في تلك الحقبة. كما أضاف مُؤَلِف الكتاب بعض الوثائق القديمة لعوائل موصلية، وبعض الوثائق الخاصة بعائلته في آخر الكتاب.

وقد اشتمل فهرس الكتاب على مقدمة، وذكر لأهم الوقفيات الموصلية، منها: وقفية الحاج زكريا التاجر، ووقفية جامع العمرية، ووقفية عبد الرحمن أفندي الفاروقي، ووقفية حليمة النقشبندي، ووقفية يونس بك، ووقفية عبدالله بك، ووقفية محمود باشا الجليلي، ووقفية أحمد النومة، ووقفية الحاج محمود علي النومة، ووقفية النعمانية، ووقفية الصفار على زقاق الأغا، ووقفية التكية النقشبندية، ووقفية الأغوات الجليليون، وبراءة تمليك قرية قرقوش، ووقفية قرية قرقوش، ووقفية أحمد باشا، ووقفية حسن باشا، وأختام العلماء والوجهاء، ووثائق لعوائل مختلفة، ووثائق عائلة المؤلف. واحتوى الكتاب على نماذج مصورة للعديد من الوثائق والوقفيات والأختام، أوردنا نماذج منها في هذا العرض.

ومما يذكر أن المُؤَلِف من مواليد مدينة (الموصل) عام ١٩٧٧، وشارك في العديد من المؤتمرات والندوات الجامعية، وهو متخصص في البحث الوثائقي والمخطوطات الموصلية في العصر الحديث – والعثماني خاصة – فضلاً عن اهتماماته وتخصصه في الأنساب الموصلية الحضرية تحديداً. وقد حصل على العديد من الشهادات التقديرية، وله عدد من البحوث والمقالات المنشورة في مجلات جامعية محكمة. فضلاً عن أن له عدداً من المؤلفات، وهي: (شيخ العلوم في الموصل الحدباء)، و(موسوعة الأنساب والعوائل الموصلية)، و(كُتَّابُ المَوصِل المحلِيُّون، الجزء الأول)، و(خرائط الموصل: الموصل :دراسة تاريخية، مع ترجمة جديدة لمحلات مدينة الموصل، ودليل خرائط الموصل لأول مرة)، وله تحت الطبع كتاب (تحقيق منظومة الإسناد، لابن الخياط الموصلي)❒

نموذج لأحد الأختام الموصلية أسفل اللوحة في الجهة اليسرى


... الحقير الفقير المقر بالعجز والتقصير عبد الله
... محمد بن عبد الله العمري نسبا الحنفي مذهبا
الموصلي وطنا تراب اقدام العلماء ...
وخادم نعال القراء والمفسرين
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه
وللمسلمين اجمعين امين
حررت للثاني في غرة جمادة
الثاني من شهر
سنة ١٢٥١

نموذج لوثيقة موصلية



نموذج لوقفية موصلية



ليس العيب في الإخوان المسلمين؟



صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

تُعد جماعة الإخوان المسلمين أم الحركات الإسلامية في العالم، ولها جذور ممتدة مترسخة متأصلة، وشعبية قوية، داخل العالم الإسلامي. والجماعة لها فروع في أكثر من ٩٥ دولة على وجه المعمورة. واليوم، وفي أكثر من بلد، تواجه هذه الجماعة إرهاباً شرساً منظماً ممولاً، من قبل بعض دول المنطقة، وفي ظل صمت (متعمد) من قبل المجتمع الدولي.

والسؤال المطروح هنا، هو: فيمن العيب؟ في الجماعة التي اختارت ونهجت وقبلت باللعبة الديمقراطية، وفازت فيها؟!.. أم العيب في الدولة العميقة بمصر، وبعض أشقائها من العرب، الذين انقلبوا على الشرعية الدستورية، وأطاحوا بأول رئيس مدني منتخب في تاريخ مصر، وأحدثوا مجازر دموية، ووضعوا محاكم هزلية لرافضي الانقلاب؟! أم العيب في (الصمت) الذي ينتهجه المجتمع الدولي (عمداً)، تجاه كل من لا يرغب أن يرى وجهه؟!

ببساطة، وبدون تحيز، عندما ننظر إلى تاريخ الإخوان المسلمين لأكثر من ثمانية عقود، وما تعرضوا له طوال هذه الفترة من السجون والإعدامات والاغتيالات والاتهامات، نرى بوضوح أن الجماعة لم تنحرف عن سلميتها واعتدالها في الفكر والممارسة قيد أنملة، رغم محاولات جرها إلى العنف والتطرف، بل بالعكس أصروا أكثر فأكثر على تمسكهم بالوسائل السلمية، كالمظاهرات والاعتصامات والنشاطات المدنية الأخرى، ولم يلجأوا يوماً إلى القتل والدمار والعبوات الناسفة.

ومن يتابع تاريخ الجماعة، بشيء من الإنصاف، يدرك بجلاء أن الإرهاب (رغم أزمة تعريفه) بواد، والجماعة بواد آخر، ويفهم أن من الكبائر، فكرياً وأخلاقياً ومنطقياً، درج هذه الجماعة في القوائم التي تضم من يوصمون بـ(الإرهاب)! ومن لم يسعفه الوقت للبحث في صفحات التاريخ، فلينظر إلى أحداث ثمانية عشر شهراً أعقبت الانقلاب بمصر، ويرصد ما آلت إليه الأحوال، بدءاً من الانقلاب، ومروراً بالمجازر الدموية، وانتهاءاً بالمحاكمات المسرحية الهزيلة، ومن ثم ليحكم على مجريات الأحداث، ويقول كلمته للإنصاف والتاريخ.

نحن على يقين بأنه ليس هناك أي غموض في حقيقة ما ذكرنا، وأن القاصي والداني يعرف ذلك، لكن المشكلة تكمن في عدم الإنصاف، وانعدام النظرة الحيادية تجاه الآخر، المختلف فكرياً وسياسياً، وفي الازدواجية التي يعيشها العالم اليوم، لا في حقيقة مجريات الأحداث.

على المنصفين من المثقفين، والسياسيين، أن يرفعوا أصواتهم، بغية إعلاء كلمة الحق المبني على المنطق والفطرة السليمة، وفضح الإرهاب المتدثر برداء المدنية.. ❒

أخبار وتقارير

الأمين العام يتفقد تنظيمات (يككرتو) ويلتقي بعلماء ووجهاء مدن السليمانية

متابعة وإعداد: المحرر السياسي



✍ زار الأمين العام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني (محمد فرج)، يوم الجمعة الموافق ٢٠١٥/١/١٦، محافظة السليمانية في زيارة استغرقت عدة أيام ،شارك خلالها في (مهرجان خال) الدولي لقراءة القرآن الكريم.

وفي اليوم التالي، ٢٠١٥/١/١٧، أجرى الأمين العام مع الوفد المرافق له، سلسلة زيارات تفقدية لتنظيمات ومؤسسات (يككرتوو) في مدينة السليمانية، شملت المركز الأول بفروعه ومناطقه التنظيمية. وأشاد سيادته، في كلمات ألقاها خلال الاجتماعات المتواصلة، بالجهود الجبارة التي يبذلها الاخوة والأخوات في تدعيم مسيرة (يككرتوو) الإصلاحية، وترسيخ قيم التعاون في المجتمع الكوردستاني، حاثاً إياهم على التآزر والتواصل الإيماني، ومواصلة العمل الدؤوب، كما هو عهدهم، حتى تحقيق الإصلاح، وسيادة مجتمع العدل. ووجه الأخوة العاملين في المؤسسات والقنوات الإعلامية بضرورة تحري الصدق في الخبر، والتزام الحياد في النشر، والتقيد بالمسؤولية الاجتماعية، كما ينص عليها منهج (يككرتوو).

وزار سيادته والوفد المرافق له مساء ذات اليوم ٢٠١٥/١/١٧، نادي (آشتي)



ومؤسسات (يككرتوو)، ولقاء شخصيات عامة في مدن محافظة السليمانية. والتقى في مستهل زيارته بجمع من علماء الدين الإسلامي والشخصيات الدعوية والاجتماعية، مشيداً بجهدهم وجهادهم في مسيرة الدعوة الوسطية، وتعزيز القيم الإسلامية في المجتمع الكوردستاني. وبعدها قام سيادة الأمين العام، والوفد المرافق له، بسلسلة زيارات لعدد من شخصيات ووجهاء مدينة سيد صادق، استبقها باجتماع مع مسؤول المركز العاشر، وأعضاء المركز، وكوادر الحزب.

وعاد الأمين العام إلى مدينة (أربيل) يوم الإثنين الموافق ٢٠١٥/١/١٩، وأشرف على الاجتماع الاعتيادي الدوري للمكتب السياسي، حيث استعرض نتائج زيارته للسليمانية، مع استعراض مجمل الأوضاع الكوردستانية والعراقية والإقليمية، وجرى التأكيد على وحدة إقليم كوردستان، ورفض كافة محاولات تشكيل مجالس وكانتونات في أي بقعة من الإقليم، في إشارة إلى تحركات جهات سياسية لفرض إدارة معينة على أهالي المنطقة❐

الرياضي، واستقبل من قبل (كوردستان سيوكاني)، رئيس النادي، وأعضاء النادي، ومجموعة من اللاعبين والرياضيين، مؤكداً دعمه الكامل لهم.

وانتقل أمين عام الاتحاد الإسلامي الكوردستاني يوم الأحد الموافق ٢٠١٥/١/١٨ إلى (قضاء بينجوين) في زيارة تفقدية لتنظيمات الحزب، حيث استقبل والوفد المرافق له بحفاوة بالغة من قبل مسؤول وأعضاء مركز بينجوين، واستمع سيادته إلى شروح مفصلة من الأخوة والأخوات أعضاء وكوادر (يككرتوو) في اجتماع استغرق ساعتين عن واقع العمل الدعوي والتربوي والتنظيمي في المدينة، والأوضاع الإدارية، وتعاون كوادر الحزب مع الإدارة المحلية على كافة الصعد خدمةً للمواطنين.

ووصل سيادة الأمين العام، إلى مدينة (سيد صادق)، في إطار زيارته التفقدية لتنظيمات

محفل (خال) الدولي لقراءة (القرآن الكريم) يختتم فعالياته بنجاح

تقرير: الحوار



✍ انطلقت بمدينة السليمانية – ثاني أكبر مدينة بإقليم كوردستان – (يوم الجمعة الموافق ١٦/١/٢٠١٥)، على قاعة الفن، فعاليات (مهرجان خال) الدولي السادس لقراءة (القرآن الكريم)، بمشاركة خمسة من أبرز المقرئين، وهم: (الدكتور أحمد نعينع)، و(الشيخ محمد بسيوني)، من جمهورية مصر العربية، و(أحمد يوسف)، من دولة بنغلاديش، و(الدكتور كوجر عمر)، و(الشيخ حسين البرزنجي)، من إقليم كوردستان.

المهرجان الذي نظمه (مركز تنمية نشاطات الشباب)، بدعم من بعض الشركات الأهلية وكرماء السليمانية، واصل فعاليته ليومين متتاليين، الجمعة والسبت ١٦-١٧/١/٢٠١٥.

وحضر المهرجان السادة: الأمين العام الحالي للاتحاد الإسلامي (محمد فرج)، والسابق (صلاح الدين محمد بهاء الدين)، بالإضافة إلى عدد من قيادات الاتحاد الإسلامي، إلى جانب مسؤولين حكوميين وحزبيين، وعدد من المنظمات الجماهيرية والمدنية، وممثلي دوائر حكومية، وشخصيات



دعوية وأكاديمية، وعلماء دين أجلاء، وأئمة وخطباء مساجد السليمانية، وبرلمانيين، إضافة إلى جمهور كبير غطى أركان القاعة، وعدد من الصحفيين، وممثلي المؤسسات الإعلامية المختلفة، وبتغطية حية ومباشرة من قبل فضائيتي (سبيدة) و(بيام).

وقال رئيس اللجنة المنظمة للمهرجان (كوران عباس) في الكلمة الافتتاحية: "إن هذا المهرجان امتداد لمهرجانات سابقة، وسيتواصل تنظيمه في الأعوام القادمة، مساهمة في تفعيل وتنشيط قراءة وتجويد القرآن الكريم لدى الشباب، وإظهاراً لقدرات المبدعين منهم في هذا الحيز المبارك"، مضيفاً: "إن تسميته جاءت استذكاراً للعلامة الكوردي الراحل (الشيخ محمد خال)"، "وتنظيمه في السليمانية يأتي تبياناً لأصالة انتماء المدينة العقدي"، "وبصفتها عاصمة الثقافة لإقليم كوردستان".

من جهته قال (الدكتور عمر كوجر)، خلال كلمة مقتضبة له في الحضور: "منذ فترة طويلة كان حلماً إقامة هكذا مهرجانات قرآنية دولية في كوردستان، ولخمس سنوات خلت تحقق الحلم، وجرى تنظيم محفل قرآني سنوي، وها نحن في هذا العام ننظمه أيضاً".

واختتم محفل (خال) الدولي لقراءة القرآن الكريم فعالياته بمراسيم تكريم المقرئين الخمسة، برعاية الأمين العام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني (محمد فرج).

يذكر أن عدداً من القراء الكورد المعروفين برزوا في مجال تجويد وقراءة القرآن الكريم، وقد تم فتح العديد من المراكز الخاصة بتجويد القرآن الكريم في عموم الإقليم، والتي بلغت أكثر من ٥٥ مركزاً للتجويد، موزعة ما بين السليمانية ودهوك وأربيل❐

ندوة تستعرض التطرف من المنظور الإسلامي

تقرير: الحوار



✍ تعكف الهيئات الفقهية ومراكز العلوم الشرعية بإقليم كوردستان على بيان أسباب نشأة الغلو والتطرف الديني وتداعياتهما على المجتمع ككل. وتعقد المؤسسات لهذا الغرض باستمرار ندوات ومنتديات تتوخى منها التعريف بكيفية الخروج بفهم صحيح في تفسير النصوص، والتوعية بمقاصد الشريعة، باعتبارها أدوات لتنزيل النص على الواقع، وإثبات خطأ الفهم الحرفي للنصوص، لأنه مدخل للتطرف الذي بات يعصف بالمجتمعات الإسلامية ويهدد استقرارها.

ففي أربيل نظم (مركز الشافعي للعلوم الشرعية والروحية) تحت شعار الآية الكريمة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ندوة حوارية موسعة بعنوان (التطرف من المنظور الإسلامي)، ألقى فيها المفكر والباحث الإسلامي الدكتور (محسن عبد الحميد) محاضرة قيمة، استعرض فيها مكامن التطرف ومخاطره، مذكراً بممارسات (القاعدة) و(داعش) كمثال شاخص على ذلك.

الندوة التي عقدت يوم الإثنين الموافق ٢٠١٥/١/١٢، على إحدى قاعات جامعة صلاح الدين، حضرها جمع غفير من الشخصيات السياسية والأكاديمية وعلماء الدين وطلاب العلوم الشرعية وصحفيين ومهتمين بالفكر الإسلامي.

واستدل الدكتور (محسن عبد الحميد) بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال سلف الأمة، التي تشير إلى الإنسان باعتباره محور هذه الحياة، بغض النظر عن انتمائه العقائدي والفكري، وأن الله (سبحانه وتعالى) رب العالمين لا رب المسلمين فقط.



الاختلاف والتباين لا يعني الخصام والعداوة والتنافر.

وأكد الدكتور (محسن عبد الحميد) في محاضرته، أن الأصل في تعامل المسلمين مع غيرهم هو الإحسان والبر والعدل، مستشهداً بالآية القرآنية (لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)، ولفت إلى أن النزوع إلى التطرف له بواعثه، وهي الاستبداد والظلم والعنصرية والطبقية والطائفية، وضرب أمثلة على ذلك فيما يحدث في العراق وبلدان أخرى.

وأخيراً حذر من الفتاوى التي لا تأخذ بفقه الواقع، ولا تحسب لمتغيرات الزمان والمكان حساباً، مشيراً في ختام محاضرته إلى أن (داعش) ظاهرة مركبة للتطرف والغلو، ومدفوعة من جهات (لم يسمها) في عدوانها على إقليم كوردستان❒

وأكد أن الآية الكريمة (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)، تمثل دلالة واضحة على أن الإنسان لا يُحاسب ولا يُعاقب في الدنيا على ما يحمله من معتقد، ولا يمكن فرض وصاية عليه، أو إرغامه على اعتناق دين دون اقتناع، وأن الله (سبحانه وتعالى) هو من بيده الفصل، وذلك يوم القيامة.

وأوضح الدكتور (محسن عبدالحميد) أن تباين الناس واقع أزلي، وهو حكمة ربانية، لقوله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)، مبيناً أن

مؤتمر لمواجهة التطرف يجمع علماء دين مسلمين ومسيحيين في السليمانية

تقرير: الحوار



✍ تواصل الفعاليات الإسلامية الكوردستانية نشاطاتها التوعوية والتعريفية بإظهار سماحة الإسلام، ونبذ العنف والتطرف، وحث المسلمين على التواصل مع أصحابات الديانات السماوية الأخرى، لما فيه خير الإنسانية جمعاء.

ففي مدينة (السليمانية)، نظم (اتحاد علماء الدين الإسلامي في كوردستان)، بالتعاون مع (كلية العلوم الإسلامية) في (جامعة السليمانية)، و (مجلة حراء الثقافية)، يوم الإثنين الموافق ٢٠١٥/١/١٩، مؤتمراً علمياً تحت شعار: (رسالة الرسول أفضل طريقة لتطوير المجتمع والإنسانية)، شارك فيه عدد كبير من علماء الدين الإسلامي وأساتذة العلوم الإسلامية في كوردستان، بالإضافة إلى عدد من المدعوين من دول العالم الإسلامي، من بينها تركيا، مصر، المغرب، العراق، وحضور رجال دين وشخصيات مسيحية رفيعة المستوى.

وقدَّم كل من (د.صباح البرزنجي)، و(د.عبدالفتاح حسين)، و(د. عرفان رشيد)، من إقليم كوردستان، و(د.صابر عبدالفتاح المشرفي) من مصر، و(د. محمد جكيب) من المغرب، والباحث (نوزاد صواش) من تركيا،





بحوثاً حول الإرهاب والتكفير والتعايش، موضحين ضرورة تصحيح هذه المفاهيم، والعمل بها وفق السيرة الصحيحة لرسول الإنسانية (محمد) (صلى الله عليه وسلم)، التي تحفل بالحلول الواقعيةً للكثير من المشكلات والأزمات التي تحدث في العالم الإسلامي، لأن الجانب الأعظم من المشكلات والأزمات التي تواجهها منطقة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي هي نتيجة الفهم والتفسير الخاطئ لمفاهيم الدين الإسلامي المعتدل.

وأكد المشاركون في المؤتمر عدم وجود مكان للتشدد والعنف في الدين الإسلامي، كما وتناول المؤتمر السبل الواجب اتباعها لتخطي ذلك الفكر الخاطيء الذي تشكل حول الدين الإسلامي.

وتطرق المشاركون في بحوثهم ومحاضراتهم لأعمال العنف والتشدد باسم الإسلام، مشيرين إلى ظهور جماعات



وتنظيمات، منها (القاعدة) و(داعش)، تدعي أنَّها تسير على نهج الرسول وسنته، وتحاول إظهار الدين الإسلامي على أنَّه دين عنف وتشدد، ولديها الفهم الخاطيء للكثير من أعمال الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، موضحين أنَّ الفهم الصحيح للدين الإسلامي يكون من خلال القراءة والفهم الصحيح للسيرة النبوية الشريفة❑



أعظم اختراع بشري !



محمد واني

✍ كلنا نمارس التبرير في حياتنا اليومية، سواء كنا زعماء سياسيين، أو مفكرين، أو أشخاصا عاديين، ضمن إطار العائلة في البيت الصغير، أو في المجتمع والدولة، الكل يبرر للكل، حتى الطفل الذي يرتاد مدرسته، يكون قد تشرب أبجديات (فن) التبرير، في البيت أو الحارة، قبل تعلمه أبجديات اللغة في المدرسة، ويحفظ عن ظهر القلب المبررات التي يغطي بها غيابه وكسله، ومشاكسته في الصف، أو في الشارع، أمام معلميه، أو أبويه، محاولا إقناعهم بحجته، وقد تنجح خطته، ويقتنعون بها، وقد لا تنجح، ويتعرض لموقف (بايخ)، الأمر يتوقف على مدى ذكاء ومهارة المبرر في وضع خطته (كذبته) المحبوكة. وعندما يشب، ويكبر، تتوسع خبرته ومداركه أكثر، ويتعلم مبادئ وأسس هذا الفن أكثر، حتى يصبح أستاذا كبيرا في هذا المجال، ويقوم بتعليم الأجيال اللاحقة. هذه العادة التي تنتشر وتتطور أكثر في المجتمعات المتخلفة، بينما تضيق وتنحسر في المجتمعات المتحضرة، التي تعتمد الصدق والشفافية في مسيرتها الحياتية..

والتبرير – بحسب علماء النفس والاجتماع والفلسفة– «حيلة لا شعورية، تلجأ النفس البشرية إليها، وتسوغ سلوك الشخصية، أو ميولها، أو دوافعها، التي لا تكون مقبولة عند المجتمع»، أي أنه (كذب مقنع)، أقوى وأسوأ من الكذب العادي. فالمبرر يتعمد الكذب على نفسه، وعلى الآخرين أيضا، يعني هو كذب مركب، وهو "أعذار، تبدو للنظرة العابرة أنها مقنعة ومنطقية، ولكنها ليست الأسباب الحقيقية، والدوافع الفعلية، يعني هي أعذار واهية". وأخيرا " هو الشماعة التي يعلق الإنسان عليها أخطاءه، وفشله.

و(التبرير) يعتبر أهم وأعظم اختراع لغوي وفكري واجتماعي وسياسي واقتصادي اكتشفه الإنسان منذ أن وجد. وما يميزه عن الحيوانات ليس اللغة، ولا العقل، ولا الإحساس، ولا الوظائف الجسدية، ولا أي شيء آخر" فكل ما هو موجود فيه، موجود فيها، وربما أكثر، ولكن ما يميزه عنها هو (التبرير)، فهو اختراع يتفرد به الإنسان وحده، دون غيره من الكائنات الحية الأخرى الموجودة معه..

والعجيب أن هذه العادة السيئة تلازم الإنسان حتى وهو في الآخرة، وأمام الله، الذي لا تخفى عليه خافية، محاولا التخلص من ورطته بكل السبل، وإيجاد تبريرات لأفعاله المشينة التي اقترفها في الدنيا، والإفلات من العقاب المحتوم..❒

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي (دلشاد علي)

سيرة ذاتية



- ولد سنة ١٩٧٠ في السليمانية.
- تخرج من معهد الفنون الجميلة/السليمانية عام ١٩٩٠.
- أقام ستة معارض شخصية للفترة من ١٩٩٢ – ٢٠١٠.
- شارك في أكثر من ثلاثين معرضاً للفن التشكيلي.
- وله سبع لوحات جدارية.

قيمة الاشتراك السنوي في المجلة (20000) دينار عراقي

ثمن النسخة (1500) دينار

